

مَكْتَبَةُ الدِّرَاسَاتِ اللِّغَوِيَّةِ

(١)

اللِّسَانُ وَالْأَنسَانُ
مَدْخُلٌ إِلَى مَعْرِفَةِ اللِّغَةِ

بقلم
الدكتور حسن طائفا

الدَّارُ السَّامِيَّةُ
بيروت

دار الفلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
رئيس - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الثانية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

اللسان واللسان
مدخل الى معرفة اللغة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ما الذي يحدث عندما تنبثق فكرة من الأفكار في خاطر الإنسان فيريد نقلها إلى أخيه الإنسان، دقيقة، شديدة الشبه بما يجول في ذهنه؟ إنه — والفكرة ما تزال هائمة في آفاق النفس — لا يجد لها أبعاداً محسوسة، لا يعرف لها كنهاً مادياً يحمل تقاسيمها وتفاصيلها، فهي في المطلق الفكري وجود غير متجسد، شيء مائع رجراج تستحيل الإحاطة به. وهنا يحدث ارتباط معجز بين العقل والأعصاب وبين الأعضاء الجسمية للإنسان، فيبدأ عملية ترجمة: من المطلق الصامت إلى المحدد الصائت. يخرج الهواء من صدره، فتتحرك أجهزة موسيقية، بعضها في حنجرتة، وبعضها الآخر في حلقة وفمه وأنفه، وإذا بالفكرة تلبس رموزاً مسموعة بالأذن، وتصبح — بهذا الشكل — كلاماً. هذه العملية المعقدة الدقيقة تميز الإنسان عن الحيوان، وأفكاره المتبلورة في أصوات هي التي تكفل تقدمه الحضاري كله. فالأسلاف الأول يقدحون أفكارهم، ثم يعبرون عنها باللفظ المنطوق، فتصبح تراثاً لأبنائهم، وزاداً عقلياً وروحياً ووجدانياً للأجيال التي تليهم، به يغتذون، فيستمدون القوة، وتنمو مداركهم، بحيث تبدأ مسيرتهم، لا من نقطة الصفر، بل من حيث أوصلهم الآباء والأسلاف. وهكذا تتأكد سنة التطور، ويصبح تقدم الإنسانية أمراً طبيعياً، كما أن الجمود الذي تتصف به الحيوانات العجاء — هو أيضاً — طبيعي فيها، لأنها لا تترجم فكراً إلى ألفاظ منطوقة، وبعبارة أبسط: لا لغة لها.

هذه العملية التي يخرج فيها الفكر مسبوكة في قالب مادي هو الصوت،

والتي تبدو بسيطة لأول وهلة، لها قوانين تحكمها، لها ناموس يوجهها، ولها ظروف تطرأ عليها فتتقلب بها بين القوة والضعف. بل إن كل ما يطرأ على الفكر البشري، أو السلوك الأخلاقي، أو المجتمع الإنساني، في حالتي الحرب والسلام، والبؤس والرخاء، والفوضى والنظام، يبدو واضحاً في الكلام، وتتجاوب معه اللغة، حتى إننا أحياناً لا نعرف عن أمة من الأمم المندثرة إلا بقايا من لغة، ومع ذلك فتلك البقايا تكفي لتصوير وضع تلك الأمة الحضاري، وقيمة ما خلفته لنا من غنائم الفكر، وفتوحات العقل.

ماذا يحدث أيضاً عندما أكون مستمعاً لا متكلماً، أنصت إلى مخاطبي فأوافقه أو أخالفه، أصدقه أو أكذبه، أؤمن بإخلاصه وشرفه أو أوقن من نفاقه وتضليله، تتجاوب معه عواطفني أو تنفر منه وتزدريه؟ إنه في كل تلك الأحوال يتكلم، يستعمل نفس الألفاظ والجمل التي أستعملها تقريباً؛ ومع ذلك يختلف حكمي على ما يقول بين لحظة وأخرى؛ بل قد أسمع ولا أفهم، وقد أفهم ولا أقتنع، وقد أقتنع ثم أكابر. كل هذه مرتبطة بنشاط اللسان، ونشاط اللسان له مسالك ومزالق، وباب معرفة ذلك كله هو معرفة اللغة.

وكل ذلك مفروض فيه أن المتكلم عنده فكرة يريد أن يخرجها إلى الملاء، في ثوب من الألفاظ. لكن هناك متكلمون ليست عندهم فكرة، أصابهم مرض الثرثرة، أي الجلبة اللفظية التي لا تنطوي على معنى؛ فما أصل هذا المرض؟ وما علاجه؟ وكيف يتحول إلى وباء؟ وما نتائج هذه الثرثرة الوبائية إذا اجتاحت الصحافة والثقافة والسياسة في أمة من الأمم؟ وهناك نقيض ذلك أيضاً، وهو الإنسان الذي تتألق في ذهنه أفكار عظيمة، وخواطر لا مثيل لها، ولكنه يعجز عن وضعها في الألفاظ التي تليق بها، أو يفلح بعد الجهد الجهيد في إظهارها على نحو ما، وكأنها لبست ثياباً ضيقة جداً، تتمزق عنها من كل مكان. هذا الفقر اللغوي – هو كذلك – مرض، إذا انقلب وباءً شوه الحضارة وعطلها، فكيف يمكن علاجه؟

كلام البشر إذن ليس من البساطة بما يبدو عليه لأول وهلة. فهو نشاط

فكري وحضاري فعال في غيره، ومنفعل به، وهو حيّ متطور متغير، يعتريه النمو والاضمحلال، ويتألق فيه الشباب كما تصيبه الشيخوخة، بل إنه كثيراً ما يواجه الموت. وكم من لغات ماتت، ولغات في النزاع الأخير! وكم من لهجات تطاول اللغة الأم التي ولدت منها، وتحاول فرض نفسها بالقوة، وإسقاط أمها الفصحى عن عرشها لتحل مكانها! وإذا كان هذا من سنة التطور فإنه إذا ترك سهلاً، دون أن يخضع لتوجيه واع، وتدبير حكيم، انطوى على كوارث فكرية وثقافية وقومية لا يعلم مداها إلا علام الغيوب.

ومن الواضح أن العلوم اللغوية المعيارية، التي تتضمن قوانين الفصاحة والسلامة في لغة ما، كالنحو والصرف مثلاً، لا تجيب عن أكثر هذه المسائل التي لا مجال لتجاهلها^(١). لذلك عُنِيَ القدامى من المفكرين العرب وغيرهم بتقليب هذه الأمور على وجوهها المختلفة، وامتحان كل الآراء والظنون التي تبدو حولها؛ وكان من ذلك في تراثنا العربي والإسلامي مؤلفات كثيرة كالخصائص لابن جني، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس، والمزهر في علوم اللغة للسيوطي وغيرها، إلى جانب ما كثر الجدل من حوله مما يتصل باللغة في كتب التوحيد وعلوم الكلام، والفلسفة، والمنطق، وأدب البحث والمناظرة، وأصول الفقه.

ولكن فترة طويلة من الجمود خيمت على الفكر العربي، في القرون التي أخذ فيها الترك بمقاليد الأمة الإسلامية ومقدّراتها، فتوقفت هذه البحوث، إلى أن جاء الفكر الأوروبي الحديث والمعاصر، فنفض عن تلك المسائل الهامة في تاريخ الحضارة البشرية غبار النسيان، وأصبحت للبحوث اللغوية مدارس ومذاهب حافلة زاخرة، تمد الفكر اللغوي بخلاصة نشاطها الذي يتعاون تعاوناً

(١) يقول ابن جني في الجزء الأول من «الخصائص»، ص ٣٢: «... وليكون هذا الكتاب ذاهباً في جهات النظر، إذ ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجر والجزم، لأن هذا أمر قد فرغ في أكثر الكتب المصنفة فيه منه. وإنما هذا الكتاب مبني على إثارة معادن المعاني، وتقدير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والخواشي...».

وثيقاً مع العلوم اللغوية المعيارية من نحو وصرف وغيرهما، في سبيل تأمين أداة الفكر الأولى، وهي اللغة، ضد الهزات العنيفة، أو السكتات المخيفة، التي ربما تتعرض لها لو تركت دون رعاية وفحص وصيانة.

واللغة جديرة بكل هذا العناء، وبأكثر منه. فهي معجزة الفكر الكبرى، وهي عندنا - نحن العرب - معجزة الله الكبرى في كتابه المجيد. لقد كان القدامى منا ومن غيرنا يقفون أمام اللغة متحيرين: كيف عرفها الإنسان؟ ومتى؟ وهذه اللغات التي تتحرك بها ألسنة البشر، كيف تنوعت؟ وما القواعد الفكرية والصوتية، والعوامل التاريخية أو الاجتماعية التي أعطت لكل لغة منها مميزاتها؟ وماذا بقي من صلات القرابة بين هذه اللغات بعضها ببعض؟ وكيف يمكن تحديد هذه القرابة؟ وما هي فصائل لغات البشر؟ وما أحسابها وأنسابها؟ وما تزال من بعد أكثر من مسألة تنجم على طريق المعرفة اللغوية، التي هي عدة العدد، وعمدة العمد، في معرفة الإنسان. ومعرفة الإنسان لم تكن في يومٍ ما أوجب منها الآن. فجهل البشر بعضهم ببعض كان منذ القدم أساس النعرات العنصرية، والسر الكامن وراء ألوان القتال والصراع. وكان ذلك أمراً يمكن تصوره في أبعاد محدودة من الشرور والكوارث، أيام كان صدام هذا البشر يتم فرداً لفرد، ووجهاً لوجه، بأسلحة محدودة القوة ضئيلة القدرة على الفتك. ولكن الأمر الآن قد تغير، فطفرت العلوم الطبيعية طفرة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، بحيث توصلت إلى طاقات رهيبية في الدمار الشامل الماحق، ولم يعد هناك من واقٍ إلا معرفة الإنسان لأخيه الإنسان روحاً وفكراً ووجداناً، بحيث تؤدي هذه المعرفة إلى المرجو منها من التآخي والمسالمة. والمعرفة اللغوية هي التي تكشف بوضوح مجاهر تاريخ الفكر البشري متعاوناً بعضه مع بعض ليوصل الإنسانية كلها إلى وراثته هذه الأرض، وراثته رشيدة حكيمة، أسبابها الخير والسلام والرخاء.

وبعد، فما تزال علامات استفهام كثيرة تشب أمام المتأمل في الألسنة واللغات، سواء أكان من المتخصصين أم من عامة المتكلمين. وأنا في هذه

الصفحات أحاول - جهد طاقتي - تلمس إجابات شافية عن الأساسي من تلك الأسئلة، أبحث عنها بصبر وأناة عند أهل الذكر من جهابذة هذا العلم، قديماً وحديثاً، وشرقاً وغرباً، فإن أعياني البحث حاولت بتواضع أن أقول برأيي فيها، وإلا تركت الاستفهام قائماً، يدعو المستجيبين، والمجيبين، من محبي الدراسات اللغوية.

وسيلاحظ القارئ أنني - وأنا أتللمس الإجابة عن المسائل المشكلة المحيرة في شؤون الألسن واللغات - أفجّر مشاكل جديدة قد لا تكون في الحسبان. وفي رأيي أن مثل هذا لا مفر منه لمن يريد أن يسلك في مسالك اللغات، وهو - وراء كل هذا - دعوة للباحثين من أبناء الأمة العربية إلى مزيد من الاهتمام بهذه المشاكل، التي هي بعينها مشاكل الحضارة، وهي من بعد أمانة تراث، يجب أن نتصرف فيه بما يحفظه من التبديد، دون أن ينتهي به إلى التجميد. فالأمة حيّة بحياة لغتها، والحياة تطور دائم، ونمو مستمر، وتقدم لا يعرف الوقوف. وذلك ما نريد بهذه المحاولة أن نحققه من الناحية العملية: أن تسهم في إقامة «وعي لغوي قومي»، فضلاً عن تحقيق ما يهدف إليه كل كتاب يحترم مؤلفه قيمة الكلام، وكرامة القارئ، فلا يحيد به عن القصد الأسمى من القراءة والاطلاع، وهو المعرفة.

المؤلف

البَابُ الْأَوَّلُ
الظَّاهِرَةُ اللَّغْوِيَّةُ

الفصل الأول

علم اللغة وعلوم اللغة

هناك نوعان من العلوم يمكن التمييز بينهما بسهولة:
الأول منهما علم تنظيمي قانوني، هدفه حصر القواعد التي تنظم دائرة معينة من دوائر النشاط الإنساني، بحيث يكون الوقوف على هذه القواعد واستيعابها والتزامها والاحتكام إليها، واقياً من الوقوع في الخطأ عند ممارسة النشاط في تلك الدائرة بعينها، كما تفيد تلك القواعد في اكتشاف مثل هذا الخطأ عند من يقع فيه من الناس. فهذه الطائفة من العلوم تغلب عليها الصبغة العملية التطبيقية، وهي علوم نفعية أولاً وقبل كل شيء، لأن كلاً منها وسيلة وميزان في دائرة اختصاصه، ولذا تسمى أحياناً: العلوم المعيارية.

أما النوع الثاني فهو علم فلسفي وصفي تفسيري، يقف فيه الإنسان أمام ظاهرة من الظواهر الكونية فيحاول، بطريق التأمل الفكري، أو المقارنة والقياس، أو الاستقراء والاستقصاء، أو التجربة العملية، أن يتعمق تلك الظاهرة محدداً أبعادها، معرّفاً بجوهرها، واصفاً لأسبابها ونتائجها، مفسراً لها في إطار الكون الكبير المحيط بها.

والنوع الأول، أي العلوم القانونية، محدود بطبيعته. ومن أمثلته الحساب والجبر والهندسة والفلك، فكلها تمدنا بقواعد دقيقة يتميز بها الصواب من الخطأ في الأعداد والكميات والمساحات والأحجام والأجرام والجهات والأوقات وما إليها، وهي قواعد محصورة، أو ممكنة الحصر عقلاً، لأنها مرتبطة بمحدود. ولكنها عامة، لأنها تصدق في كل زمان ومكان ومجتمع. وهناك أيضاً علوم قانونية

خاصة تنطبق على فئة معينة من البشر، أو على حقبة معينة من التاريخ، فمن ذلك علوم النحو والصرف والعروض. فالأول يتضمن مجموعة القوانين التي تنظم تركيب الكلام في لغة من اللغات، وتكفل تمييز الخطأ من الصواب في استعمال هذه اللغة. والثاني - أي الصرف - دستور لأوزان الألفاظ وصيغها، ودلالات هذه الصيغ، وما يعترها عند تنويع الاشتقاق من عوارض صوتية في لغة معينة، كالإدغام والإبدال والإعلال والحذف والزيادة وما إليها. والثالث - أي العروض - هو مجموع القواعد الاصطلاحية لموسيقى الشعر عند أمة من الأمم: طيلة حياتها، أو في عصر معين من عصورها. فهذه العلوم علوم قانونية خاصة، لا تصلح لكل زمان ومكان، بل تتصل بلغة معينة لأمة من الأمم ترجع إلى أصل واحد، أو يشملها تراث حضاري وفكري واحد. وهذه العلوم تسمى علوم اللغة. ولكننا نسمع أيضاً عبارة «علم اللغة» وكذلك «فقه اللغة»، فأين موقع هذين المجالين من البحث اللغوي؟ أو بالأحرى أين مكانها بين العلوم القانونية التي يوزن بها الخطأ والصواب، والعلوم الوصفية التفسيرية الفلسفية التي تحاول إدراك كنه الظواهر الكونية في ذاتها، وبالنسبة لما يلابسها ويحيط بها؟

نحن نعلم أن اللغة - وراء كونها عربية أو إنجليزية أو حبشية أو صينية - ظاهرة فكرية عضوية خاصة بالإنسان دون غيره من الكائنات الحية. فهي إذن صفة مميزة للنوع البشري، وما دامت بهذه المثابة فلإنها تضع على بساط البحث ما لا يحصى من المسائل والمشاكل: ما هي؟ كيف ظهرت؟ ما علاقتها بالعمليات الفكرية والأحوال النفسانية؟ ما مكانها بالنسبة للأفراد والجماعات؟ كيف تنمو وتتطور؟ كيف تشيخ وتموت؟ ماذا يصيبها من الأمراض والعاهات والآفات؟ لماذا تتنوع الألسنة واللغات، وما علاقة بعضها ببعض؟ إلى ما لا يكاد يحصى من المسائل والمشاكل، التي تعين في نهاية الأمر على معرفة بالإنسان نفسه أوضح وأكمل.

يقف الباحث أمام هذه الظاهرة بكل قوتها وأهميتها، وكل غموضها

وتعقيدها أيضاً، محاولاً الكشف والتحليل والتفسير، وهكذا يجد نفسه بالضرورة في نطاق النوع الثاني من العلوم حسب تقسيمنا السابق، ذلك النوع الذي يتغلغل في ظاهرة ما بالتأمل الفكري، والمشاهدة الاستقرائية، والإحصاء العلمي، والتجربة التحليلية، التي مادتها ودائرة نشاطها وموضوع بحثها اللغة، أو بتعبير أعظم الكلام، دون أن يتقيد بنوع معين منه، أي دون أن ينحصر بحثه في لغة بعينها.

هذا اللون من البحث يسمى علم اللغة^(١).

أما حيث ترتبط الدراسات اللغوية بلغة معينة، أو بمجموعة من اللغات، فتطبق عليها المناهج والنتائج التي كشفها علم اللغة، وتبحث بهذه الوسيلة في خصائص هذه اللغة المعينة، أو المجموعة اللغوية، وتاريخها، وتطورها، وتفاعلها مع الفكر، ومع البشر، ومع غيرها من اللغات، فإن هذا اللون من البحث يسمى فقه اللغة^(٢)، وهو يلتقي مع علم اللغة في أنه وصف وتفسير لظاهرة لغوية، ومحاولة للكشف عن كنهها. كما أنه يستعين - كما قلنا - بالمبادئ العامة، والنتائج المستنبطة، والاكتشافات الكثيرة، والتفسيرات القيمة المستقيمة، التي يمدّه بها علم اللغة. ولكنه يفترق عنه في أن دائرته أضيق وأعمق؛ أضيق

(١) بالفرنسية (Linguistique)، وبالألمانية (Sprachwissenschaft)، وبالإنجليزية (Linguistics) أو (Linguistic Science)، وكذلك (Linguistic Studies) التي يقابلها بالفرنسية (Etudes Linguistiques)، ووضع العالم ج. ماروزو (J. Marouzeau) عنواناً لكتاب له في علم اللغة:

La Linguistique, ou Science du Langage (Paris, 1921).

كما اختار الألماني «بولر» كتاباً له بعنوان: نظرية اللغة:

K. Bühler : Sprachtheorie, Jena, 1934.

كما اختار العالم الألماني «فونكه» عبارة «فلسفة اللغة» في عنوان كتابه:

Q. Funke: Studien zur Geschichte der Sprachphilosophie, 1927.

(٢) بالفرنسية والألمانية (Philologie)، وبالإنجليزية (Philology).

لاقتصارها على وحدة بذاتها من لغات البشر، وأعمق لأنه يوليها عناية خاصة من حيث مميزاتها وتاريخها. وعلم اللغة بدوره يستفيد فائدة كبيرة جداً وضرورية لازدهاره، بالرجوع إلى النتائج الملموسة التي يصل إليها فقه اللغة في بحثه في اللغات المختلفة، لدرجة أن «علم اللغة» لا يمكن تصوره بدون فقه اللغة، بل بتعبير أدق، فقه اللغات.

ولنحاول تقريب ذلك بقدر الإمكان عن طريق التمثيل، فنقول: إن وجود نظام الطبقات في المجتمع يؤدي إلى تقسيمات لغوية فرعية في داخل اللغة القومية نفسها، بحيث يكون هناك أسلوب خاص في التعبير للطبقة الغنية النبيلة، وآخر للطبقة الوسطى، وثالث لطبقة السوق والعوام، وقد يكون هناك اتجاه رابع في التعبير خاص بطبقات المجرمين والخارجين عن القانون. هذه قاعدة عامة مقررة في جميع اللغات، وهي نتيجة من النتائج التي تنتمي إلى علم اللغة، لاحظها اللغويون في الإنجليزية والفرنسية والعربية والهندية والأسبانية وغيرها، كما لاحظوا أن الفرق اللغوي بين الطبقات يتسع كلما كانت هذه الطبقات مغلقة منعزلاً بعضها عن بعض تماماً؛ هكذا كانت في العصور الوسطى الأوروبية، لغة الأمراء ورجال الدين بالنسبة للغة الفلاحين، ثم للغة القتلة وقطاع الطرق. وفي العصور الوسطى الإسلامية لم يكن هناك مجال للمقارنة بين لغة علماء الأزهر، ولغة المغنيات والراقصات في ملاهي الشرق وخماراته، وكانت لغة الفلاح والبدوي مضحكة في أذن ساكن المدينة، كما كانت لغة ساكن المدينة رخوة طرية في سمع البدوي والفلاح. ثم لوحظ أنه بإضعاف الفوارق بين الطبقات تضعف الفوارق اللغوية أيضاً؛ وفي مقدمة وسائل تضيق هذه الفوارق التعليم العام، والخدمة العسكرية الإجبارية، وانتشار الصحافة ووسائل الإعلام والشقيف الشعبية؛ ففي فرنسا مثلاً كانت الخدمة العسكرية الإجبارية تجمع الجنود في ثكنة واحدة، من أبناء الأشراف وأبناء العامة، ومن سكان الريف وأهل المدن، فامتزجت الألسنة، وتقاربت طريقة التعبير المستعملة في القصور والأكواخ، وكمل ذلك بذهاب الأطفال جميعاً إلى نوع واحد من المدارس،

وحضور الناس لنوع موحد من المسارح، وقراءتهم جميعاً للصحف والمجلات والقصص والكتب المتشابهة في لغتها؛ فهذه أيضاً نتيجة من النتائج التي أقرها علم اللغة العام. فإذا ما أخذنا موضوعاً خاصاً باللغة العربية يمس هذه الناحية، وليكن الأغنية العربية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، من حيث اللغة، تبين لنا أنه في القرن التاسع عشر كانت هناك قصائد المنشدين الدينيين وأناشيد أرباب الطرق الصوفية، كما كان هناك فنّ التواشيح والأدوار التي يؤديها المغنون والمطربون في القصور والمجتمعات الراقية، ثم «شاعر الرابة» في المقاهي البلدية والموالد والأسواق، وكان في النهاية غناء «العوالم» والراقصات والمخنثين والمومسات في مشارب الخمر ودور الدعارة. وكانت لكل طائفة لغة خاصة في الأغنية لا تشبه الأخرى، لا لفظاً ولا تركيباً. فلما انتهى عهد القصور، كما انتهى البغاء الرسمي، وانتشر التعليم، وجاءت الإذاعة فأسكتت أصوات شاعر الرابة والمرتل الديني، تقاربت مستويات الأغنية العربية، ولم تعد هناك — أو هكذا يفترض — أغنية خاصة بالمواخير، وأخرى بالقصور، وثالثة بالسامر الريفى، ورابعة بالمسجد أودار الطرق الصوفية. وترتب على ذلك نوع من «الديمقراطية اللغوية» لم يكن موجوداً في القرن التاسع عشر. هذه الملاحظة المطبقة على اللغة العربية في مصر في هذين القرنين تتصل بمباحث فقه اللغة، وهي تنطلق كما رأينا من مبادئ عامة مقررّة في علم اللغة.

وعلى ذلك يمكننا القول بأن فقه اللغة وعلم اللغة ميدانان من البحث متميزان أحدهما عن الآخر وإن تداخلا أحياناً، واستعان كل منهما بالآخر دائماً.

وإلى أواخر القرن الماضي كانت الدراسات اللغوية الفلسفية تندرج كلها تحت اسم «فقه اللغة» وحده، إذ كان طابع الاهتمام بتاريخ اللغات، وإرجاعها إلى عائلات، وتصنيفها، ووصف نحوها وصرفها، والمقارنة بينها، هو الغالب على هذه الدراسات، ولم يكن المنهج التجريبي في دراسة الأصوات اللغوية في المعامل والمختبرات، أو المنهج الاجتماعي المبني على التسجيل العلمي والتحليل الحضاري للغات المجتمعات الفطوية قد ظهرت بعد، وهذه

هي التي جعلت ظاهرة «الكلام» في النوع الإنساني جديرة بأن يستقل بها
«علم اللغة»، يتعاون ويتكامل مع «فقه اللغة».

ولكن ما الكلام؟.



الفصل الثاني

الكلام ونشأته وأصله

الكلام هو وسيلة للتعبير، ولكنه ليس الوسيلة الوحيدة^(١)، بل هناك وسائل للتعبير أخرى كثيرة نذكر منها:

١ - التعبير بالإشارة: كتتحريك الرأس واليدين والكتفين، والدق بالقدم على الأرض، ورفع السبابة في الهواء بحزم؛ كل هذه الإشارات لها دلالات ما نزال نكتفي بها كثيراً عن اللفظ إلى الآن، فنرفع يدينا إلى جانب الجبهة للتحية؛ ونضرب كفاً بكف، وبحسب شكل هذا الضرب يتحدد المعنى: فيبدأ من التعبير عن اليأس، وينتهي إلى تصفيق الحماس والاستحسان، والذي يختلف في ذلك هو سرعة تلامس الكفين ووضع الواحد منها بالنسبة للآخر؛ والإيماء بالرأس إلى أسفل دليل على الموافقة، وإلى أعلى أو إلى الجانبين دليل على العكس. كذلك ما زلنا نستعمل الإشارات ونحن نتكلم بالألفاظ لمساعدة هذه

(١) انظر:

- الدكتور عبد الواحد وافي: نشأة اللغة عند الإنسان والطفل — القاهرة، الطبعة الثانية، مكتبة دار العروبة ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م، الفصل الأول، ص ٧ وما بعدها.
- الدكتور علي عبد الواحد وافي: علم اللغة. القاهرة، الطبعة الرابعة، مكتبة نهضة مصر ١٣٧٧ هـ — ١٩٠٧ م، ص ٧٤ وما بعدها.
- الدكتور طه عبد الحميد طه: فقه اللغة. الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٨ / ١٩٦٩ م، ص ٣٨ وما بعدها.

- J. Vendryes: le langage; Introduction linguistique à l'histoire; Paris 1921, p. 6. SS.
- Lev Semenovich Vygotsky: thought and Language; edited and translated by Eugena Hanfmann and Gertrude Vakar; U. S. A. 1962, pp. 9 - 51.
- Ossip - Lourié: Langage et la Verbomanie; Paris 1912, pp. 1-18.
- Edward Sapir; Le Langage; Traduction de Guillemin; Payot, Paris 1953, p 11-29.
- G. Révész: Origine et Préhistoire du Langage: Traduction de L. homburger: payot, Paris 1950.

الألفاظ على أداء معانيها. وتختلف الشعوب بعضها عن بعض في الاستعانة بالحركات والإشارات أثناء الكلام؛ فبعض أجناس البشر إذا تكلم أحدهم لا يكاد يحرك إلا شفتيه، بينما الآخر إذا فتح فمه انطلقت معه في جسمه لوالب الحركة: فhez رأسه، وأشاح يديه، وحرّك كفيه ودق بقدميه. وقد دخل التعبير بالإشارة في الفن؛ فظهر الرقص، وظهر المسرح الصامت (البانتوميم)، كما أن الركوع والسجود والطواف بالأضرحة والتمرغ في التراب ونحوها، تعابير بالإشارة.

٢ - التعبير بلامح الوجه: وقد يكون هذا التعبير إرادياً؛ مثل مط الشفتين للاحتقار والاشمئزاز، والشموخ بالأنف للتعظيم والتكبر، وإسبال العينين للتعبير عن التواضع أو الحياء والاحتشام؛ كما أنه يكون غير إرادي، كشحوب الوجه عند الفزع، أو جحوظ العينين عند الدهشة، أو احمرار الوجه عند الخجل؛ فالإنسان من حيث التعبير بلامح الوجه قد يستعمله مختاراً، وقد يقع تحت طائلته مضطراً.

٣ - التعبير بالصيحات والصرخات: وهي أصوات طبيعية، لا يمكن أن تدخل تحت قاعدة من قواعد اللغة نحواً أو صرفاً، ومع ذلك فهي تعابير مبينة دون شك: فمنها الضحك؛ وفيه وحده أنغام وألحان، يستعمل بعضها لإظهار السرور والانبساط الصريحين وبعضها للهزء والاستخفاف، أو التعجب والاستغراب. وكذلك الأمر في البكاء، وصراخ الألم والتوجع، أو اللهفة والتفجع، أو الاستغاثة وطلب العون والنجدة؛ وهناك صراخ التشجيع والتعصيد، الذي نسمعه في المباريات الرياضية كثيراً، وصراخ الدهشة، وصيحات الاستياء والاحتجاج، وصفير الاستقباح. وهذه كلها أقرب الأنواع إلى التعبير الصوتي الحيواني الغريزي العفوي.

٤ - التعبير بالأدوات الصناعية: كاستعمال الطبول والأبواق والرايات والنيران في المجتمعات البدائية، واستعمال الإشارات الضوئية والأجراس وزمارات التحذير وغيرها في المجتمعات الحديثة.

هذه كلها أنواع من التعبير تؤدي وظيفة لا جدال فيها في نقل الخواطر بين

البشر بعضهم ببعض، ولكنها مع ذلك لا تسمى كلاماً، ولا ترقى إلى أهمية الكلام، الذي هو كما قلنا ترجمة صائبة للفكر الإنساني.

ولكن متى عرفت الإنسانية التعبير بالكلام؟ الواقع أن تحديد الوقت الذي استطاع فيه إنسانان أن يتفاهما باللفظ أمر عسير، ما تزال وسائل البحث العلمي التي بين أيدينا عاجزة عن كشف سره. وما يدور من نقاش حول هذه النقطة في حلقات الدراسة لا يخرج عن دائرة التخمين والافتراض.

ففي القرن الماضي ظن كثير من اللغويين أن مقارنة اللغات بعضها ببعض، والارتفاع بها من الحديث إلى القديم يؤدي في النهاية إلى تحديد «اللغة الأم»، أو «اللغات الأمهات»، على أقل تقدير؛ وبذلك تتوصل في النهاية إلى تحديد نقطة البدء، التي تحرك فيها اللسان البشري لأول مرة فقال وآبان. وقد نسوا في تلك المحاولة أنهم مهما أمعنوا في التوغل في أعماق التاريخ فلن يجدوا إلا لغات ناضجة تامة النضج، رشيدة كل الرشد، خالصة - في جملتها وتفصيلها - من كل أثر لمن ينطق بالكلام لأول مرة على هذه الأرض، ذلك الإنسان الذي لا يميزه عن الحيوان إلا ما يشبه النقطة الهندسية التي لا وجود لها في عالم المادة، وهي مع ذلك تقف بين مرحلتين وصلاً وفصلاً في آن واحد. فهذه اللغات القديمة الموغلة في القدم، إن أفادتنا في شيء فإنما تفيدنا في توضيح التطور التاريخي الذي خضع له الكلام، دون أن تقول لنا متى بدأ^(١).

وثمة محاولة أخرى لجأ إليها بعضهم التماساً لكشف هذا السر، وهي البحث في لغة البدائيين المعاصرين لنا؛ أي تسجيل لغات المجتمعات التي

(١) كمال يوسف الحاج: في فلسفة اللغة - بيروت (دار النهار) ١٩٦٧م، ص ٢٨ - ٢٩. والنقطة الهندسية ليست النقطة التي نخطها بالقلم، فهذه لها - مهما صغرت - مساحة وأبعاد، ولكن النقطة الهندسية تحد الحركة في خط أو السكون في مركز دائرة، أو تلاقي خطين من اتجاهين مختلفين. ونشعر في هذا الكلام بتأثير صاحبه بنظرية داروين في أصل الأنواع وهي نظرية شاعت وذاعت ثم ثبت نقضها بعد ذلك.

ما تزال في طور الوحشية أو الهمجية أو الفطرية حتى الآن؛ ولنبادر فنقول إن هذه المجتمعات قد تكون بدائية في كل شيء إلا في اللغة، فهي قبائل وعشائر تعيش في مواطنها ويتفاهم أفرادها بعضهم مع بعض منذ ما لا يحصى من آلاف السنين، وكثيراً ما تعطينا هذه المجتمعات مادة لغوية كاملة النمو، توازي في الدقة والتعقيد أحدث لغات الحضارة، أو تعطينا في أحيان أخرى كيانات لغوية مرناً متطوراً، وصل إلى درجة من البساطة واليسر يحسد عليها. وعند إمعان النظر يتبين أن الفرق اللغوي بين الأمم الفطرية المعاصرة والأمم المتمدنة ليس في غط التعبير بالكلام بقدر ما هو في الأفكار، ليس في النحو والصرف وعلم الأصوات وإنما هو في المعجم، في متن اللغة، في الثروة اللفظية. وإذن فلغات الفطريين المعاصرين ربما أفادت في استيضاح العلاقة بين الفكر واللغة، بين الكلام والحضارة، دون أن تلقي أي ضوء على ما يحتمل أن الكلام كان عليه في النشأة الأولى.

ومن الأفكار التي راودت العلماء منذ القدم أن يتلمسوا معرفة بداية الكلام من ملاحظة كلام الأطفال. وليس هؤلاء بأكثر توفيقاً في منهجهم من سابقهم؛ إذ إلى أي شيء تهدينا تلك الملاحظة؟ إلى الطريقة التي يستطيع بها الطفل الصغير أن يتلقى بالتدرج لغة أبويه ولغة المجتمع الذي يعيش فيه. فالطفل لا يخلق لغته من العدم، وإنما يمتلك لغة الوسط المحيط به شيئاً فشيئاً، وهي لغة لا أثر فيها للبداية بالمرة. ولا شك في أن دراسة عملية الكسب اللغوي عند الطفل تنبهننا إلى جوانب كثيرة من عوامل تطور اللغة التي يتعلمها الطفل، لا على لسانه هو فحسب، وإنما على ألسنة الكبار وعلى مر العصور؛ فخلط الأطفال بين نطق الراء واللام، أو بين الفعل الماضي والمضارع، أو بين الضمائر المتصلة ووضعها في الكلمات وتقديم بعضها على بعض أو تأخيرها، كل هذا يعطينا فكرة عن الصعوبات الطبيعية القائمة في اللغة وكيف تحاول الألسنة تذليلها. ولكننا سنظل دائماً محصورين في هذه الدائرة الضيقة، دائرة اللغة الواحدة التي يتمرن هذا الطفل الواحد على الإفصاح بها، وكل مهمته في ذلك

لا تمت إلى الخلق والإبداع بصلة، وإنما تنحصر في تقليد ما يسمعه من الكبار، فإن اختلف عنهم بعض الاختلاف فَمَرَدٌ ذلك إلى الكسل، أو الضعف العضوي، أو العجز عن إتقان التقليد، لا إلى ملكة خاصة في الابتكار والتجديد. والخلاصة هي أن:

١ - مقارنة اللغات الحديثة بالقديمة.

٢ - دراسة لغات الفطرين المعاصرين.

٣ - ملاحظة لغة الأطفال في أول استعمالهم للكلام.

كل هذه إنما تعطي للباحث في علم اللغة نماذج لغوية كاملة النمو كما قلنا، وهي نتيجة لجهود أجيال وأجيال، على مدى قرون طويلة من الزمان^(١).

وبعد، فهل تبقى المشكلة على ذلك بلا حل؟

الحق أن الكلام الإنساني يختلف في ظلمات التاريخ، وما قبل التاريخ، كما يختلف فيها أصل الإنسان نفسه، بل أصل المجتمع الإنساني كله. وهكذا صرح كثير من العلماء بأنه من المستحيل، والحالة هذه، أن نتبين على أية صورة كان أول كلام الإنسان، وإن كان من الممكن البحث في الظروف التي مهدت لهذا المخلوق البشري أن يتكلم، وهي ظروف نفسانية وعقلية من ناحية، واجتماعية من ناحية أخرى.

ومن الآراء المعقولة في هذا الصدد، القول بأن خلقة الإنسان من الناحية العضوية تختلف عن خلقة الحيوان، إذ زُوِدَ الإنسان بجهاز صوتي وعضلي وعصبي يمكنه من صنع اللغة وتبادلها وتنميتها ونحو ذلك، وهي تختلف عن النظرية القديمة، التي تقول بأن الخالق قد أوحى اللغة إلى الإنسان الأول اختلافاً بيناً. فهنا نجد الخالق يودع جسم الإنسان جهازاً لغوياً^(٢)، كما أودع جسم الطيور جهازاً للتخليق في الجو وجسم الأسماك جهازاً للتنفس تحت الماء إلى غير ذلك من أسرار الخليقة التي لا يحيط بها إلا بآرائها. وتتمة هذه

(١) J. Vendryès: Le Langage - Introduction Linguistique à l'Histoire: Paris: p7-8.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥.

النظرية هي أن الإنسان، في بداية وجوده على هذه الأرض، كان يستعمل صوته كما تستعمله بقية الحيوانات، في صيحات النداء أو التنبيه أو إظهار الفرح أو القلق أو الألم ونحو ذلك. ومن المحتمل أنه عرضت لهذا الإنسان مشكلة عضلية ضخمة. كأن اصطاد حيواناً ضخماً ثم لم يستطع حمله أو نقله وحده، أو أنه أراد أن يتعتع صخرة كبيرة أو كتلة خشبية ضخمة فلم تسعفه قوته الفردية، فدعا بمن حوله من بني جنسه ليساعده على ذلك، وكان لا بد من اكتشاف ضابط إيقاعي يتحركون عليه جميعاً، حتى تتجمع قواهم العضلية متزامنة، فتصل إلى ما لم يوفق إليه بمفرده؛ وهكذا بدأ صياح جماعي إيقاعي لضبط حركة العمل العضلي للجميع. وانطلاقاً من هذه النقطة اكتشف الإنسان بفطنته الفطرية أن صوته الطبيعي له من المرونة ما يسهل تشكيله كما يريد، وبالتالي اكتشف الجهاز اللغوي الذي أودعه الخالق فيه واستطاع أن ينغم صوته ويعجنه ويشكله حسب إرادته، وبناءً على هذه النظرية يكون الكلام قد بدأ، لا على شكل جمل مكونة من ألفاظ، ولكن على شكل كتل صوتية ذات مدلول جماعي عام، وذات مظهر إيقاعي منغم موزون. وما تزال هذه الأنواع من الصيحات الإيقاعية لتنظيم الجهود العضلية الجماعية، معروفة شائعة بين الحمالين وعمال وملاحى السفن والعسكريين في الجيوش وغيرهم.

بعد ذلك بدأ الإنسان يعطي الأشياء أسماءها، ويفصل تفاصيل الكون المحيط به فيميزها بألفاظ مفردة. لكن كم من الزمن ثابر فيه الإنسان على ذلك حتى صنع له جهازاً للتفاهم مع غيره جديراً بأن يسمى لغة؟ لا يمكن تحديد ذلك على الإطلاق.

والذي لا شك فيه هو أن محاولة إرادية للتعبير عن فكرة تجول بخاطر الإنسان قد نشأت مع تَحَلُّق الفكر الإنساني نفسه^(١)، أي عندما ظهر الإنسان

(١) منذ حوالي ثلاثين ألف سنة حسب ما قدره علماء السلالات البشرية، وآثار ما قبل التاريخ، انظر:

R. R. Schmidt: l'Aurore de l'esprit humain; Payor — Paris: 1936, p. 260-261.

العاقل على هذه الأرض، ذلك الإنسان الذي يمتاز عن فصائل الحيوان بإدراك الروابط بين الأشياء والقدرة على التمييز بين ما يعرض له من ظواهر الكون وصور الوجود، ومحاولة الإنسان التعبير عن ذلك كانت بدون شك محاولة مركبة معقدة، امتزج فيها الصياح بالحركات بالتعبير بالملامح، إذ ليس واحد من وسائل التعبير المختلفة بأولى من غيره بالتقديم من حيث الزمن. فلغة الإشارة ولغة الصياح، ولغة اللفظ المقطع المنغم، ليس هناك ما يثبت قدم بعضها على بعض، بالرغم من مذاهب للعلماء حاولوا فيها إثبات ذلك: فقال بعضهم بالأصل «الانفعالي» للغة، أي أن بدايتها كانت صيحات تعجبية أو إشارية، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن الإنسانية قد ظلت صامتة لا تتكلم إلا بالإشارة^(١)، وأن التعبيرات اللغوية التي بقيت على شكل صور وإشارات في كثير من الكتابات القديمة ليست إلا بقايا من عصور التفاهم بالإشارة. فالكتابة الفرعونية المصرية، والكتابة السوميرية التصويرية في العراق القديم، والهيروغليفية الحيثية في آسيا الصغرى، وغيرها، تعتمد على رسم الإشارات التي كان يتفاهم بها الناس قديماً، وهو أمر يقوم على بطلانه أكثر من دليل، إذ إن الأساطير القديمة والملاحم التي تحتفظ بأصداً واضحة من طفولة الإنسانية على هذه الأرض، تشير كلها إلى أن الصوت الإنساني المعبر قام، مع الإشارة ومع الحركة، بالخطوة الأولى في التعبير عن أول وميض من النور المودع في الإنسان وهو العقل. أما لغة الملامح ففيها جزء كبير غير إرادي، هو الذي يعبر عن الألم الشديد أو المرض أو اللهفة أو الفزع أو غيرها من الانفعالات الحادة والعوارض القوية، والإنسان فيها يشارك الحيوان. فالحيوان أيضاً يبدو على ملامحه الإعياء والمرض والفزع والألم ونحوها وهو تعبير ينعدم فيه عنصر الإرادة، وكذلك عنصر الاتفاق الاجتماعي على دلالة معينة، وأخيراً عنصر القصد إلى الإبانة والإفهام. والملاحم تعبر ولكنها لا تتكلم، وتعبيرها تلقائي عفوي، أو غريزي اضطراري.

(١) انظر الفصل الثالث من كتاب:

S. Révész: origine et préhistoire du langage; Payot, Paris, 1950, p. 52 SS.

هناك بعض أساليب من التفاهم بالإشارة ثابت على وجه القطع أنها أحدث من الكلام الملفوظ، كالإشارات التي يلجأ إليها الناس عندما يكون الكلام محظوراً أو متعذراً، وكذلك التفاهم بالإشارة مع الصم والبكم؛ لكن ذلك كله مصبوب في قالب يترجم الكلام الملفوظ، ومقصود قصداً أن يحاكيه بعناية تامة، وأن يكون صورة بصرية دقيقة لما كان في الأصل يجب أن يكون مسموعاً بالأذن. وأعلى درجات الإتقان في إحلال الإشارات التي تعتمد على العين محل الأصوات التي تعتمد على الأذن هي الكتابة. فهي في الواقع رموز بصرية مرئية للأصوات، مصطلح على طريقة معينة لتحويلها إلى أصوات من جديد، وهذه الطريقة هي القراءة. وعن الكتابة تفرعت الطريقة اللمسية منذ بداية هذا القرن التي ابتكرها «براي»^(١) لتمكين العميان من القراءة والكتابة.



(١) لويس براي، عالم وأستاذ فرنسي ولد سنة ١٨٠٩. وكان هو نفسه أعمى، فاخترع الكتابة البارزة المعروفة باسمه والتي تتسنى بها القراءة اللمسية للعميان؛ توفي سنة ١٨٥٣.

الفصل الثالث

الكلام وتعريفه

كل وسيلة للتخاطب تعتمد على مجموعة من العلامات العامة المصطلح عليها جديرة بأن تسمى كلاماً، سواء أكانت العلامات صوتية أم غير صوتية. على أن المكانة التي يشغلها الكلام الصوتي المنطوق به في حياة الإنسان وحضارته، والتي لا يضارعه فيها أي نوع آخر من أنواع التعبير أو التفاهم، قد انتهت بأن جعلت لفظة «كلام» مقصورة في الاستعمال على التفاهم الصوتي وحده، لا تتعده إلا على سبيل المجاز. فما هو هذا الكلام؟

هو اللفظ المفيد، كما يقول علماء النحو.

لكننا نلاحظ على هذا التعريف أنه ينظر إلى الكلام من حيث هو حقيقة لغوية واقعة أمام السامع، دون نظر إلى أن تلك الحقيقة اللغوية نفسها وليدة ملابسات خارجية، وعناصر جزئية، شديدة التعقد، لا بدّ للباحث في علم اللغة أو فقه اللغة من أن يعطيها حظها من الأهمية في التعريف.

والكلام عند الفلاسفة يختلف في تعريفه عنه عند النحاة، الكلام عندهم هو النطق، هو المنطق؛ ولنقف عند ما يقوله إخوان الصفا في الرسالة العاشرة من القسم الرياضي من رسائلهم شرحاً لذلك:

فصل

في اشتقاق المنطق وانقسام المنطق إلى قسمين

اعلم يا أخي، أيّدك الله وإيانا بروح منه، أن المنطق مشتق من نطق ينطق نطقاً، والنطق فعل من أفعال النفس الإنسانية، وهذا الفعل نوعان: فكريّ

ولفظي: فالنطق اللفظي هو أمر جسماني محسوس، والنطق الفكري أمر روحي معقول، وذلك أن النطق اللفظي إنما هو أصوات مسموعة لها هجاء، وهي تظهر من اللسان الذي هو عضو من الجسد، وتمرّ إلى السامع من الأذان التي هي أعضاء من أجساد أخرى، وأن النظر في هذا المنطق والبحث عنه، والكلام على كيفية تصاريفه وما يدل عليه من المعاني، يسمى علم المنطق اللغوي. وأما المنطق الفكري الذي هو أمر روحي معقول، فهو تصوّر النفس معاني الأشياء ذاتها، ورؤيتها لرسوم المحسوسات في جوهرها، وتمييزها لها في فكرتها، وبهذا النطق يحدّ الإنسان، فيقال إنه حي ناطق مائت، فنطق الإنسان وحياته من قبل النفس، وموته من قبل الجسد، لأن اسم الإنسان إنما هو واقع على النفس والجسد جميعاً.

واعلم أن النظر في هذا النطق، والبحث عنه، ومعرفة كيفية إدراك النفس معاني الموجودات في ذاتها بطريق الحواس، وكيفية انقذاح المعاني في فكرها من جهة العقل، الذي يسمى الوحي والإلهام وعبارتها عنها بألفاظ بأي لغة كانت، يسمى علم المنطق الفلسفي.

ولمّا كان المنطق اللفظي أمراً جسمانياً ظاهراً جلياً محسوساً، وضع بين الناس لكياً يعبر به كل إنسان عما في نفسه من المعاني لغيره من السائلين عنه، والمخاطبين له، احتجنا إلى أن نذكر من هذا المنطق طرفاً يشبه المدخل، ليقرب على المتعلمين فهم علم المنطق الفلسفي، ويسهل تأمله على الناظرين؛ فنقول أيضاً: إنه لمّا كان النطق اللفظي هو ألفاظ مؤلّفة من الحروف المعجمة، احتجنا أن نذكر الحروف أولاً، فنقول: إن الحروف ثلاثة أنواع: فكرية، ولفظية، وخطية. فالفكرية هي صورة روحانية في أفكار النفوس مصورة في جواهرها قبل إخراجها معانيها بالألفاظ؛ والحروف اللفظية هي أصوات محمولة في الهواء، فمدركة بطريق الأذنين بالقوة السامعة، كما بيّنا في رسالة الحاس والمحسوس^(١)؛

(١) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا - طبع بيروت، في أربعة مجلدات سنة ١٩٥٧م، =

والخطية هي نقوش خُطت بالأقلام في وجوه الألواح وبطن الطوامير، مدركة بالقوة الباصرة بطريق العينين.

واعلم أن الحروف الخطية إنما وضعت سمات ليستدل بها على الحروف الفكرية، والحروف الفكرية هي الأصل:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا وَسَنِيْنٌ مَا هِيْتَهَا فِي فَصْلِ آخِر.

واعلم أن الحروف اللفظية إنما هي أصوات تحدث في الحلقوم والحنك، وبين اللسان والشفيتين عند خروج النفس من الرئة بعد ترويحها الحرارة الغريزية التي هي في القلب، وهي ثمانية وعشرون حرفاً في اللغة العربية، وأما في سائر اللغات فربما تزيد وتنقص، وقد بينّا علّة ذلك في رسالة اختلاف اللغات^(١).

واعلم أن الحروف إذا ألفت صارت ألفاظاً، إذا ضمنت المعاني صارت أسماء، والأسماء إذا ترادفت صارت كلاماً، والكلمات إذا اتسقت صارت أقاويل، والأقاويل نوعان: موزون ونثر، فالموزون كالشعر والرجز والقوافي، والنثر نوعان: فمنه فصاحة وبلاغة، ومنه مخاطبات ومحاورات، والمخطاب نوعان: فمنه ما يتكلم به جمهور الناس فيما بينهم في طلب حاجاتهم بلا احتجاج ولا خصومة، ومنه ما يتكلمون به في دعاويهم وخصوماتهم باحتجاج وبراهين. والدعاوى والخصومات نوعان: إما في أمور الدنيا، وإما في أمور الديانات والمذاهب والعلوم.

= المجلد الثاني: الجسمانيات الطبيعية، فصل في إدراك القوة السامعة، ص ٤٠٧ وما بعدها.

(١) رسائل إخوان الصفا، المجلد الثالث: الجسمانيات والطبيعات والنفسانيات العقلية - الرسالة السابعة عشرة في علل اختلاف اللغات، ورسوم الخطوط والعبارات، ص ٨٤ وما بعدها. ويبدو أن إخوان الصفا يستضيئون بنظرية المثل العليا عند أفلاطون التي يعتبرها أصلاً للوجود.

ولمّا كانت البراهين على صحة الدعاوى التي في أمور الدنيا لا تكون إلا بالشهود والعقود والصكوك، صارت البراهين أيضاً على صحة الدعاوى في أمور الديانات والمذاهب والعلوم لا تكون إلا باستشهاد ما في الكتب الإلهية، والأخبار عن أصحاب الشرائع، أو إجماع الخصوم، أو شهادة العقول بالقياس الصحيح الذي هو ميزان الحق.

ولمّا كان اختلاف الناس بالحزر والتخمين في مقادير الأشياء الموزونة والمكيّلة، دعتهم إلى وضع الموازين والمكاييل ليُرفع الخُلف بها عند الحزر، كذلك اختلاف العلماء في الحكم بالحزر والتخمين على الأمور الغائبة في الحواس، دعتهم إلى وضع القياسات ليُرفع الخُلف بها عند النظر. ولمّا كان في صحة الوزن والكيل يُحتاج إلى شرائط من عيار الصنجات، وصحة المكيال والميزان، وتقويم الكيل والوزن بها، كذلك حكم القياسات التي يعرف بها الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والخير من الشر يُحتاج إلى شرائط ليصحّ بها الحكم^(١).

هذا النص من رسائل فلاسفة الإسلام في العصور الوسطى «إخوان الصفاء» لم يُعرف لنا الكلام بقدر ما حاول أن يبين لنا، بطريقة مدهشة في تقدمها على الزمن الذي كتبت فيه، العلاقة بين اللغة والفكر، وهو موضوع لم يفرغ أحدث علماء الغرب إلى الآن من الخوض فيه. وفي كل مرة تعترضهم مشاكل لا حصر لها. ومهما يكن من شيء فإننا نستطيع أن نستخلص من كلام إخوان الصفاء أن الكلام ظاهرة خاصة بالإنسان لأنه عندهم معنى قائم في النفس أولاً، أي أنه إدراك عقلي لحقيقة ما من حقائق الوجود، ثم تعبير باللفظ عن هذا الإدراك. وهم قد ذكروا أنه عندما يتحول المعنى إلى أصوات، تقوم عملية تبادل بين المتكلم باللسان والسامع بالأذن، كما أشاروا أيضاً إلى أن الصوت المعبر عن المعنى يندفع فيه الهواء من الرئتين، ويقطّعه اللسان والحنك إلى حروف تتألف

(١) رسائل إخوان الصفاء - المجلد الأول، القسم الرياضي، الرسالة العاشرة، ص ٣٩١.

منها الألفاظ. ثم إنهم فصلوا أنواع الكلام: من الضروري للمحادثات العملية البسيطة، إلى الكلام الفني بفصاحته وبلاغته شعراً ونثراً، إلى الكلام العلمي والفلسفي بمناقشاته وقواعده في ضبط العمليات العقلية المعقدة، التي لا بدّ له منها حتى يستقيم النظر وتصحّ الأحكام. فإخوان الصفا إذن قد أعطونا فكرة دقيقة عن الكلام، ولكنهم لم يقدموا لنا تعريفاً جامعاً مانعاً يستطيع المشتغل بعلم اللغة وفقه اللغة أن يستند إليه أو يعتمد عليه.

والتعريف الذي نرتضيه نحن من وجهة النظر الأخيرة هذه هو الذي ساقه العالم الأمريكي (إدوارد سابير) حينما قال: «الكلام هو وسيلة تفاهم خاصة بالإنسان، وغير غريزية فيه، تمكنه من تبادل الأفكار والوجدانات والرغائب، بواسطة رموز صوتية اصطلاحية، على وجه التغليب والتعميم، تصدرها أعضاء النطق إرادياً، باندفاع الهواء خلالها من الداخل إلى الخارج»^(١).

ونريد هنا شرح هذا التعريف حتى يتبين لنا بوضوح ما ينطوي عليه من ملاحظات دقيقة تصف الكلام في عرف علم اللغة.

يقول سابير: إن وسيلة التفاهم المسماة بالكلام غير غريزية، فما مرماه من ذلك؟ يشرحه هو نفسه بأنه لما كان الكلام من أكثر الظواهر شيوعاً في حياة الإنسان اليومية ومن أشدها ألفة لديه، ولما كان الإنسان يجد نفسه يتكلم كما يمشي أو يتنفس، ظن أن الكلام طبيعة ممتزجة به وغريزة أصيلة فيه كالمشي أو التنفس تقريباً. ولكن بقليل من التأمل يتبين أن تعلّم الإنسان للكلام مختلف أتم الاختلاف عن تعلّمه للمشي: ففي حالة المشي، وعندما تصل قوة الطفل العضلية والعظمية والعصبية إلى مستوى معين، يبذل وحده مجهوداً تلقائياً حتى ينهض على قدميه بالتدرّج ثم يمشي ويجري. ومعنى ذلك أن تكوينه الجسماني العضوي يمكنه من ذلك، بل يدفعه إليه دفعاً عندما يثين الألوان طبقاً لقوة طبيعية هو مولود بها.

Ed. Sapir : Le Langage — Introduction à l'Étude de la Parole. Traduction de (١)
S. M. Guillemin; Payot, Paris 153, p. 16 s.s.

وليس الأمر كذلك في الكلام؛ إذ ليس الإنسان ميسراً للكلام بطبيعته، وبمجرد تردد سمات الحياة بين جوانحه، بل بأمر آخر هو أنه يعيش بالضرورة عضواً في مجتمع هو مضطر للتجاوب والتفاهم معه. فلو أننا ألغينا المجتمع، وأبقينا الإنسان وحيداً في أحضان هذه الطبيعة، فإنه سيمشي لا محالة عند بلوغه السن المناسبة لذلك، على فرض أن الحياة بلا مجتمع ممكنة. ولكنه لن يتكلم، أي: لن يتعلم كيف يوصل ما يدور في نفسه إلى العالم الخارجي، طبقاً للنظام التقليدي المصطلح عليه لذلك في كل مجتمع من المجتمعات، والذي يسمى الكلام.

وثمة دليل آخر على أن الكلام ليس طبيعياً يولد به الإنسان كالمنشي، وهو أننا لو انتزعنا طفلاً من بيئته، ووضعناه في مجتمع آخر، له لغة أخرى، لنشأ هذا الإنسان يتخاطب بما أخذه من الكلام عن هذا المجتمع الجديد، وفي كل ذلك تبقى مشية الإنسان واحدة لا تختلف باختلاف المجتمعات. إذ إن المشي حركة عضوية طبيعية عامة في الإنسان، لا تتفاوت بين فئة وأخرى من الناس، وإن حدث أن تفاوتت بعض شيء كان مرد ذلك إلى اعتبارات شخصية فردية، وتفاوتها هذا ليس مقصوداً لذاته كما أنه ليس له هدف. أما الكلام فهو مظهر من نشاط الإنسان يتفاوت دون حد أو قيد كلما انتقلنا من مجتمع إلى مجتمع؛ ذلك أنه تراث تاريخي لكل مجتمع، ونتيجة منطقية لنظام اجتماعي نشأ وترعرع فيه منذ القدم. وهو يتفاوت، كما يتفاوت كل مجهود إبداعي للإنسان بين أمة وأمة، كالعادات والمعتقدات والتقاليد والفنون، وهذا يوضح لنا الاحتياط الذي جاء في التعريف الذي اخترناه للكلام، عندما قال: إنه وسيلة تفاهم غير غريزية، أي ليس الإنسان مفطوراً عليها، ومقدراً لها بمجرد كونه إنساناً، كما هي الحال في المشي مثلاً، بل يتلقاها ويكتسبها اكتساباً من المجتمع الذي يعيش فيه.

وقد خدع بعض الباحثين في اللغات بظاهرة ضللتهم عن ذلك، وهي أنه توجد في جميع اللغات ألفاظ تحمل معناها في هيكلها المسموع نفسه، أي في

جرسها الصوتي، وكأنها تحاكي أصواتاً طبيعية، مما دعا هؤلاء الباحثين إلى القول بأن المحاولات اللغوية الأولى للإنسان كانت بالفطرة، وكانت تقليداً للأصوات وأنواع الضوضاء المنتشرة في الطبيعة، وهذه الألفاظ تنقسم إلى طائفتين:

(أ) ألفاظ الانفعال^(١): وهي عبارة عن أصوات قصيرة تعبر عن التوجع أو الدهشة أو الألم أو ما إليها من الوجدانات العابرة، وهي شائعة في جميع اللغات، مثل: آه، وي، أواه، ها، هيا، واه، أوه... إلى آخره^(٢).

(ب) الألفاظ ذات الجرس المعبر^(٣): وهي تختلف عن الطائفة الأولى في أنها ليست مجرد انعكاس لغوي لصيحات فطرية بسيطة، بل تلحين موسيقي يحاول تقليد الضوضاء الأصلية في الطبيعة، ومن أمثلة ذلك في اللغة العربية: قافاً الدجاج (أوقوا)، همهم القوم، إذا تكلم بعضهم مع بعض فسمع صوته دون أن يتبين ما يقولون، قعقع السلاح، طقطق الخشب أو حوافر الخيل، نش الماء: إذا بدأ في الغليان وأحدث صوتاً مكتوماً. فحّ الثعبان: إذا نفث الزفير من حلقه وهو يهاجم فريسته، ومن ذلك عواء الذئب، ومواء القطط، وخوار البقر، ونهيق الحمير، وشحيج الخيل، وخريير الماء، وأزيز الجراد، وهزيم الرعد.

أمام هذه الظاهرة حسب بعض المتأملين أن جميع ألفاظ اللغة ترتدّ إلى أصوات طبيعية، ومنذ أقدم العصور والعلماء شرقاً وغرباً يرددون ذلك على أنه نظرية متينة لا يمكن دحضها، وفي مقدمتهم العالم العربي ابن جني، وابن بابشاذ، وبخاصة هذا الأخير؛ أما في أوروبا فمن بين الأسماء اللامعة في هذا الميدان القديس توماس الاكويني الذي صرح بأن الأسماء تتجاوب بالضرورة مع طبائع مسمياتها^(٤).

Interjections.

(١)

(٢) إدوارد ساير، ص ١٣ من الترجمة الفرنسية السابقة الذكر.

Onomatopées.

(٣)

Nomina debent naturis rerum congruere.

(٤)

ولكن بالاختبار يثبت خطأ تلك النظرية من الوجوه التالية: ألفاظ التعجب والانفعال الموجودة في اللغة ليست هي بعينها الصيحات اللاإرادية الطبيعية، وإنما هي صورة صوتية تقريبية لها، وتثبت لبنائها على وضع لغوي لا يتغير، ولا علاقة لها بما يصدر عن الإنسان في حالات الانفعال من صيحات تلقائية صادقة، فهي هكذا في معاجم اللغة فقط، وتستعمل بصورتها اللغوية هذه في المسرحيات والقصص والروايات كعوامل للتأثير الوجداني المصطنع، ولكننا لا نستعملها أبداً في حياتنا اليومية، فالمتنبى عندما يبدأ قصيدة في التوجع من الفراق بقوله:

أَوْهَ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي آهَ لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا

إنما يقدم لنا تصويراً بارداً متحجراً لصيحات هي عند طغيان الشعور بألم الفراق، لا بد أن تكون ملتبهة وفوضوية لا تدخل في وزن الشعر؛ وكذلك الحال عندما يقول شوقي في مشهد من مسرحية كليوباترا على لسان أنطونيو:

رُومَا حَنَانِكَ وَاعْفِرِي لِفَتَاكِ أَوَاهِ مِنْكَ وَآهِ مَا أَقْسَاكِ

فيإذا قيل لنا: إن ألفاظ التعجب والانفعال - مهما اختلفت بين لغة وأخرى - فإنه يبقى لها نوع من القرابة بعضها ببعض، ينم عن اتصال وثيق بالغريزة، رددنا على ذلك بأنها ليست إلا محاكاة تقريبية باردة للطبيعة، وأنها إذا تقاربت في مختلف اللغات فبحكم ارتباطها بالطبيعة، ولكنها يندر أن تدخل في بناء ألفاظ أخرى، بحيث نستطيع، بتحليل هذه الألفاظ، أن نعثر عليها ونتعرف على معانيها، وذلك مما يؤكد أنها لون من ألوان التعبير، وليست أساساً لنشأة اللغات.

ويمكن أن نقول عن الطائفة الثانية من الألفاظ التي أثارت هذه المناقشات، - وهي الكلمات ذات الجرس المعبر - إنها توجد هي الأخرى في جميع اللغات لتعطي تصويراً موسيقياً لبعض الدلالات فقط، وهي الدلالات

التي لها أصوات في الطبيعة. ولنتأمل مثلاً بعض دلالات مما ليس له صوت كأسماء الألوان، ولننس قليلاً أن هناك دلالة مصطلحاً عليها لكل من أسماء هذه الألوان؛ هل هناك في الحس أو الوجدان أو المنطق أو الطبيعة ما يمنع أن تدل كلمة «أخضر» على لون الدم، أو كلمة «أحمر» على لون النبات، أو كلمة «أبيض» على لون الليل؟ ليس هناك من مانع، إلا الاتفاق والاصطلاح فقط؛ أما عندما تكون الألفاظ محاكاة لضوضاء معينة فإن المتكلم ليس حراً في الاصطلاح مع غيره، إذ هناك ما يمنع أن أقول قَرَقَع الدجاج، أو أن أتكلم عن حفيف المدافع، أو خريير الطيارات؛ وقد كان ابن سينا حريصاً جداً عندما قال في الإشارات: إن بين اللفظ والمعنى علاقة ما، وربما أثرت أحوال في اللفظ في أحوال المعنى.

وليس من شك أن الإنسان البدائي قد أدخل اعتبار الجرس الصوتي ضمن العوامل التي تساعد على التعبير باللفظ؛ أي أنه بذل أقصى الجهد في أن يحاكي بصوته ما في الطبيعة من أصوات ونغمات، كلما وجد ذلك ممكناً، دون أن يجعل من ذلك قاعدة عامة أو حتى حكماً غالباً. وقد لاحظ سابير^(١) أن قبائل الاثباسكا، وهم من الهنود الحمر الذين يعيشون على الفطرة على ضفاف نهر ماكينزي بأمريكا لا يكثرّون في لغتهم من الألفاظ ذات الجرس المعبر، بل يقول إنهم أفقر في تلك الناحية من اللغة الإنجليزية أو الألمانية مثلاً، على الرغم من أنهم أقرب إلى البدائية وأقل تطوراً من الإنجليز أو الألمان.

وربما تبادر إلى الذهن من قول سابير في تعريفه السابق للكلام بأنه رموز صوتية (تصدرها أعضاء النطق) أن هناك أعضاء خلقت بطبيعتها للنطق، إذ لو قلنا بذلك لعدنا إلى شبهة أن النطق فطري في الإنسان. والواقع أنه ليست هناك أعضاء خلقت خصيصاً للنطق، بل هي أعضاء من جسم الإنسان،

(١) نفس المرجع، ص ١٥.

خلقت لوظائف أخرى مختلفة، ثم استغلها الإنسان بفكره استغلالاً صالحاً في صنع أداة التعبير التي هي اللغة، وفي النطق بهذه اللغة. فالرئتان والحنجرة والحنك واللسان والأنف والأسنان لم تخلق للنطق، وإنما خلق بعضها للتنفس وبعضها للأكل وبعضها للصياح، وانتفع بها جميعاً في التلفظ بما يريد المتكلم توصيله إلى السامع من أفكار، ومثلها في ذلك مثل الأصابع التي خلقت للمس والإمساك بالأشياء، ثم سخرها العقل بعد ذلك في أغراض أخرى كالكتابة أو العزف على الآلات الموسيقية. ويجب ألا ننسى كذلك أن الكلام لا يتوقف ببساطة على نشاط ما نسميه أعضاء النطق، فالخ والجهاز العصبي والسمع، كل هذه تتعاون مع أعضاء النطق في صنع الكلام وإصداره واستقباله وفهمه.

كذلك يجب ألا نسيء فهم ما يقوله الباحثون في العلاقات بين علمي النفس ووظائف الأعضاء، وينتهون منه إلى تحديد منطقة خاصة من خلايا المخ يدعونها مركز الكلام. فليس مركز الكلام هنا في الحقيقة إلا جزءاً من المركز العام الذي ينتهي إليه السمع، ومع ذلك فهو متعلق تعلقاً ضرورياً بمراكز أخرى كالبصر أو الحس أو الذوق أو التذكر؛ فهذه وحدها تأخذ الموجات الهائمة — فيما يسمونه مركز الكلام — قيمتها اللغوية ودلالاتها المفهومة، وهي بدون ذلك لا تعني شيئاً، وبعبارة أخرى فإن مركز الكلام هذا ليس إلا شبكة تصل خيوطها بين عدد عظيم من نقط النشاط المختلفة في المخ، وتتضافر فيها العناصر العضوية والعصبية والنفسية على إحداث أثر واحد هو الذي نسميه في النهاية الكلام^(١).

وفي التعريف الذي نقلناه عن سابير للكلام احتياط آخر، إذ إنه يشترط أن يكون (بوساطة رموز صوتية)، فماذا يعني ذلك؟ إنه يعني بها تلك الأصوات التي تطرق أذاننا على شكل كلمة، أي إشارة مسموعة ترمز بمجرد التقاط الأذن

(١) سابير، نفس المرجع، ص ١٧ - ١٨.

لها إلى نتيجة ما من نتائج التجربة الحسية أو النفسية معروفة لدى القائل والسامع، لا شيء إلا لأنها اصطلاحاً على أن يعطيها تلك الدلالة. فكلمة «رداء» مثلاً ليست بكائن لغوي في ذاتها، إذا أخذناها من ناحية النغم الموسيقي المطلق الذي تحسه الأذن عند النطق بها حروفاً وحركات، أو من ناحية الإحساس العضوي الذي يشعر به الإنسان وهو يخرج من فمه هذه الكلمة بحروفها وحركاتها واحداً بعد الآخر، ولا برؤية العين لهذه الكلمة مسجلة بالكتابة، فعملية الاستقبال البصري لا تجدي في إعطائها صفة الحقيقة اللغوية الواقعة، ولا إذا تناول الإنسان القلم وكتبها بنفسه. وإنما تأخذ هذه اللفظة مكانها في البناء، عندما تتوافق هذه الاعتبارات كلها وكثير غيرها على أن ترتبط في الذهن بالصورة الحسية للرداء ارتباطاً لا ينفصم. هنا تصبح كلمة «رداء» رمزاً صوتياً له دلالة، يعني أنها تصبح عنصراً من عناصر الكلام. ولكي يتم هذا الارتباط الوثيق بين الرمز والدلالة، بين الاسم والمسمى، ولكي يصبح الرمز الصوتي أداة مرنة لتبادل المعرفة، ولتحقيق التفاهم بين أعضاء المجتمع الواحد، يجب أن تتكرر التجربة الحسية أو النفسية المؤدية إلى هذه المعرفة مراراً كثيرة، وعلى عينات مختلفة مما يمكن أن يدخل في نطاق هذه الدلالة، وإلا بقي الرمز الصوتي محدوداً عاجزاً عن الشمول، أي أنه لا يكفي مثلاً أن يقع البصر على رداء واحد، مرة واحدة، حتى نجد له اسماً في المعجم. وخلاصة ذلك:

١ - أن هذه الكلمة لا يحتمل أن توجد في المجتمعات التي لا تعرف الثياب ويعيش أهلها عراة كما ولدوا، لانعدام التجربة المؤدية للمعرفة، المنتجة للرمز الحامل للدلالة في الكلام.

٢ - لو حدث مصادفة أن مرّ أجنبي يلبس رداءً في مجتمع عراة، مرة واحدة، فمن الممكن أيضاً ألا تظهر في لغتهم لفظة دالة على ذلك، ولو أنها نشأت لكانت دلالتها محدودة محصورة في رداء ذلك الأجنبي بشكله ولونه لا تتعداه إلى أنواع الثياب الأخرى، ثم إنها لا تلبث أن تموت وتختفي لعدم الحاجة إلى استعمالها. وهذا ما نلاحظه في اللغة العربية الآن، حيث أصبحت

الألفاظ الدالة على البداوة وشكل الصحراء وتقاليدها الجاهلية وأجزاء الإبل وأنواعها وأوصافها من الألفاظ الغريبة الصعبة، علينا، نظراً لأن استعمال هذه الألفاظ لم يعد مرتبطاً بنمط حضاري للأمة العربية الآن. كذلك نلاحظ أن العرب الأقدمين عندما اتصلوا بالزراعة والصناعة والملاحة والفنون، لم تكن في لغتهم ألفاظ كافية للتعبير عن هذه الدلالات فاستعاروا ألفاظاً من جيرانهم إما من نفس العنصر، الذي نسميه عنصر الساميين، وإما من غيره كما أخذوا عن الفرس والروم والهنود وغيرهم.

الكلام إذن يكون برموز صوتية يشترط فيها أن تكون صادرة من «أعضاء النطق» بالذات لا من غيرها. فأننا إذا صفقت بيدي لأدعو الساقى في المقهى، فقد أصدرت صوتاً له دلالة، تترجم لغوياً بجملة مفيدة أو بأكثر من جملة، إذ كأنني صحت به قائلاً: يا ساقى القهوة إنني أدعوك للحضور، إذ أريد أن أطلب منك شيئاً. ومع ذلك فصوت التصفيق الصادر من اليد هو إشارة أو تعبير، وليس لغة، لأنه لم يصدر عن أعضاء النطق الطبيعية. وشرطيّ المرور عندما ينفخ في صفارته فإنه يطلب شيئاً محدداً منصوفاً عليه في القانون، ولو ترجمناه إلى كلام، لكان يعادل قوله صائحاً بأعلى صوته: أيها السائق، إنني آمرك باسم القانون بالوقوف، فإذا عصيت هذا الأمر فإنك تتعرض للعقوبة التي يراها القضاء بحقك في مثل هذه الظروف. والصوت الصادر من الصفارة اشتركت في إصداره بعض أعضاء النطق الطبيعية كالرئتين والشفيتين، ولكنه لم يتم إلا بالاستعانة بجهاز صناعي ليس جزءاً من أعضاء النطق الطبيعية، فالصفير إذن قد يكون إشارة لها دلالة ولكنه ليس كلاماً.

ومن جهة أخرى نلاحظ أننا لو أخذنا ألفاظاً لا ترتبط ببعضها ببعض برباط فكري له معنى، بحيث يصبح التلفظ بها متتالية غير دالٍ على شيء، فعلى الرغم من كونها أصواتاً وألفاظاً أصدرتها أعضاء النطق الطبيعية إلا أنها ليست لغة أو كلاماً، لأنها لم تدل على شيء؛ ومن أمثلة ذلك تخليط المجانين، وهذيان المحمومين، وفن بعض المضحكين الذين يسردون بسرعة ألفاظاً متلاحقة دون

أن يربط بينها مفهوم ما؛ كل ذلك ليس كلاماً ولا لغةً، وكذلك ما تلفظه البغاء، لقوله في تعريف الكلام أنه وسيلة تفاهم إنسانية، أي خاصة بالنوع البشري فقط.

كذلك أنين المرضى وبكاء الأطفال وما إلى ذلك ليس كلاماً ولا لغةً، لأنه لا يعتمد على الإرادة، وهي كما رأينا ركن من أركان هذا التعريف.

وأخيراً نلاحظ أنه قد اشترط فيه أن يكون باندفاع الهواء من الداخل إلى الخارج؛ لأن هناك أصواتاً تصدرها أعضاء النطق الطبيعية باندفاع الهواء في الاتجاه العكسي، أي من الخارج إلى الداخل. فمثلاً التقبيل هو صوت يحدث من اندفاع الهواء إلى الداخل عبر الشفتين، أي أنه يحدث بامتصاص الهواء، وهو صوت له دلالة، فقد يعبر عن الحب، وقد يعبر عن الاحترام، وقد يعبر عن الغرام، ولكنه ليس لغة، لفقدانه هذا الشرط. وكذلك شهيق الدهشة، وأنواع من أصوات الرفض، أو الاستهزاء ونحوها، التي تحدث بامتصاص الهواء نحو الداخل، وهي تعبيرات لها دلالاتها ما في ذلك شك، ولكنها لا تندرج تحت مفهوم الكلام اللغوي، ولا يمكن تثبيت شكل نطقها بالكتابة.

والآن وقد فرغنا من ذكر العناصر التي يتحدد بها الكلام في علم اللغة الحديث نتصور أن القارئ قد يسأل عن موقف علماء العرب الأقدمين من ذلك كله.

رأينا طرفاً من عنايتهم بفلسفة اللغة فيما نقلناه عن إخوان الصفاء. أما ابن جني فإنه قد ساق في كتاب «الخصائص» تعريفاً للغة، وتعريفاً للقول. وفصل في ذلك تفصيلاً مسهباً ثم لخصه في عبارات منها: «فقد ثبت بما شرحناه وأوضحناه أن الكلام إنما هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها، المستغنية عن غيرها، وهي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجمل على اختلاف تركيبها. وثبت أن القول عندها أوسع من الكلام تصرفاً، وأنه قد يقع على الجزء الواحد، وعلى الجملة، وعلى ما هو اعتقادي ورأي، لا لفظ وجرس.

«وقد علمت بذلك تعسف المتكلمين في هذا الموضع، وضيق القول فيه عليهم حتى لم يكادوا يفصلون بينهما، والعجب ذهابهم عن نص سيويه فيه، وفصله بين الكلام والقول:

«ولكل قوم سُنَّة وإمامها»^(١)

وفي تعريف اللغة يقول: «أما حَدُّها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»^(٢).

وفي خلال شرحه يقول: «ومما يؤنسك بأن الكلام إنما هو للجمل التوأم دون الأحاد أن العرب لما أرادت الواحد من ذلك خَصَّتْه باسم له لا يقع إلا على الواحد وهو قولهم (كَلِمَة)، وهي حجازية، و (كَلِمَة)، وهي تميمية. ويزيدك في بيان ذلك قول كثير:

لو يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعَزَّة رُكْعًا وسجودًا

ومعلوم أن الكلمة الواحدة لا تشجو، ولا تُحْزَن، ولا تتملك قلب السامع، إنما ذلك فيما طال من الكلام، وأمتع سامعيه، بعدوبة مُسْتَمِعِهِ، ورقة حواشيه^(٣). ونكاد نجد أنفسنا هنا أمام أحدث نظريات الغرب في الدلالة اللغوية حيث يقولون إن اللفظة المفردة لا يكاد يكون لها معنى، وإنما تكتسب الألفاظ معانيها وشخصياتها من خلال الكلام المركب، والمواقف التي يقال فيها هذا الكلام. بل يزيد ابن جني على ذلك عندما يناقش سيويه فيقول في كتاب الخصائص «وقد قال سيويه (هذا باب أقل ما يكون عليه الكلم) فذكر هنالك حرف

(١) أبو فتح عثمان بن جني، كتاب الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار - ط القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م الجزء الأول، ص ٣٢، وصدر هذا البيت: «من معشر سَنَّت لهم آباؤهم».

وهو من معلقة ليبد بن ربيعة العامري، انظر: ديوانه، ص ٣٢٠.

(٢) الخصائص ٣٣/١.

(٣) الخصائص ٢٧/١.

العطف، وفاءه، وهمزة الاستفهام، ولام الابتداء، وغير ذلك مما هو على حرف واحد، وسَمَّى كل واحد من ذلك كلمة. فليت شعري كيف يمكنه أن يجرّد للنطق حرفاً واحداً؟ ألا تراه أن لو كان ساكناً لزمه أن يدخل عليه من أوله همزة الوصل، ليجد سبيلاً إلى النطق به، نحو: إِب، إَص، إِق. وكذلك إن كان متحركاً فأراد الابتداء به والوقوف عليه قال في النطق بالباء من بَكْرَبَة، وفي الصاد من صِلَة: صَه، وفي القاف من قَدْرَة قَه، فقد علمت بذلك أن لا سبيل إلى النطق بالحرف الواحد مجرداً من غيره، ساكناً كان أو متحركاً. فالكلام إذن في بيت كثيرٍ إنما يعني به المفيد من هذه الألفاظ، القائم برأسه، المتجاوز لما لا يفيد، ولا يقوم برأسه من جنسه، ألا ترى إلى قول الآخر:

ولما قَضِينَا مِنْ مِئَى كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ
فقوله (بأطراف الأحاديث) يعلم منه أنه لا يكون إلا جملاً كثيرة، فضلاً

عن الجملة الواحدة، فإن قلت: فقد قال الشنفرى:

كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نِسِيَاءً تَقْصُهُ عَلَى أُمَّهَا وَإِنْ تَخَاطَبُكَ تَبَلَّتْ
أَي تَقْطَعُ كلامها، ولا تكثره، كما قال ذو الرمة:

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الْحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ رَخِيمُ الْحَوَاشِي، لا هَرَاءٌ وَلَا نَزْرُ

فقوله «رَخِيمُ الحواشي» أي مختصر الأطراف، وهذا ضد الهذر والإكثار، وذاهب في التخفيف والاختصار، قيل فقد قال أيضاً (ولا نَزْرُ)، وأيضاً فلسنا ندفع أن الحَفَرُ يقل معه الكلام ويحذف فيه أحناء المقال، إلا أنه على كل حال لا يكون ما يجري منه وإن قل ونَزَرَ أقل من الجمل، التي هي قواعد الحديث الذي يشوق موقعه، ويروق مُسْتَمَعُهُ، وقد أكثرَت الشعراء في هذا الموضع، حتى صار الدالُّ عليه كالدال على المشاهد غير المشكوك فيه، ألا ترى إلى قوله:

وحديثُهَا كَالغَيْثِ يَسْمَعُهُ رَاعِي سِنِينَ تَتَابَعَتْ جَدْبَا
فَأَصَاخُ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ حَيًّا وَيَقُولُ مِنْ فَرَحٍ: هَيَارَبَا

يعني حنين السحاب وسَجْرَه، وهذا لا يكون عن نبرة واحدة، ولا رَزْمَة مختلصة، إنما يكون البدء فيه والرجُّع، وتثنى الحنين على صفحات السمع، وقول ابن الرومي:

وحديثها السحرُّ الحلال لو أنه لم يَجُنْ قتل المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ
إنَّ طَالَ لم يُمِلَّ وإنَّ هي أوجزتْ ودَّ المحدثُ أنَّها لم تُوجِزِ
شَرُّكُ القلوبِ، وفتنة ما مثلها للمطمئنِّ، وعُقلة المُستوفِزِ
فذكر أنها تطيل تارةً، وتوجزُ أخرى، والإطالة والإيجاز جميعاً إنما هما في كل كلام مفيد مستقل بنفسه، ولو بلغ بها الإيجاز غايته لم يكن له بد من أن يعطيك تمامه وفائدته، مع أنه لا بد فيه من تركيب الجملة فإن نقصت عن ذلك لم يكن هناك استحسان ولا استعذاب. ألا ترى إلى قوله:

قُلْنَا لَهَا قِيفِي لَنَا قَالَتْ قَافٌ^(١)

وأن هذا القدر من النطق لا يعذب ولا يحفو، ولا يَرِقُّ ولا ينبو، وأنه إنما يكون استحسان القول واستقباحه فيما يحتمل ذينك، ويؤديهما إلى السمع، وهو أقل ما يكون جملة مركبة، وكذلك قول آخر - فيما حكاه سيويه - : «ألا تا» «فيقول مجيبه: «بلى فا»^(٢) فهذا ونحوه مما يقلل لفظه، فلا يحمل حسناً ولا قُبْحاً، ولا طيباً ولا خبيثاً، لكن قول الآخر (مالك بن أسماء):

(١) قال محقق الخصائص في هامش ج ١ ص ٣٠: إن قائل هذا هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط. وكان عاملاً لعثمان رضي الله عنه على الكوفة، فاتهم بشرب الخمر فأمر الخليفة بشخصه إلى المدينة، وخرج في ركب فنزل الوليد يسوق بهم، فقال:

قلت لها: قفي، فقالت: قاف لا تحسبينا قد نسينا الإيلاف
والنشوات من معتق صافٍ وعزف قينات علينا عزاف

وانظر شواهد الشافية ٢٧١ والأغاني ٥/١٣١، وترى في الشطر الشاهد بعض المخالفة وقوله قالت قاف أي إني واقفة أو وقفت فاستغنى بالحرف عن الجملة.

(٢) علق محقق كتاب الخصائص: الأستاذ محمد علي النجار فقال ج ٣ ص ٣٠: انظر «الكتاب» ص ٦٢ ج ٢ والنص فيه: «وسمعت من العرب من يقول ألا تا، بلى فا. =

أذكر من جارتى ومجلسها طرائفاً من حديثها الحسن
ومن حديث يزيدني مِقَّةً ما لحديث المَوْمُوقِ من ثَمَنٍ
أدلَّ شيء على أن هناك إطالة وتماماً ، وإن كان بغير حشو ولا خطل .
الآ ترى قوله : «طرائفاً من حديثها الحسن» فذا لا يكون مع الحرف الواحد ،
ولا الكلمة الواحدة ، بل لا يكون مع الجملة الواحدة دون أن يتردد الكلام ،
وتتكرر فيه الجمل ، فيبين ما ضُمَّنُهُ من العذوبة ، وما في أعطافه من النعمة
واللدونة . وقد قال بشار :

وحوراء المدامع من معدٍّ كأن حديثها ثمر الجنان
ومعلوم أن حديثاً من حرف واحد ، بل كلمة واحدة ، بل جملة واحدة ، لا يجني
ثمر جنة واحدة ، فضلاً عن جنان كثيرة . وأيضاً فكما أن
المرأة قد توصف بالحياء والخفر ، فكذلك أيضاً قد توصف بتغلزها ودمائها
حديثها . والآ ترى إلى قوله سبحانه : ﴿عُرْباً أتراباً لأصحاب اليمين﴾ وأن
العُروب في التفسير هي المتحبة إلى زوجها ، المظهرة له ذلك ، بذلك فسرهُ
أبو عبيدة . وهذا لا يكون مع الصمت ، وحذف أطراف القول ، بل إنما يكون
مع الفكاهة والمداعبة ، وعليه بيت الشماخ :

ولو أني أشاء كُنْتُ جسمي إلى بيضاء بهنكة شموع^(١)

قيل فيه (الشماعة) هي المزح والمداعبة . وهذا باب طويل جداً ، وإنما
أفضى بنا إليه ذرؤ من القول أحببنا استيفاءه تأنساً به ، وليكون هذا الكتاب ذاهباً
في جهات النظر ، إذ ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجر والجزم ، لأن هذا أمر

= فإنما أرادوا : ألا تفعل ، وبلى فأفعل ، ولكن قطع» وفي الكامل ١٢٧/٤ عن الأصمعي
«كان أخوان متجاوران لا يكلم كل واحد منهما صاحبه سائر سنته حتى يأتي وقت
الرعي ، فيقول أحدهما لصاحبه ألا تأ ، فيقول صاحبه الآخر بلى فا . يريد ألا تنهض ،
فيقول الآخر بلى فانهض ، وانظر نوادر أبي زيد ١٢٧ وشرح شواهد الشافعية ٢٦٦ .

(١) البهنية ، وربما قالوا البهلكة ، الغضة الظرفية من النساء ، والشموع اللعوب صاحبة
المزح والمداعبة .

قد فُرِغَ في أكثر الكتب المصنفة فيه منه . وإنما هذا الكتاب مبني على إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سَرَتْ أحكامها في الأحناء والحواشي^(١) .

وكأن المفكر اللغوي الإسلامي الكبير يقرر بهذه العبارة الأخيرة الفرق الذي أشرنا إليه في صدر هذا الكتاب بين علوم اللغة وعلم اللغة أو فقه اللغة . فعلوم اللغة هي العلوم الموازين، الحاوية للقواعد والقوانين، التي تبين الخطأ من الصواب . أما علم اللغة وفقه اللغة فهما من المباحث التفسيرية الفلسفية الوصفية، التي تبني في الأغلب على إثارة معادن المعاني، أي درس العلاقة القائمة بين الفكر والتعبير، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، أي درس التطور التاريخي للغة، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي، أي الاستقراء للظاهرة اللغوية خلال النصوص ومقارنة الظواهر بعضها ببعض، ولسنا نحمل ابن جني أكثر مما يحتمل، فكتابه ناطق بذلك، وهو فيه ملتزم لهذا النهج بقدر ما أتى له من وسائل وأدوات .

وهناك مفكر عربي آخر هو أديب العربية الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الذي تناول في كتاب «الحيوان» بفقرة من فقراته الفرق بين صياح الحيوانات ولغة الإنسان بما لم يزد عليه المحدثون في الغرب إلا القليل، يقول : «وزعم صاحب المنطق، أن كل طائر عريض اللسان، فالإفصاح بحروف الكلام منه أوجه، ولا بن آوى صياح يشبه صياح الصبيان، وكذلك الخنزير، وقد تهيأ للكلب مثل : عَفَّ عَفَّ، وَوَوَّ وَوَّ، وأشبه ذلك . وتهيأ للغراب القاف، وتهيأ للبيغاء من الحروف أكثر . فإذا صرت للسنانير وجدتها قد تهيأ لها من الحروف العدد الكثير، ومتى أحببت أن تعرف ذلك فتسمع تجاوب السنانير، وتوعد بعضها لبعض في جوف الليل، ثم احصر ما تسمعه، وتتبعه وتوقف عنده، فإنك ترى من عدد الحروف ما إن كان بها من الحاجات والعقول

(١) الخصائص، ج ١ ص ٣٢ .

والاستطاعات، ثم أَلَفَّتْهَا، صارت لغة صالحة الموضع، متوسطة الحال. واللغات إنما تشتد وتعسر على المتكلم بها على قدر جهله بأماكنها التي وضعت فيها، وعلى قدر كثرة العدد وقلته، وعلى قدر مخارجها وخفتها، وسَلَسِهَا وثقلها، وتعقدها في أنفسها. كفرق ما بين الزنجي والخوزي، أن الرجل يتنخس في بيع الزنج وابتياعهم شهراً واحداً، فيتكلم بعامة كلامهم، ويباع الخوز ويجاورهم زماناً فلا يتعلق منهم بطائل. والجملة أن من أعون الأسباب على تعلم اللفظ فرط الحاجة إلى ذلك»^(١).

وهذا النص يبين لنا حقائق من علم اللغة جديرة بالإثبات؛ لأن الباحثين الأوروبيين ما يزالون يقلبون احتمالاتها على جميع الوجوه الممكنة بعد الجاحظ بأكثر من ألف عام: فهو يبين أن ما نسميه الكلام عند الإنسان لا يتوقف على مجرد القدرة على استعمال الصوت الطبيعي في الصياح، أو تقطيعه إلى حروف ذات مخارج متميزة؛ فذكر حيوانات شتى، أصواتها تشبه صوت الإنسان على نحو يقل ويكثر، حتى وصل في النهاية إلى البيغاء ثم السنانير، وفي حديثه عن هذه الأخيرة لا يتردد في إعطاء توجيه أساسه التجربة المباشرة والاستقراء والإحصاء عندما يقول: «فتسمع... ثم احص ما تسمعه وتبعه، وتوقف عنده»، وبعد أن يبين أن صياح السنانير هذا يتضمن عدداً لا بأس به من الحروف، لا يتردد في أن ينفي أن يكون هذا الصياح لغة، لأنه يشترط أن يكون وراء النطق الصوتي ما يسميه بالحاجات وهي البواعث الاجتماعية والنفسانية والفكرية للتعبير، وكذلك ما يسميه بالعقول وهي القدرات المفكرة المدبرة التي تستطيع الملاحظة والقياس والاستنباط، وتعمل بدأب على كشف مجاهل الكون، وأخيراً ما يسميه بالاستطاعات وهي الإرادة، التي تجعل المتكلم لا ينطق بباعث الغريزة أو الحالة الشعورية القوية المؤقتة فحسب، ولكن كلما رأى

(١) كتاب الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، طبع مكتبة محمد حسنين النوري بدمشق - سوريا، ومكتبة الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، بإشراف المحامي فوزي عطوي، المجلد الثاني - الجزء الخامس ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

هو ذلك مناسباً له مرغوباً منه فيه . وهو بهذا يكاد يعطينا للغة نفس الحدود والرسوم التي أعطانا إياها الأمريكي ساير في وقتنا المعاصر ، فالجاحظ يرى أن اللغة ليست مخارج الحروف فقط ، وإنما هي القوة الإنسانية الإرادية المفكرة المعبرة في مجتمع ، وهو تقريباً ما يستخلص من تعريف ساير الذي سبق أن حللناه . ويتنقل بعد هذا ، في نفس النص ، إلى ملاحظات دقيقة في المقارنة بين الفصائل المختلفة من اللغات ، فيرى أن لغات البشر تتفاوت صعوبة وسهولة ، لا في ذاتها فقط ، وإنما بالنسبة للغريب الذي يريد أن يتعلمها على الخصوص ، فيقول : إن الألفاظ تصعب عليه كلما ازداد جهله بمعناها الدقيق واستعمالها ، وكذلك يزيد من صعوبة اللغة الأجنبية كثرة عدد ألفاظها ، وهي أخيراً تتفاوت في الصعوبة بحسب إمكان نطق حروفها بسهولة نطقاً صحيحاً . وضرب مثلاً لذلك بالفرق بين سرعة تعلم تجار الرقيق والنخاسين لغة الزنوج لسهولة متناولها ، بينما يقضون الوقت الطويل مع الخوز فلا يستطيعون تعلم لغتهم ، وينتهي أخيراً بإقرار مبدأ عام ما يزال هو المبدأ السائد في تعليل الظاهرة اللغوية حتى الآن ، وهو أنها ظاهرة اجتماعية ، فبحسب حاجة الإنسان إلى اللغة يكون اكتسابه لهذه اللغة ، وهو لا يحتاج إليها إلا إذا كان محتاجاً إلى الاتصال بالمجتمع الذي يتحدث بها ، وهذا ما ينص عليه بقوله : «والجملة أن من أعون الأسباب على تعلم اللفظ فرط الحاجة إلى ذلك» .

هناك دون شك كثير من قراء هذه الصفحات قد تبادر إليهم السؤال
الأبدي التقليدي :

كيف نطق الإنسان الأول؟ بل لعل بعضهم قد لاحظ إلحاح المؤلف على أن اللغة ظاهرة إنسانية صنعها المجتمع ، فأوقعه ذلك في حيرة من أمره ، إذ إن كثيراً من المؤلفين ، القدامى على الخصوص ، قد نصوا على أن اللغة إلهام من الله تعالى اختص به الإنسان . فما هو إذن وجه الحق في هذه المشكلة : هل اللغة توقيفية وهبها الخالق للإنسان ، أو اصطلاحية صنعها الإنسان لنفسه؟

اتخذت هذه المشكلة أبعاداً فلسفية ودينية ضخمة نظراً لاستناد كثير من

المفكرين القدماء إلى آيات من الكتب المقدسة يفهم منها أن اللغة من عند الله؛ ففي توراة موسى؛ «وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلَٰه من الأرض جميع حيوانات البرية وجميع طير السماء وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها، فكل ما سماه به آدم من نفس حيّة فهو اسمه»^(١)، وإن كنا نلاحظ من حرفية الآية السابقة أن الرب الإله لم يفرض على آدم أسماء معينة، بل تركه يسمي كل أصناف المخلوقات بأسماء تميزها من وضعه هو. وعلى كل حال فإن التوراة تقرر في الإصحاح الحادي عشر من نفس السفر، الآية الأولى، ما نصه: «وكانت الأرض كلها لغة واحدة»، ثم يحاول نفس هذا الإصحاح، ابتداء من الآية الثانية، أن يفسر لنا تعدد لغات البشر بعد ذلك، فيقصّ القصة الآتية: «وكان أنهم لما رحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا هناك. وقال بعضهم لبعض: تعالوا نصنع لبناً ونضججه طبخاً فكان لهم اللبن بدل الحجارة، والحمر كان لهم بدل الطين. وقالوا: تعالوا نبني لنا مدينة وبرجاً رأسه إلى السماء، ونقيم لنا اسماً كي لا نتبدّد على وجه الأرض كلها، فتزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب: إنهم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة، وهذا ما أخذوا يفعلونه؛ والآن لا يكفون عما همّوا به حتى يصنعوه. هلم نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها وكفّوا عن بناء المدينة. ولذلك سميت بابل لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها، ومن هنا شتتهم الرب على كل وجهها».

وقد اتفق كل الباحثين المحدثين، في أوروبا المسيحية، وفي الأوساط اليهودية المستنيرة، على اعتبار هذه القصة أسطورة شعبية لا تحكي واقعاً تاريخياً بقدر ما تلمس تعليلاً فنياً لاختلاف الألسنة واللغات. فالسير جيمس جورج فريزر يفرد لها فصلاً كاملاً في كتابه الكبير «الفلكلور في العهد القديم»^(٢)،

(١) تكوين ١٩/٢.

(٢) Sir James George Frazer, Folk-lore, in the Old Testament, Macmillan and Co., Limited — London, 1919 — vol. I, Part I, Chapter 5, p.p. 362-384.

فيتتبع بالنقد والتحليل تطور هذه الأسطورة منذ الوثنيات القديمة، ويقول: إن العلاقة اللغوية بين أمم بابل وبين بلبله الألسن ليست إلّا من الخيال الشعبي، إذ إن الثابت علمياً أن كلمة بابل أصلها في اللغة البابلية نفسها «باب - إلو» أو «باب - إل»، ومعناها باب الله، أو باب الآلهة؛ لأن بابل كانت مدينة مقدسة، وكان سكان العراق القديم يحجون إلى معبدها الكبير؛ ولأن المعبد البابلي كان يتميز دائماً ببرج ضخم مرتفع مبني في صحنه يسمى «زقورة» أو «زجورة»، ظن القدامى من الآراميين واليهود أن هذا البرج شيّده الكفار تحدياً لله أو - كما ينقل عنهم فريزر - أنهم اعتقدوا أن بإمكانهم، من هذا البرج، أن يصوبوا السهام والحراش التي تنطلق نحو السماء فتدمر مملكة الله العليا. وقد حكوا في ذلك خرافات نقلها فريزر عن لويس جنزبرج في كتابه «أساطير اليهود»: منها أنهم زعموا أن بعض هذه السهام كان إذا أطلق نحو السماء عاد إلى الأرض مخضباً بالدم. ومنها أن هؤلاء الكفار من سكان بابل كانوا يريدون أن يصل ارتفاع البرج إلى السماء ليضعوا أصنامهم مكان الله. ومنها أن برج بابل عندما تهدم غاص ثلثه في باطن الأرض، واحترق ثلث آخر بالنار، وبقي الثلث الأخير خراباً، ومع ذلك فإن مكانه - كما زعموا - ما يزال محتفظاً بسر المعجزة، فكل من يمر عليه يفقد ذاكرته تماماً وينسى كل شيء يعرفه. ومما لا شك فيه أن كل هذه الأساطير كان يبررها شيء واحد، هو غرابة هذه الصروح المعمارية البابلية الدينية في نظر أولئك البدو من الآراميين والعبريين، فربطوا ذلك بمحاولة تفسير تنوع اللغات الذي كان يبدو لهم غير متفق مع كون الجنس البشري كله يرجع إلى أب واحد وأم واحدة هما آدم وحواء. فإذا ما انتقلنا إلى العالم الإسلامي وجدنا المسألة تأخذ أبعاداً فكرية أكثر اتساعاً.

وقف علماء المسلمين أمام قوله تعالى في سورة البقرة (آية ٣١/٣٢): ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إني

أَعْلَمَ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمَ مَا تَبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكَتُمُونَ ﴿١﴾. وَنَجِدُ الطَّبْرِيَّ فِي تَارِيخِهِ وَتَفْسِيرِهِ يَذْكُرُ شَتَّى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ فَيَقُولُ مِثْلًا: (حَدَّثَنَا أَبُو كَرِيبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا بَشْرُ بْنُ عَمَارَةَ عَنْ أَبِي رَوْقٍ، عَنْ الضَّحَّاكِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: عَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا وَهِيَ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي يَتَعَارَفُ بِهَا النَّاسُ: إِنْسَانٌ، وَدَابَّةٌ، وَأَرْضٌ، وَسَهْلٌ، وَبَحْرٌ، وَجَبَلٌ، وَحِمَارٌ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ وَغَيْرِهَا).

وَيَمْضِي الطَّبْرِيُّ مُحَدِّثًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرُقٍ أُخْرَى تُوَكِّدُ التَّفْسِيرَ الْأَوَّلَ وَتُضَيِّفُ إِلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَهُ مَا يَسْتَحِبُّ ذِكْرَهُ وَمَا لَا يَسْتَحِبُّ مِنَ الْأَلْفَاظِ. كَمَا يَرُوي عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الَّتِي عَلَّمَهَا اللَّهُ آدَمَ هِيَ «مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّهُ»، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لَهُ: «عَلَّمَهُ اسْمَ كُلِّ شَيْءٍ» وَكَذَلِكَ يُحَدِّثُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، وَيُرُوي عَنْ قَتَادَةَ فِي نَفْسِ الْآيَةِ أَنَّهُ عَلَّمَهُ اسْمَ كُلِّ شَيْءٍ: «هَذَا جَبَلٌ، وَهَذَا بَحْرٌ، وَهَذَا كَذَا، وَهَذَا كَذَا، لِكُلِّ شَيْءٍ»، ثُمَّ نَجِدُ الطَّبْرِيَّ يَسْتَمِرُّ فِي رِوَايَةِ وَجْهَةِ النَّظَرِ هَذِهِ لِيُخَلِّصَ مِنْهَا إِلَى مَا يُخَالِفُهَا اسْتِيفَاءً لَأَرَاءِ أَوَائِلِ الْمُفَكِّرِينَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الصَّدَدِ، فَيَقُولُ: (حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ الْحَسَنِ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، قَالَ: حَدَّثَنَا حُجَّاجٌ عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ وَمُبَارَكٍ، عَنْ الْحَسَنِ وَأَبِي بَكْرٍ، عَنْ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ، قَالَا: عَلَّمَهُ اسْمَ كُلِّ شَيْءٍ: هَذِهِ الْخَيْلُ، وَهَذِهِ الْبِغَالُ، وَالْإِبِلُ، وَالْجَنُ، وَالْوَحْشُ، وَجَعَلَ يُسَمِّي كُلَّ شَيْءٍ بِاسْمِهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا عَلَّمَ اسْمًا خَاصًّا مِنَ الْأَسْمَاءِ؛ قَالُوا: وَالَّذِي عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ الْمَلَائِكَةِ — (ذَكَرَ مِنْ قَالَ ذَلِكَ) —: حَدَّثَنِي عَبْدُهُ الْمُرُوزِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عِمَارُ بْنُ الْحَسَنِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، قَالَ: أَسْمَاءَ الْمَلَائِكَةِ. وَقَالَ آخَرُونَ مِثْلَ قَوْلِ هَؤُلَاءِ فِي أَنَّ الَّذِي عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ خَاصًّا مِنَ الْأَشْيَاءِ^(١)، غَيْرَ أَنَّهُمْ قَالُوا: الَّذِي عَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ

(١) لَعَلَّ كَلِمَةَ الْأَشْيَاءِ هُنَا تَحْرِيفٌ لِكَلِمَةِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مُنَاسِبَةٍ لِلسِّيَاقِ. أَوْ لَعَلَّ الْعِبَارَةَ «فِي أَنَّ الَّذِي عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ خَاصَّةً مِنَ الْأَشْيَاءِ».

أسماء ذريته. — (ذكر من قال ذلك) — : حدثني يونس قال : حدثنا ابن وهب، قال : قال ابن زيد في قوله عز وجل وعلم الأسماء كلها، قال أسماء ذريته^(١).

ويسوق الحافظ ابن كثير في تفسيره للقرآن الكريم ما ذكره الطبري، وصدر شرحه في هذا الموضوع بقوله : (هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وأكد ذلك عندما ختم بقوله أيضاً : وروى عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك، فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة : ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾^(٢).

ويرى الزمخشري — وهو معتزلي — في تفسيره «الكشاف»^(٣)، أن المراد بالأسماء الأجناس التي خلقها الله : (وعلمه أن هذا اسمه فرس وهذا اسمه بغير وهذا اسمه كذا، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية).

(١) تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري — طبع الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٦هـ، ج ١، ص ٤٩ — ٥٠، وانظر تفسيره أيضاً في موضع الآية.

(٢) تفسير القرآن العظيم، للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ — طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة، ج ١ ص ٧٢ — ٧٥.

(٣) الكشاف عن غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، وهو تفسير القرآن الكريم، للإمام محمود بن عمر الزمخشري، المتوفى سنة ٥٢٨هـ — ومعه كتاب الانتصاف للإمام ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري المالكي، قاضي الإسكندرية، المتوفى سنة ٦٨٣هـ، وقد بين فيه ما تضمنه الكشاف من الاعتزال، وناقشه في أعاريه وأحسن الجدل مع حسن الإيجاز. طبع المكتبة التجارية بالقاهرة — سنة ١٣٥٤هـ — ج ١، ص ٦١ — ٦٣.

وقد لاحظ أحمد بن المنير الإسكندري القاضي المالكي المتوفى سنة ٦٨٣ هجرية، في كتابه الذي خصصه لردّ أهل السنّة على آراء المعتزلة الواردة في تفسير «الكشاف»، أن المفسر يقول: المراد بالأسماء كلها أسماء المسميات، وعلّق على ذلك قائلاً: (وهو يفرّ من اعتقاد أن الاسم هو المسمى، لأن ذلك معتقد أهل السنّة، فيعمل الحيلة في إبعاده عن مقتضى الآية بقوله أنبئهم بأسمائهم، ويتغافل عن قوله ثم عرضهم على الملائكة، فإن الضمير فيه عائد إلى المسميات اتفاقاً، ولم يجرِ إلّا ذكر الأسماء، فدلّ على أنها المسميات، ويعرض أيضاً عن حكمة التعليم وأن تعليقه بنفس الألفاظ لا كبير غرض فيه، بل الغرض المهم تعليمه لذوات المسميات، وإطلاعه على حقائقها، وما أودع الله تعالى فيها من خواص وأسرار، وعلى تسميتها أيضاً، فإن طريق التعليم يميز كل حقيقة باسمها).

ويبدو لنا أن العالمين متفقان على أمر مستغرب من المعتزلة بالذات، وهو أن تكون أسماء المسميات بتوقيف من الله تعالى، فالمعروف عن المعتزلة في ميادين علم اللغة وفقه اللغة أنهم يقولون بأن اللغة من وضع البشر وليست وحياً إلهياً، وهذا ما سنستمر في تقصّيه الآن.

يقول ابن جني: (هذا موضع محجوج إلى فضل تأمل؛ غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف. إلّا أن أبا علي رحمه الله - يعني أبا علي الفارسي أستاذه - قال لي يوماً: هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، وهذا لا يتناول موضع الخلاف، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها؛ وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة. فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به. وقد كان أبو علي رحمه الله أيضاً قال به - يعني بالتواضع والاصطلاح - في بعض كلامه. وهذا أيضاً رأي أبي الحسن - أي الأخفش - ؛ على أنه لم يمنع قول من قال: إنها تواضع منه

— أي من آدم — . على أنه قد فسرّ هذا بأن قيل : إن الله سبحانه علّم آدم أسماء جميع المخلوقات، بجميع اللغات : العربية، والفارسية، والسريانية، والعبرانية، والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات؛ فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا وعَلِقَ كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه، واضمحل عنه ما سواها، لبعد عهدهم بها. وإذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده، والانطواء على القول به^(١).

وواضح من كلام ابن جني أن أسطورة برج بابل لم يكن لها وجود يذكر في الكلام عن أصل تنوع اللغات، فهو ينص صراحة على أن آدم وبنيه كانوا في البداية يتكلمون بجميع اللغات، ويعرفونها واحدة واحدة، وأنهم عندما تباعد بعضهم عن بعض أدركهم النسيان لهذه المجموعة الكبيرة من اللغات التي كانوا يعرفونها فثبت كل قوم منهم على لغة واحدة، وهو عكس ما جاء في أسطورة برج بابل تماماً. ومع ذلك فبعض المؤرخين المسيحيين الأوّل في العالم العربي قد اعتمدوا الأسطورة وذكروها، ففي «تاريخ مختصر الدول» للعلامة غريغوريوس الملطّي، المعروف بابن العبري، نقرأ ما يلي في الكلام عن عابر بن شالح بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح : (ومن أئمتنا باسيليوس وأفريم يزعمان أن من آدم إلى هذا — عابر — كانت لغة الناس واحدة، وهي السريانية، وبها كلّم الله آدم، وتنقسم إلى ثلاث لغات أفصحها الآرامية، وهي لغة أهل الرّها وحرّان والشام الخارجة، وبعدها الفلسطينية وهي لغة أهل دمشق وجبل لبنان وباقي الشام الداخلة، وأسمجها الكلدانية النبطية، وهي لغة أهل جبال آثور وسواد العراق).

ويعقوب الرهاوي يقول: إن اللغة لم تزل عبرية إلى أن تبلبلت الألسن بيبابل. (فالغ بن عابر)...

(١) الخصائص، لابن جني، ج ١، ص ٤٠ — ٤١.

(أرعو بن فالخ) . . . وفي سبعين سنة لأرعو قال الناس بعضهم لبعض : هلموا نضرب لبناً، ونحرق آجرأ، ونبني صرحأ شامخأ في علو السماء ويكون لنا ذكراً كي لا تنبدد على وجه الأرض . فلما جدوا في ذلك بأرض شنعار، وهي السامرة (وغرود بن كوش قات راصفي الصرح بصيده، وهو أول ملك قام بأرض بابل . وهو الذي رأى شبه إكليل في السماء، واتخذ مثله ووضعه على رأسه، فقيل : إن إكليله نزل من السماء)، قال الله تعالى : هذا ابتداء عملهم ولا يعجزون عن شيء يهتمون به، سوف أفرق لغاتهم لكلا يعرف أحدهم ما يقول الآخر . فبدد الله شملهم على وجه الأرض، وأرسل رياحأ عاصفة فهدمت الصرح ومات فيه غرود الجبار، وتبلبت لغات الآدميين، ولذلك دعي اسم ذلك الموضع بابل^(١).

أما ابن جني فإنه يستمر في ملاحظاته على مفهوم المفسرين من قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فيقول : «فإن قيل : فاللغة فيها أسماء وأفعال

(١) ابن العربي، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الملقب (١٢٢٦م - ١٢٨٦م) : تاريخ مختصر الدول، بتحقيق الأب اليسوعي أنطون صالحاني - الطبعة الثانية، بالمطبعة الكاثوليكية، بيروت - لبنان، سنة ١٩٥٨م، ص ١١، ١٢.

أما المؤرخون المسلمون فقد أورد بعضهم القصة نفسها على نحو آخر، فالمسعودي مثلاً يقول في تعدد الألسن واختلاطها : «وقد كان في ملك النمرود بن كوش بن حام بن نوح، هيجان الريح التي نسفت صرح النمرود ببابل من أرض العراق . فبات الناس ولسانهم سرياني وأصبحوا وقد تفرقت لغاتهم على اثنين وسبعين لساناً، فسمي الموضع من ذلك الوقت بابل، فصار من ذلك في ولد سام بن نوح تسعة عشر لساناً وفي ولد حام بن نوح ستة عشر لساناً، وفي ولد يافث بن نوح سبعة وثلاثون لساناً، على حسب ما ذكرنا في صدر هذا الكتاب، وكان من تكلم بالعربية يعرب وجُرهم، وعاد وعييل وجديس وثمود، وعملاق وطسم، ووبار وعبد ضخم».

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، المتوفى سنة ٣٤٦هـ، في كتابه : مروج =

وحروف، وليس يجوز أن يكون المعلم من ذلك الأسماء دون غيرها مما ليس بأسماء؛ فكيف خصّ الأسماء وحدها؟ قيل: اعتمد ذلك من حيث كانت الأسماء أقوى القُبل الثلاثة، ولا بدّ لكل كلام مفيد من الاسم؛ وقد تستغني الجملة المستقلة عن كل واحد من الحرف والفعل، فلمّا كانت الأسماء من القوة والأولية في النفس والرتبة على ما لا خفاء به جاز أن يُكتفى بها مما هو تال لها، ومحمول في الحاجة عليها. . .

ثم لنعد فلنقل في الاعتلال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحيّاً. وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة، قالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً، إذا ذكر عرف به ما مسماه، ليمتاز من غيره، وليُغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره، لبلوغ الغرض في إبانة حاله، بل قد يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره ولا إدناؤه، كالفاني، وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد، كيف يكون ذلك لو جاز، وغير هذا مما هو جارٍ في الاستحالة والبعد مجراه، فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدم، فأومأوا إليه، وقالوا: إنسان، إنسان، إنسان، فأي وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك، فقالوا يد،

الذهب، ومعادن الجواهر، طبع دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، بإشراف يوسف أسعد داغر سنة ١٩٦٥ - الجزء الثاني ص ١٠٩، ١١٠.

والثابت أن «بابل» ليست مشتقة من «بلبله الألسن» ولكن كان اسمها «باب، إل» أي «باب الله»، كما أن بلدة «أربيل» أو «أربيل» في شمال العراق، كان أصل اسمها «أربع، إل» أي الآلهة الأربعة، وأما كون اللغة الأولى للبشر، سريانية، أو عبرية، أو عبرية، أو فارسية، أو مصرية فرعونية، أو يونانية فريجية، فقد نبع ذلك من نعة لغوية أو عنصرية أو حضارية، وكان هو الصدى الفلكلوري لهذه النعة.

عين، رأس، قدم، أو نحو ذلك، فمتى سُمِعت اللفظة من هذا عرف مَعْنِيَّها وهلم جراً فيما سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف.

ثم لك بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها، فتقول: الذي اسمه إنسان فليجعل مكانه «مَرْد» (بالفارسية)، والذي اسمه رأس فليجعل مكانه «سَر» وعلى هذا بقية الكلام. وكذلك لو بدأت اللغة الفارسية، فوقعت المواضعة عليها لجاز أن تنقل ويولد منها لغات كثيرة: من الرومية، والزنجية، وغيرها. على هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصُّنَّاع لآلات صنائعهم من الأسماء: كالنجار والصائغ، والحائك، والبناء وكذلك الملاح. قالوا: ولكن لا بد لأولها من أن يكون متواضعاً بالمشاهدة والإيماء. قالوا: والقديم سبحانه لا يجوز أن يوصف بأن يواضع أحداً من عباده على شيء؛ إذ قد ثبت أن المواضعة لا بد معها من إيماء وإشارة بالجراحة نحو الموماً إليه، والمشار نحوه، والقديم سبحانه لا جراحة له، فيصح الإيماء والإشارة بها منه، فبطل عندهم أن تصحَّ المواضعة على اللغة منه تقدست أسماؤه؛ قالوا: ولكن يجوز أن ينقل الله اللغة التي قد وقع التواضع بين عباده عليها، بأن يقول: الذي كنتم تعبرون عنه بكذا عبروا عنه بكذا، والذي كنتم تسمونه كذا ينبغي أن تسموه كذا؛ وجواز هذا منه سبحانه كجوازه من عباده ومن هذا الذي في الأصوات ما يتعاطاه الناس الآن من مخالفة الأشكال في حروف المعجم كالصورة التي توضع للمعميات والتراجم. وعلى ذلك أيضاً اختلفت أقلام ذوي اللغات، كما اختلفت أنفس الأصوات المرتبة على مذاهبهم في المواضعات، وهذا قول من الظهور على ما تراه إلّا أنني سألت يوماً بعض أهله فقلت: تنكر أن تصح المواضعة من الله تعالى؟ وإن لم يكن ذا جراحة، بأن يُحدث في جسم من الأجسام، خشبةً أو غيرها، إقبالاً على شخص من الأشخاص، وتحريكاً لها نحوه، ويُسمع في نفس تحريك الخشبة نحو ذلك الصوت صوتاً يضعه اسماً له، ويعيد حركة تلك الخشبة نحو ذلك الشخص دَفَعَات، مع أنه عز اسمه قادر على أن يُقنع في تعريفه ذلك بالمرّة الواحدة، فتقوم الخشبة في هذا الإيماء، وهذه الإشارة، مقام جراحة ابن آدم في الإشارة بها

في موضعه؛ وكما أن الإنسان أيضاً قد يجوز إذا أراد المواضعة أن يشير بخشبة نحو المراد المتواضع عليه، فيقيمها في ذلك مقام يده لو أراد الإيماء بها نحوه؟ فلم يجب عن هذا بأكثر من الاعتراف بوجوبه، ولم يخرج من جهته شيء أصلاً فأحكيه عنه؛ وهو عندي وعلى ما تراه الآن لازم لمن قال بامتناع مواضعة القديم تعالى لغة مرتجلة غير ناقلة لسان إلى لسان، فاعرف ذلك.

وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات، كدويّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبّل.

واعلم فيما بعد، أي على تقادم الوقت، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع، فأجد الدواعي والخواالج قوية التجاذب لي، مختلفة جهات التغوّل على فكري. وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاق والرقّة، ما يملك عليّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر. فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله، ومنه ما حدوته على أمثلتهم، فعرفت بتتابعه وانقياده، وبُعد مراميه وآماده، صحة ما وفّقوا لتقديمه منه، ولُطف ما أسعدوا به، وفُرّق لهم عنه. وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار الماثورة بأنها من عند الله جل وعز، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه، وأنها وحي.

ثم أقول في ضد هذا: كما وقع لأصحابنا ولنا، وتنبهوا وتنبهنا، على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا - وإن بعد مداه عنا - من كان ألطف منا أذهاناً، وأسرع خواطر وأجراً جناً. فأقف بين تين الخلتين حسيراً، وأكاثرهما فأنكفيء مكثوراً. وإن خطر خاطر فيما بعد، يعلّق الكفّ بإحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها، قلنا به، وبالله التوفيق»^(١).

(١) الخصائص لابن جني ٤١/١ - ٤٧. والقديم في كلامه صفة الله سبحانه لأنه لا أول له.

وكلام ابن جني يحتاج منا إلى وقفة نستجلي فيها معانيه، ونتبين أهدافه ومرامييه.

بدأ بتلخيص وجهتي النظر المتعارضتين، التي تقول إحداهما: إن اللغة وحي وتوقيف، وقد نبهنا أنه أضاف إليها شيئاً جديداً وهو أن إيجاء اللغة إلى آدم كان إيجاءً بجميع الألسنة واللغات معاً. وعزونا ذلك إلى عدم تعويل المسلمين على أسطورة برج بابل الذي تهدم على ساكنيه فهربوا مذعورين وتبلبلت ألسنتهم، أو في زعم آخر أن الله بلبل ألسنتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضاً، فلا يعودوا إلى الاتفاق على تحدي الإله.

أما وجهة النظر الثانية التي تقول بالاصطلاح، وأن اللغة نتيجة لاتفاق بين أفراد المجتمع على وسيلة التفاهم، فقد تشعبت عنده إلى أكثر من احتمال، فمن الممكن أن يكون التواضع قد تم بطريقة اتفاقية تحكّمية، لا تستند عند المتكلمين إلى شيء غير تخصيص رمز صوتي مسموع للمعنى المراد، دون أن تكون هناك علاقة طبيعية أو ارتباط عضوي بين اللفظ والمعنى، أي بين الاسم ومسماه، وذكر في ذلك شيئاً عن اختلاف الألفاظ للمعنى الواحد في لغات متعددة كالعربية والفارسية والرومية والزنجية. كما أنه لم يغفل التنويه بالمظهر المتطور للغة، وارتباطه بتطور المجتمع، وأن هذا المجتمع يصنع بمحض إرادته ألفاظاً جديدة للمعاني الجديدة وهو ما نص عليه بقوله: «وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناعات لآلات صنائعهم من الأسماء». بل يذهب إلى أبعد من هذا، وهو أن الاصطلاح المقصود به الإلغاز والتعمية وإخفاء المعاني على غير العارفين بمفاتيح هذه المعميات جائز في كل آن بين البشر. ثم يزيد على ذلك فيقول: إن ذوق الناس في صنع لغاتها دون تدخل من وحي أو إلهام لا يشبهه إلا الاختلاف في طريقتهم في الكتابة فكل أمة لها خط يميزها، يقول: «وعلى ذلك أيضاً اختلفت أقلام ذوي اللغات كما اختلفت أنفس الأصوات المرتبة على مذاهبهم في المواضع...».

ينتقل ابن جني بعد ذلك إلى احتمال آخر في إمكان وضع البشر للغة؛ وهو أن يكونوا قد اشتقوها من أصوات الطبيعة وأصوات الحيوان، وهي نظرية قال بها كثير من المحدثين الأوروبيين أيضاً وسبقت الإشارة إليها.

ولكن ابن جني يقف أمام سحر اللغة العربية مبهوراً، يتأمل دقتها وإرهاقها ورقتها، وإذا به بعد أن كان قد اطمأن إلى القول بأن اللغة اصطلاح من البشر يرجع متردداً، ففي وجدانه أنه لا يمكن أن تكون هذه اللغة العربية المعجزة وليد اصطلاح عشوائي من جماعة من الناس، ومحال أن تكون مأخوذة من أصوات الريح والرعد والماء والحمار والغراب والفرس والطبي، وإذا به يميل من جديد في نهاية جولته إلى أنها وحي من الله تعالى، وكأنه هذه المرة يخصص ما عظمه في البداية، إذ قال أولاً: إن الله أوحى إلى آدم بجميع اللغات في آن واحد، وهو هنا يشعرنا بأنه إن كان الله قد أوحى بلغة إلى آدم أبي البشر، فهي اللغة العربية وحدها الجديرة بأن تنزل من السماء دون غيرها من اللغات. وفجأة ترى العالم النزيه الذي لا يريد أن ينساق مع حبه للغة العربية، وافتتانه بجمالها، يعود فيتردد في أنها موحى بها، وأنه من الممكن أن يكون الأسلاف الأول الذين وضعوها أكمل منا وأقوى من حيث صفاء السليقة اللغوية، وأن صفاء لغتهم نابع من صفاء طبائعهم؛ يقول: «لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا - وإن بعد مداه عنا - من كان ألطف منا أذهاناً، وأسرع خواطر، وأجراً جناناً». ويختار في النهاية التوقف بين وجهتي النظر لا يختار منهما، ولا يرجح إحداها، بل يقول: فأقف بين تين الخلتين حسيراً، وأكاثرها فأنكفيء مكثوراً. وإن خطر خاطر فيما بعد... إلخ.

ومهما يكن من شيء، فإن هذا التردد من ابن جني ليس إلا تشريفاً لعلامة العربية القديم؛ ذلك أن واحداً من جهاذة الباحثين المعاصرين^(١)، وهو الأستاذ

G. Révész, Professeur à l'université d'Amsterdam, origine et Préhistoire du langage, (١)
traduction de L. homburger. Payot — Paris 1950.

ج ريفيز، أستاذ علم اللغة في جامعة أمستردام، قد خصص لهذا الموضوع كتاباً كاملاً سماه (ما قبل تاريخ الكلام) عرض فيه جميع الاحتمالات ووجهات النظر التي قيلت وما تزال تقال حول نشأة اللغة، وألم فيه بمذاهب العلماء القدامى والمحدثين، ولكنه لم يستطع في النهاية إلا أن يقرر أن اللغة ظاهرة اجتماعية إنسانية في وضعها الذي نعرفه، أما أصلها الأول فهو يتوقف فيه ويتردد كما توقف ابن جني من قبل. ومع ذلك فإنه يصدر كتابه بقولة منقولة عن المفكر الفرنسي إرنست رينان، يتبين منها أنه أشد ميلاً إلى الأخذ بنظرية الاصطلاح الاجتماعي وتفضيلها على القول بالوحي والإلهام من الله؛ تقول هذه السطور: «لو أن الكلام كان قد منح للإنسان كهبة سماوية، خلقت بدون مستقلة عنه، لما كان من حق العلم ولا في إمكانه أن يبحث عن أصلها. أمّا إن كان الكلام من ابتكار الطبيعة الإنسانية، وإن كان يمثل خطوة وتطوراً منتظماً فإنه من الممكن أن نصل باستنتاجات مشروعة إلى مهد هذا الكلام. إرنست رينان؛ حول أصل الكلام، سنة ١٨٥٩م». والمسألة كما نرى كانت على عهد ابن جني وكانت في أوروبا في القرن التاسع عشر في أيام إرنست رينان، وفي وقتنا الحالي عند اللغويين المعاصرين موضع احتمالات وافتراضات واستنتاجات واجتهادات لا ترتفع إلى درجة اليقين ولا تسلم من الشكوك والطعون والاعتراضات.

وإذا كان ابن جني قد بقي في شكه وتردده، فإن عالماً آخر من علماء العربية في القرن الرابع الهجري، هو أبو الحسين أحمد بن فارس، لا يتردد وإنما يقول بنظرية التوقيف والإلهام من الله تعالى فيبدأ ذلك نصاً: «أقول: إن لغة العرب توقيف»^(١) ونلاحظ أنه قصر الجدارة بالوحي من الله تعالى على لغة العرب وحدها عندما قال (لغة العرب) ثم ينبري لدحض اعتراضات المخالفين،

(١) الصاحبى، في فقه اللغة، وسنن العرب في كلامها، لأبي الحسين أحمد بن فارس، حققه وقدم له الدكتور مصطفى الشويبي - طبع مؤسسة بدران - بيروت سنة ١٩٦٣م، ص ٣١ وما بعدها.

فيبدأ ذلك بالرد على سؤال عن المترادف في اللغة، أي الألفاظ المتعددة التي تدل على مدلول واحد، أي كلها من عند الله فيقول: «فإن قال: أفنقولون في قولنا سيف وحسام وعضب إلى غير ذلك من أوصافه إنه توقيف، حتى لا يكون شيء منه مصطلحاً عليه؟ قيل له: كذلك نقول، والدليل على صحة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم. ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج بنا، لو اصطلاحنا على لغة اليوم، ولا فرق»^(١). وواضح أن ابن فارس في تعليقه هذا يتناسى أن كل لغة في مسيرتها الطويلة عبر الأجيال، تمر بحقب متفاوتة في النقص والكمال، وفي الصحة والاعتلال، وفي النقاء والتلوث، بحيث يضطر الباحثون إلى اختيار فترة من عمرها، تكون فيها في أوج كمالها وصحتها ونقاها، فيجعلون من ذلك حجة في اللغة، على ضوءه تقيّد قواعدها، وتسجل ألفاظها، وتحدد معانيها، وهو ما حدث في اللغة العربية.

ثم نرى ابن فارس بعد ذلك يزعم «أنه لم يبلغنا أن قوماً من العرب في زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح قد كان قبلهم»^(٢). وفي هذا الكلام تعسف ظاهر، فالاصطلاح كان يحدث في هذه الأزمنة، وقد ذكر علماء اللغة أن الإسلام اصطلاح على ألفاظ جديدة، كالمسجد والمثدنة والمنبر والمصحف، فضلاً عما أشار إليه ابن جني من اصطلاحات أصحاب الصنائع فيما يختص بآلاتهم وصناعاتهم. وهناك شيء جديد وطريف، يأتي به ابن فارس حين ينفي أن تكون اللغة العربية قد أوحى بها جملة واحدة فيقول: «ولعل ظاناً يظن أن اللغة، التي دللنا على أنها توقيف، إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد. وليس الأمر كذا، بل وقف الله

(١) نفس المرجع السابق، ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) نفس المرجع، ص ٣٣.

جل وعز آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه، وانتشر من ذلك ما شاء الله. ثم علم بعد آدم عليه السلام من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم، نبياً نبياً، ما شاء الله أن يعلمه، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد ﷺ، فاتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحداً قبله، تماماً على ما أحسنه من اللغة المتقدمة، ثم قرّر الأمر قراره، فلا نعلم لغة من بعده حدثت^(١). والجديد الطريف هنا أن ابن فارس يكاد يقول لنا إن الله لم يعلم آدم الأسماء كلها، بل وزع ذلك عليه وعلى من بعده. ثم اشترط هذا العالم شرطاً جديداً أيضاً وهو أن اللغة أوحيت مثل الأديان والعقائد والشرائع وأنزلت على الأنبياء فقط، والأنبياء من العرب وحدهم، حتى إذا تمت ببعثة نبينا محمد ﷺ، وقفت اللغة عند هذا الحد، لا يحدث فيها جديد، وهو قول لا يشفع فيه نظر صحيح، ولا تتبع مكين لتطور اللغة، ولا يشارك ابن فارس فيه أحد من الذين يعتد بهم من اللغويين، وكأن هذا العالم الجليل قد بهرته الخصائص العظيمة التي تميز اللغة العربية، واستولى عليه جمال أسلوب القرآن، فأحس بما أحس به ابن جني، ولكنه انساق بكل حماسه وراء إحساسه هذا، على حين توقف ابن جني، وأطال النظر، ثم فضّل أن يعلن عجزه عن الاختيار والترجيح.

وقد كرّس جلال الدين السيوطي، في أول كتابه (المزهر)، في علوم اللغة وأنواعها، فصلاً كاملاً جمع فيه كافة الأقوال التي ترددت بين علماء المسلمين حول هذه المشكلة؛ فلخص كلام ابن فارس، وكلام المفسرين الأقدمين، وألمّ بمقتطفات مما قال ابن جني، ثم واصل جولته فلخص رأي الإمام فخر الدين الرازي في كتاب (المحصول) وتاج الدين الأرموي في (الحاصل)، وسراج الدين الأرموي في (التحصيل) قائلاً: «الألفاظ إمّا أن تدلّ على المعاني بذواتها، أو بوضع الله إياها، أو بوضع الناس، أو بكون البعض بوضع الله والباقي بوضع الناس. والأول مذهب عباد بن سليمان، والثاني مذهب الشيخ أبي الحسن

(١) نفس الموضع.

الأشعري وابن فُورَك، والثالث مذهب أبي هاشم، وأما الرابع: فإمّا أن يكون الابتداء من الناس والتتمة من الله، وهو مذهب قوم، أو الابتداء من الله والتتمة من الناس، وهو مذهب الأستاذ أبي إسحق الإسفرائيني. والمحققون متوقفون في الكل إلا في مذهب عباد؛ ودليل فساده أن اللفظ لودل بالذات لفهم كل واحد منهم كل اللغات لعدم اختلاف الدلالات الذاتية، واللازم باطل فالملزوم كذلك. واحتج عباد بأنه لولا الدلالة الذاتية لكان وضع لفظ من بين الألفاظ بإزاء معنى من بين المعاني ترجيحاً بلا مرجح، وهو محال. وجوابه أن الواضع إن كان هو الله فتخصيصه الألفاظ بالمعاني كتخصيص العالم بالإيجاد في وقت من بين سائر الأوقات. وإن كان هو الناس فلعله لتعين الخطران بالبال. ودليل إمكان التوقيف احتمال خلق الله تعالى الألفاظ بإزاء المعاني، وخلق علوم ضرورية في ناسٍ بأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني. ودليل إمكان الاصطلاح أن يتولى واحد - أو جمع - وضع الألفاظ لمعاني، ثم يفهموها لغيرهم بالإشارة، كحال الوالدات مع أطفالهن. وهذان الدليلان هما دليلاً إمكان التوزيع»^(١).

والجديد فيما نقله السيوطي هنا هو ما يسميه إمكان التوزيع، أي الرأي الرابع الذي يجعل بداية اللغة تقوم على دعامتين: القدرة الإلهية من ناحية، والنشاط البشري من ناحية أخرى، والواقع أن هذا الرأي هو أقرب الآراء إلى النظريات التي أسفرت عنها التجارب الطبية في العصر الحديث، فقد تبين منها أن في جسم الإنسان، وفي الخلية المخية على وجه التحديد، مركزاً للكلام هو الذي أشرنا إليه آنفاً، وكان من أوائل القائلين بذلك في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الطبيب الجراح الفرنسي الدكتور «بروكا»، عندما بحث في أمراض فقدان النطق فخلص من ذلك إلى أن في خلقة الإنسان جهازاً طبيعياً لصنع الكلام، وللتمكن من عمل لغة صوتية يتفاهم بها مع المجتمع المحيط به. وعلى ذلك يكون التوفيق هو تمكين الخالق الإنسان، من

(١) المزهر، في علوم اللغة وأنواعها؛ للعلامة جلال الدين السيوطي، طبع محمد سعيد الراجعي، صاحب مكتبة الأزهرية - القاهرة ١٣٢٥هـ، ص ١٠ وما بعدها.

التعبير بصوته عما يجول في نفسه، كما في قوله تعالى ﴿الرحمن، خلق الإنسان، علمه البيان﴾.

ويقول اللغوي الفرنسي المعاصر الأستاذ فندريس: إن بروكا لم يستطع أن يعطي في وقته إلا فكرة تقريبية خشنة، يريد بها أن يعلمنا على الخصوص أنه في مخ الإنسان توجد مناطق متميزة تقابل مناطق متميزة في الفكر الإنساني نفسه، وغلطة بروكا أنه لم يدرك الصلات بين اللغة والفكر؛ إذ من الباطل أن نتصور أن المخ البشري مركب على شكل أبواب النحو ومقسم إلى خانات على عدد أقسام الكلام. فمجموع الواقع اللغوي للإنسان موزع في مخه بطريقة أكثر حرية واتساعاً مما افترضه بروكا. ف وراء الإصابات بفقدان القوة الناطقة، وهي الإصابات التي بنى عليها الدكتور بروكا نظريته، يحتل وجود تلف موضعي عادةً في مكان ما من المخ. ولكن فقدان القدرة على التعبير وعلى الوعي لما يقال توجب القول بانهايار عقلي عام. ولولا ذلك لكان من الممكن طبعاً أن تأخذ المراكز السليمة في المخ مسؤولية أداء وظيفة المركز المصاب كلياً أو جزئياً كما يجري عادةً في الطبيعة^(١) ولسنا نريد أن نخوض فيما لا طاقة لنا به من أسرار الطب وتشريح المخ بالذات، ولكننا نكتفي بترديد رأي الأستاذ فندريس إذ يقول: إن فكرة وجود مركز لصنع الكلام واستقباله في المخ تعتبر على وجه العموم ثابتة لا جدال فيها، ولكن تحديد مكان هذا المركز بالضبط يبدو بحثاً قابلاً للجدل يتطلب تجارب أخرى^(٢). فالتوقيف إذن هو تجهيز الإنسان وإعداده للتفاهم باللغة، وهو تجهيز وإعداد قام به الخالق. أما استعمال الجهاز فقد ترك لحرية المخلوقات فظهرت اللغة بحسب المجتمعات، مظهراً من النشاط الفكري الإرادي للبشر، يصنعونها ويستعملونها ويطورونها حسب حاجاتهم في مختلف الأزمنة والأمكنة.

Vendryès; le langage; Paris 1021 p. 15 SS.

(١)

(٢) ما تزال التجارب المشار إليها تجري في الأوساط الطبية إلى الآن:

Paul chauchard: Le CERVEAU HUMAIN; P. U. F. Paris, 1980.

وقد بدا التوقيف بمعنى محيء اللغة بألفاظها وقواعدها وكل ما يتعلق بها من الخالق إلى البشر أمراً غير معقول ولا مقبول في نظر كثير من علماء العرب، فتحمسوا للقول بالاصطلاح، قال السيوطي: «واحتج القائلون بالاصطلاح بوجهين، أحدهما: لو كانت اللغات توقيفية لتقدمت واسطة البعثة على التوقيف، والتقدم باطل. وبيان الملازمة أنها إذا كانت توقيفية فلا بد من واسطة بين الله والبشر، وهو النبي لاستحالة خطاب الله تعالى مع كل أحد. وبيان بطلان التقدم قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ وهذا يقتضي تقدم اللغة على البعثة. والثاني: لو كانت اللغات توقيفية فذلك إما بأن يخلق الله تعالى علماً ضرورياً في العاقل أنه وضع الألفاظ لكذا، أو في غير العاقل، أو بالآلة يخلق علماً أصلاً. والأول باطل وإلا لكان العاقل عالماً بالله بالضرورة، لأنه إذا كان عالماً بالضرورة بكون الله وضع كذا وكذا، كان علمه بالله ضرورياً، ولو كان كذلك لبطل التكليف. والثاني باطل؛ لأن غير العاقل لا يمكنه إنهاء تمام هذه الألفاظ. والثالث باطل؛ لأن العلم بها إذا لم يكن ضرورياً احتيج إلى توقيف آخر، ولزم التسلسل^(١).

وواضح من هذه الجولة من النقاش أن البحث في أصل اللغة كان، كما أشرنا منذ البداية، من مقدمات البحث في أصول الدين، كما كان عند القدامى من الفلاسفة من مقدمات البحث في المنطق والفلسفة، ويزداد ذلك وضوحاً في «المزهر» حينما ينقل عن أبي الفتح بن برهان في كتاب «الوصول إلى الأصول» قوله: «اختلف العلماء في اللغة هل تثبت توقيفاً أو اصطلاحاً، فذهبت المعتزلة إلى أن اللغات بأسرها تثبت اصطلاحاً، وذهبت طائفة إلى أنها تثبت توقيفاً، وزعم الأستاذ أبو إسحق الإسفرائيني أن القدر الذي يدعوه الإنسان غيره إلى التواضع يثبت توقيفاً، وما عدا ذلك يجوز أن يثبت بكل واحد من الطرفين. وقال القاضي أبوبكر^(٢): يجوز أن يثبت توقيفاً، ويجوز أن يثبت

(١) المزهر، الموضع السابق.

(٢) هو القاضي أبو بكر الباقلاني صاحب إعجاز القرآن.

اصطلاحاً، ويجوز أن يثبت بعضه توقيفاً وبعضه اصطلاحاً، والكل ممكن. وعمدة القاضي أن الممكن هو الذي لو قُدِّر موجوداً لم يعرض لوجوده محال، ويعلم أن هذه الوجوه لو قُدِّرت لم يعرض من وجودها محال، فوجب قطع القول بإمكانها. وعمدة المعتزلة أن اللغات لا تدل على مدلولاتها كالدلالة العقلية، ولهذا المعنى يجوز اختلافها، ولو ثبت توقيفاً من جهة الله تعالى لكان ينبغي أن يخلق الله العلم بالصيغة، ثم يخلق لنا العلم بجعل الصيغة دليلاً على ذلك المدلول، ولو خلق لنا العلم بصفاته لجاز أن يخلق لنا العلم بذاته، ولو خلق لنا العلم بذاته بطل التكليف، وبطلت المحبة^(١).

ولسنا نريد الإطالة بحشد كل النصوص التي ذكرها السيوطي، وإنما جئنا منها بما نشعر أن فيه جديداً يضاف إلى ما قاله القدامى كابن جني وابن فارس. فلا نريد إذن إلا أن نشير إلى أنه حتى في الآية الكريمة ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ يذكر أنه لا توجد فيها حجة قاطعة على التوقيف، ثم يسوق نصوصاً من إمام الحرمين في كتابه «البرهان» والغزالي في كتابه «المنحول»، وابن الحاجب في «المختصر» والزرکشي في «البحر»، يبدو منها جميعاً توقفهم وعجزهم عن الميل إلى أي من الجهتين.

ولا نريد أن نترك هذا النقاش قبل أن نذكر من الناحية الفلسفية أن المعتزلة كانوا يقولون بالاصطلاح، وبنوا على ذلك القول بأن القرآن مخلوق، وليس قديماً بقدم الله عز وجل، فالمعاني وحدها كانت قائمة في علمه تعالى، ولكنه خلق لها الألفاظ عندما أوحى بها إلى النبي ﷺ، وهذه الألفاظ في الأصل من صنع العرب، تحقيقاً للمبدأ الذي تقول به الآية الكريمة ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ أما معظم الذين فهموا من كون القرآن كلام الله أنه صفة من صفاته، وبالتالي يجب أن يكون أزلياً أبدياً سرمدياً كذاته، فقد اضطروا إلى القول بأن صانع اللغة هو الله لأنه صنع بها كلامه أولاً، وبالتالي قالوا بأن

(١) نفس الباب من كتاب المزهري للسيوطي، ولعل «المحبة» تحريف للفظه المحنة، لأن التكليف خاص بالدنيا وهي دار امتحان لخلق الله تعالى.

القرآن قديم غير مخلوق، وبأن اللغة ظهرت بين الناس بوحى من الله تعالى، وذلك يفسر لنا قول بعضهم - ومنهم ابن فارس - إن كل اللغات يمكن أن تكون من صنع البشر باستثناء اللغة العربية، لأنها لغة القرآن الكريم. وينبغي ونحن بهذا الصدد أن نقول: إن اللغة هي تراث اجتماعي، ووسيلة من وسائل الإمتاع الفني، وبقية من بقايا فكر الأسلاف الأول، تكتسب في نظر أبنائها قدسية معينة. وقد ادعى اليهود أن لغة الرب ولغة الملائكة هي العبرية، وأن أول شيء كتب على صفحة السماء السابعة بيد الله هو حروف هذه اللغة، كما ادعى الفرس أن لغتهم ستكون لغة التخاطب في الجنة، وقبلهم قال السريان أن لغة أهل الجنة ولغة الحساب في الآخرة هي السريانية، وكان الرومان يسمون كل مَنْ لا يحسن التفاهم باللاتينية بربرياً، ويعنون بذلك أنه من الهمج، ومن الأجناس السفلى من البشر. فالتعصب اللغوي ظاهرة طبيعية مع طفولة الأمم، وهي التي تدعو بعضهم إلى ربطها باعتبارات ميتافيزيقية لا دخل فيها للعلم التجريبي.

وخلاصة رأينا الذي نتفق فيه مع تعريف سابير، هو ما قلناه: من أن اللغة اصطلاحية يخترعها المجتمع طبقاً لقدرة مخلوقة في الأعضاء والأعصاب، تميز الإنسان في ذلك عن سائر الحيوان. هي إذن نشاط فكري وظاهرة اجتماعية تلازم البشر، وتحيا حياتهم، أي أنها تسير على سنة التطور الذي يعتري الناس، فتتميز العصور المختلفة بالازدهار الحضاري أو التخلف، وتكون اللغة دائماً مرآة لهذا الرفع والخفض، مما أوجب أن يقوم - إلى جانب العلوم اللغوية القانونية، التي تثبت اللغة على وضع شبه نهائي؛ بل تدعي أنه نهائي - أبحاث تعتبر حياة اللغة وتطورها من أهم شعب الدراسات الإنسانية، وهذه الأبحاث هي التي تندرج تحت «علم اللغة» و«فقه اللغة».



الفصل الرابع

الكلام والفكر

تحديد الروابط بين الكلام المسموع وبين الفكرة الهائمة في آفاق النفس البشرية، ما يزال يعتبر من أشد مباحث علم اللغة تعقيداً، وأكثرها طرافة في آنٍ واحد. وقد رأينا أن اللغة إن هي إلا رموز صائتة يحدد بها الإنسان تجاربه الحسية أو المعنوية، بحيث لو نظرنا إلى ذلك من زاوية الألفاظ المفردة فقط فإننا نجد أن كلاً منها هو مجرد علامة مميزة لمعنى ما يريده المتكلم بهذه اللفظة. وهو في ابتداع هذه الألفاظ ينوعها بناءً على ذلك التمييز بين الأشياء والظواهر، ثم يختزنها لتكون في النهاية مؤنثة من المعرفة، وعدته لتبادل ما يعرف مع غيره من أبناء مجتمعه. فالذي يدفعه إلى ذلك في الحقيقة هو ضرورة لا مفر منها للمعيشة في مجتمع هو محتاج أن يتبادل معه الأخذ والعطاء في الماديات والمعنويات جميعاً. وهكذا تصبح القيمة الحقيقية للكلمة بمقدار ما لدلالاتها من وضوح وشيوع في ذلك المجتمع، ومن مرونة في الإحاطة بأكبر عدد من الصور الجزئية والتفاصيل الفرعية التي تدخل في نطاق هذه الدلالة. ومن وجهة النظر هذه يتبين أن اللفظة في الكلام تشبه إلى حد كبير ورقة النقد في الاقتصاد، لا بد أن تغطيها قيمة اقتصادية حقيقية من الذهب أو غيره من القيم المصطلح عليها، وبدون هذا الغطاء لا تخرج ورقة النقد عن أن تكون قصاصة ورق لا حول لها ولا قوة. ولتقريب ذلك في ميدان اللغة ننصوّر مجموعتين من الناس وجدتا في صعيد واحد ولكل مجموعة لغة لا تفهمها الأخرى، ثم راحت كل مجموعة تتكلم لغتها. فالألفاظ المسموعة تتخذ عندئذ قيمتها في المجموعة التي تفاهم بها فقط، بينما تظل بالنسبة للأخرى مجرد ضوضاء لا تولد في العقل شيئاً.

فالمحتوى الفكري لألفاظ اللغة يظل ملكاً خاصاً لمن يستعملون هذه اللغة فقط، وهذا يختلف عن الفكر المطلق المستقل عن اللفظ فهو ملك للإنسانية جميعاً. وفي المجتمع الذي يصطلح على لفظة لمعنى، تزداد قيمة اللفظة كلما كانت دلالتها عامة شاملة - كما قلنا - واسعة التداول في هذا المجتمع. فالكلمة التي تدل على معناها دلالة عينية - أي تدل على شيء واحد بذاته - كلمة مكتوب لها أن تحمل قيمة فكرية محدودة جداً. ولنأخذ مثلاً كلمة ككلمة (المعبد) فهي رمز لمعنى عام هو المكان الذي تقام فيه الطقوس والشعائر الدينية من أي نوع كان، يدخل تحتها المسجد الإسلامي والكنيسة المسيحية والهيكل اليهودي وبيت النار المجوسي، وما شئت من المحاريب والصروح الدينية المختلفة التي تعبد الأصنام أو الشياطين أو غيرها. لكن إذا نطقنا بكلمة مثل (الكعبة) فإنها لا تدل إلا على بناء بعينه مقدس عند المسلمين وموجود في مكة، وإذا سمي غير هذا المكان كعبة فلا يكون ذلك إلا مجازاً. وكذلك الأمر إذا نطقت بكلمة (البيعة)، فبالرغم من أن دلالتها ليست عينية كالكعبة، إلا أنها أضيق نطاقاً بكثير جداً من كلمة المعبد، فهي لا تدل إلا على المعبد الصغير للمسيحيين وحدهم، هو نوع من الكنيسة المحلية التي لا تتسع لجمهور كبير من المصلين، وقد توسع فيها العرب فأطلقوها على المعبد اليهودي الصغير أيضاً، ويقول الفيروزآبادي «في القاموس المحيط»: «والبيعة بالكسر متعبد النصارى» وقد أضاف السيد مرتضى الزبيدي في «تاج العروس»: «وقيل كنيسة اليهود».

فالأصل في وضع الألفاظ إذن أن تكون كل منها علامة صوتية دالة على «معقول» أو «متصور» يندرج فيه ما لا يتناهى من المحسوسات أو الأعيان. وكنا قد ضربنا لذلك مثلاً كلمة «رداء» وهو ما يصطنعه الإنسان ليستر بدنه، مهما اختلفت ذلك طويلاً واتساعاً، ومهما تباينت ألوانه وطريقة تفصيله والمادة التي هو متخذ منها... إلخ، يستوي في ذلك الجلباب والعباءة والمعطف والشملة والجبّة والسترة والقميص وغيرها. ولكي تكون الكلمة بهذه المثابة من المرونة،

ينبغي أن تكون التجربة الحسية التي استمدت منها قيمتها وكيانها بوصفها وحدة لغوية، تجربة متكررة على عينات كثيرة فيها من التشابه ما يكفي لجمعها تحت رمز واحد، ومع ذلك يظل الاختلاف في الجزئيات والتفاصيل قائماً وممكناً في الأفهام، فهو الذي يضمن للكلمة مرونتها في الدلالة وصلاحتها للإحاطة بقدر ما من المعرفة الإنسانية العامة. وهذه الطريقة فحسب يصبح التفاهم ممكناً بين الناس بعضهم ببعض. وإذا كانت مجموعة ألفاظ لغة من اللغات هي الرموز الاصطلاحية الدالة على المتصورات المعروفة لدى أهل تلك اللغة، فإن اللغة نفسها — أي الكلام المركب المفيد — هو التصوير الشفوي للنسب القائمة بين هذه المتصورات بعضها ببعض.

وبالرغم مما يبدو على هذا الكلام من منطقية، فقد تناوله كثير من العلماء المحدثين بالتحليل والنقد والتكميل، ونذكر في مقدمتهم اللغوي الروسي المعاصر ليف سمينوفيتش فيجوتسكي في مجموع من بحوثه يحتوي على سبعة أبحاث في كتاب واحد عنوانه «الفكر واللغة»، ترجم إلى اللغة الإنجليزية ونشر في الولايات المتحدة سنة ١٩٦٢م^(١). وأيضاً مجموعة مقالات للغوي الأمريكي بنيامين لي وورف بعنوان اللغة والفكر والحقيقة ظهر سنة ١٩٥٦م^(٢). يضاف إلى هذا أبحاث حديثة أخرى أهمها البحث الطويل القيم الذي شق الطريق لمئات الباحثين من ورائه وهو كتاب «الفكر واللغة» الذي نشره في أوائل هذا القرن اللغوي الكبير فرديناند برينو^(٣)، وكذلك كتاب الفيلسوف البريطاني

(١) Lev Semenovich Vygotsky; Thought and Language; Translated by: Eugenia Hanfmann and Gertrude Vakar, The M. I. T. press; Massachusetts Institute of Technology, Cambridge, Massachusetts, U. S. A. 1966.

(٢) Benjamin Lee Whorf, Language Thought and Reality, Selected Writings, Edited and with introduction by: B. Carroll, M. I. T. Press, 1966

(٣) Brunot (Ferdinand), Histoire de la Langue Française. — 5 Volumes. La Pensée et la Langue — I Volume.

برتراند راسل «دراسة في المعنى والحق»^(١)، وأخيراً كتاب العلامة الإنجليزي سيمون بوتّر «اللغة في العالم الحديث»^(٢).

استوقفنا في المقال السابع من كتاب العالم الروسي فيجوتسكي الذي عنوانه «الفكرة والكلمة» قوله إننا في دراسة الصلة بين التفكير والكلام لا نجد أي ارتباط نوعي بين أصول الفكر وأصول الألفاظ لدرجة أنه تبين لنا أن هذا الارتباط في آذان المتكلمين إنما كان نتيجة التطور التاريخي للوعي الإنساني^(٣). كذلك استوقفنا مقاله الخامس الذي عنوانه «دراسة تجريبية لتكوّن الدلالات» (أي المتصورات اللغوية). وفيه ينقد الطريق القديمة لدراسة الدلالات اللغوية، ويقول: إنه إلى فترة قريبة، كان الدارس لتكوين الدلالة أو للتصور اللغوي، يشعر بعقبة كشود هي نقصان المنهج التجريبي الذي قد يتيح له أن يلاحظ التحركات الباطنية في تكوّن الدلالة اللغوية؛ ذلك أن المناهج التقليدية التي تهتم بدراسة الدلالات تنقسم إلى شعبتين: الأولى منها تبدو في أجلى مظاهرها فيما يسمى بطريقة التعريف، وهي طريقة تطبق تجريبياً على الأطفال بسؤالهم عن معنى بعض ما يلفظون به، وفي هذه الطريقة عيان هامان يحولان دون تعميق هذا النوع من الدراسة: العيب الأول أن هذه الطريقة تتناول حصيلة منتهية من الدلالة، ولا تهتم بالتحولات والتطورات التي تعرضت لها الظاهرة نفسها، ومن الممكن أن يعتبر هذا مقياساً لتحصيل الطفل للغة، ولكنه على كل حال لا يمكن أن يوضح لنا تكوّن الفكرة وارتباطها باللفظ في إدراك الطفل. والعيب الثاني أن الطفل عند إجابته على أسئلتنا يستعمل ألفاظاً أخرى يعتقد أنها معادلة لما نسأله عنه، ومهما يكن من شيء فلا هذه ولا تلك تعبر عن تكوّن الأفكار والمدركات في عقل الطفل وتكوّن الألفاظ الدالة عليها على لسانه.

Bertrand Russell, An Inquiry into Meaning and Truth, Pelican, 1963.

(١)

Simeon Potter, Language in the Modern World, Pelican 1964.

(٢)

Thought and World, P. 119.

(٣)

أما الشعبة الثانية فتعتمد على دراسة «التجريد»، والذين يصطنعونها يعتمدون على وسائل نفسية توصل إلى تكوُّن الفكرة أو المدلول. وفي هذه الطريقة يقدم للطفل عدد معين من المؤثرات (صور، لعب، أناشيد، أشياء مختلفة) توجد بينها وجوه تشابه متكررة فيها، ولكنها خفية إلى حد ما، ويطلب منه اكتشاف هذا القدر المشترك بين تلك الأشياء، ويرون أن إدراك الطفل للسمات المتشابهة هو نوع من «دلالة» في دور التكوين يلاحظونها بأنفسهم. ولكن هذه الطريقة لا تعين كثيراً على كشف العلاقة بين الرمز الصوتي الذي هو الكلمة وبين مدلولها.

أما الطريقة التي يصفها فيجوتسكي فتتلخص في إحضار شخص وإسماعه مجموعة من الألفاظ التي تعتبر من قبيل الهذيان، ولا مدلول لها في ذهنه، ثم يسأل عن الأثر الذي تتركه كل لفظة من هذه الألفاظ في نفسه، وقد قام بمثل هذه التجارب اثنان يذكرهما المؤلف، أحدهما «آتش» الذي يقول: إن هذه الطريقة يمكن تطبيقها على الأطفال والبالغين سواء بسواء؛ لأن الدلالات المطلوب إعطاؤها للألفاظ المنطوقة لا تفترض نوعاً بعينه من التجربة أو المعرفة المسبقة، ثم إنها تنطلق من فكرة أن الدلالة التي تعطى للفظ ليست شيئاً متحجراً غير قابل للتبديل والتغيير. وأنصار هذه الطريقة يرون أن المدركات المعبر عنها تتحرك وتتطور طبقاً لظروف وظيفية، أي متجاوبة مع الحاجات المباشرة للمتكلمين. أما الثاني فهو «ريمات» الذي أدار دراسة مخططة بعناية حول تخلق الدلالات عند المراهقين، مستعملاً طريقة «آتش» مع بعض تعديل، وانتهى منها إلى أن الإدراك بمعناه الحقيقي، أي القابلية لأن تقوم في الذهن متصورات حقيقية، يفوق طاقة مَنْ هم دون سن المراهقة، ولا يبدأ ذلك إلا مع البلوغ. ثم ينقل المؤلف نصاً من ريمات يقول فيه: «لقد ظهر لنا بشكل قاطع أن زيادة كبيرة في قدرة الطفل، بدون مساعدة، على تكوين متصورات موضوعية عامة تتجلى في حدود السنة الثانية عشرة من عمر الطفل... فالتفكير في التصورات

تفكيراً متحرراً من التلقين يفرض متطلبات على الطفل تتجاوز إمكانياته العقلية قبل سن البلوغ»^(١)

والذي يهنا هنا هو أننا نلاحظ أن الدراسة الحديثة في صلة الفكر اللغوي بالإدراك العقلي قد تعني علم النفس أكثر مما تعني علم اللغة في ذاته، إذ إن عملية الكسب اللغوي لا تبدأ عند الطفل كما بدأت في تجربة آتش وريمات من نقطة الصفر لغوياً، وهي ما يسميه بالهذيان المجرد من المعنى، وإنما تبدأ بسماع الطفل للغة مستقرة لها مدلولات مسبقة، يعتبرها هذا المؤلف من عيوب المنهج الذي يعول عليها، بينما هي في الواقع تبين كيف يختلف مدلول الكلمة بعينها من سن إلى سن، ومن مستوى اجتماعي أو فكري إلى مستوى آخر.

وإذا كانت كل هذه المناقشات بأجمعها تدور حول العلاقة بين الكلمة ومدلولها، فقد كان ذلك باعثاً للفيلسوف برتراند راسل ليبدأ كتابه «دراسة في المعنى والحق» بسؤال هو بكل بساطة: ما الكلمة؟^(٢) وقد ذكر أنه في ذهن الرجل القديم، لم يكن هناك فاصل بين الكلمة وما تدل عليه، فكل شيء موجود هو موجود باسمه، كما أنه كان يعتقد أن المعلوم هو الذي ليس له اسم. وتفرعت عن ذلك اعتقادات سحرية مختلفة، منها أن الذي كان يعرف اسم عدوه كان بهذه المزية يتزود بقوة سحرية تسهل له التغلب عليه. وكان السحرة يدعون الملائكة والشياطين بأسماء هي التي، في معتقدهم، تجعل هذه المخلوقات الرهيبة غير المرئية تطيعهم.

ونظراً للقدسية التي يكتسبها خلع الاسم على المسمى، ظل هذا إلى الآن في استعمالات تدعو إلى التأمل، مثل: باسم القانون، باسم الشعب، وبسم الله الرحمن الرحيم، فالاسم في كل هذا معناه في الواقع القوة والسيادة والقدرة التي يضمنها المسمى، فمفهوم «باسم القانون» هو بسيادة القانون، وبقوة القانون،

An Experimental Study of Concept Formation; P 52.

(١)

What is a Word?, P 21— 28.

(٢)

ومفهوم «باسم الشعب، بسيادة الشعب وبقدرة الشعب، ومفهوم «بسم الله» بقوة الله وقدرته وسيادته. فالكلمة إذن كانت ترتبط بالمدلول ارتباطاً سحرياً، وفي ذلك نفسه ما يثبت أن الارتباط لم يكن عضوياً وإنما كان صناعياً أريدت تقويته فخلقت حوله هذه الهالة من المعتقدات القديمة. كان الرجل القديم يخاف من الكلمة، وقد ذكرنا في كتاب ألفناه عن القسم عند الساميين القدماء^(١) أن تلك الأمم كالأمم البدائية المعاصرة لنا، كانت تخاف من اليمين، وكان بعضهم يفضل أن يضيع حقه نهائياً على أن يتلفظ بصيغة قد تجرُّ عليه ما لا علم له به من اللعنات. على حين أن اليمين، في حد ذاتها، لا تعدو مجرد ألفاظ منطوقة، على ضوء الواقع المادي المنطقي لا حول لها ولا قوة. وقد اكتشف الناس ذلك فأكثرُوا من الأيمان الكاذبة، حتى اضطرَّ المشرعون إلى وضع عقوبات مادية للكاذب في يمينه، وصلت في بعض الشرائع إلى عقوبة الموت، ثم يسَّس القضاء من قيمة اليمين فلم يعد يقنع إلا بالوثائق المادية والعقود والشهود. كذلك كانت اللعنات في الزمن القديم لا تعتبر مجرد كلمات، وإنما هي أصوات ذات قوة سحرية خاصة، لدرجة أن بعض البدائيين كان إذا مرَّ بالمصادفة فالتقطت أذنه صوت شخص آخر يطلق لعنة من اللعنات، انكفاً على وجهه أرضاً حتى تمر اللعنة من فوقه ولا تلمسه.

كل هذا يبين لنا الشوط الذي قطعته الألفاظ في علاقتها الخفية بالفكر حتى وصلت إلينا، ولم يكن وصولها مع ذلك خالياً من المشاكل الخاصة بالعلاقة بينها.

وبعد، فهناك سؤال حار الناس في الإجابة عنه وهو: هل يمكن أن يوجد الفكر دون أن يوجد الكلام؟ وبعبارة أخرى: أليس الكلام والفكر كلاهما مظهرين لعملية نفسية واحدة؟

Hassan Zaza, Le Serment chez les Anciens Sémites, Paris 1957, P. P 39 — 63.

(١)

يقول إدوارد سابير: إنه للإجابة عن السؤال يجب أن نفهم بوضوح ومنذ البداية أنه - حتى مع التسليم بأن الفكر في عملياته المختلفة في حاجة إلى رموز حسية يتعلق بها - في حاجة إلى لغة على وجه التحديد، فإنه لا ينبغي على ذلك أن يكون الكلام دائماً وأبداً صورة لعملية من عمليات الفكر في معناه الفلسفي الأعلى. وقد سبق أن رأينا أن العنصر اللغوي الأساسي في الكلام هو اللفظة الدالة على متصور. وليس معنى هذا أن اللغة تستعمل فقط في التعبير عن متصورات بالمعنى الفلسفي؛ فإننا في الحياة اليومية العادية لا نهتم بالمتصورات قدر اهتمامنا بالواقع الملموس، بالأشياء الجزئية القائمة أمامنا وبالنسب التي تنشأ بينها. وأنا عندما أقول إنني تناولت إفطاراً لذيذاً هذا الصباح، فإنه من الواضح أنني لا أتجشم - وأنا أنطق بهذه الجملة - عذاب الإجهاد العقلي الذي تحتاج إليه عملية من عمليات الفكر جديرة بهذا الاسم. بالعكس، أشعر بسرور من يستعيد ذكرى طيبة يسوقها في عبارة مألوفة يسيرة. وبالرجوع إلى كل لفظة من ألفاظ هذه الجملة نجد أنها في حقيقة الأمر تعبر عن متصور، أو عن نسبة بين متصورين، أو عن الأمرين جميعاً، ومع ذلك فالجملة كلها بعيدة كل البعد عن أن تكون لها هذا الجو المكفهر، جو التصورات المنطقية والنسب والقضايا القائمة بينها، ونحو ذلك من أشكال الفكر الفلسفي. وأنا في نطقي بهذه الجملة، أي في التعبير عن معناها باللغة - هذا الجهاز الفكري الضخم المعقد - أكون مثل من وجد مولداً كهربائياً هائلاً تستطيع قوته تحريك الآلات الضخمة والمصاعد الثقيلة، فاستخدمه هو بكل بساطة في رن الجرس الصغير المثبت على باب بيته أو على مكتبه.

وهذا القياس - كما يقول سابير - أكثر جدية مما يبدو في الظاهر ولأول وهلة، إذ يمكننا أن نعتبر اللغة آلة صالحة لأداء ما يرجى منها في كل الظروف النفسية والفكرية، ابتداءً من الواقع البسيط المتكرر في الحياة اليومية كالحديث عن الإفطار في الصباح، إلى الفكرة التجريدية الفلسفية في كل تعقيدها وعمقها. وفي كل هذه الحالات التي لا حصر لها يختلف الموضوع، ويختلف

المستوى الذي يدور فيه التفاهم، أما مادة التفاهم، أما صورته، أي الجهاز اللغوي المطالب بالتعبير عنه، فإنه يبقى واحداً على الدوام^(١).

وفي علاقة اللغة بالفكر يسأل الدكتور كمال يوسف الحاج في كتابه «في فلسفة اللغة» هذا السؤال: أياً كان الألفاظ أن تدلّ تمام الدلالة على المعاني الداخلية، أو أنها تقصر عن تصريف كل ما في الوجدان؟ عندما أقول (أحب)، هل تستطيع هذه الكلمة أن ترسم، بأحرفها الأربعة، جوهر الحالة النفسية التي يتناغم فيها المحب مع قلب آخر؟

جليّ أن العلاقة هنا محصورة بين اللغة ومواجيد الباطن، وأن المعضلة الأولى (وهي: هل اللغة اصطلاح أو توقيف) لم تنتف بهذا السؤال الثاني. إنما أرجىء حلها فقط، فقد انتقلت من البحث في أصول الشيء إلى البحث في أصول الوجدان. ومعلوم أن الآراء، لم تجتمع في هذا المجال على حذو واحد. منهم من آمن بأن العلم بمواقع الألفاظ لا يفيدنا كل الإفادة عن حقيقة الوجدان. بذلك تصبح اللغة واسطة لا غاية (لوك Locke). ومنهم من آمن بأن العلم بمواقع الألفاظ يفيدنا عن حقيقة الوجدان، لأن اللفظ يعبر عنه تعبيراً كاملاً. بذلك تصبح اللغة غاية لا واسطة (دي بونالد De Bonald). ومنهم من وقف بين بين (ليبنز Leibnitz).

يعتبر لوك، من أكابر فلاسفة الإنجليز في القرن السابع عشر، وقد خصص لمعضلة اللغة فصلاً طويلاً، ضمنها كتابه الضخم «بحث في المدارك البشرية» حيث تبني المسالك التجريبية. وقد كان من أشد الذين لاحظوا الروابط المتينة الكائنة بين اللغة والفكر. في رأيه أن العلاقة بينهما أكثر من احتكاك برّاني. علاقتها من الداخل. ولا نستطيع نحن، في أي حال من الأحوال، أن نقضي على هذه العلاقة، لنفصل بعضهما عن بعض.

لاحظ لوك وجود هذا الحيك المتين بين التعبير والتفكير، ثم قال رغم ذلك بالتواطؤ (أي كون اللغة اصطلاحية لا توقيفية). هذا الحيك المتراس أعاده لوك إلى كون الإنسان يعيش في بيئة اجتماعية، فطرنا على الحياة فيها مع الآخرين. هذه الحياة تفرض علينا التفاهم والتخاطب؛ لذا كانت الأعضاء الصوتية لدى الإنسان، ليتصرف بطريقة يتمكن فيها من أن يعبر عن أفكاره للآخرين. هنا مصدر اللغة البشرية. لكن هل نستطيع القول رغم هذا أن اللغة توقيفية؟

جواب لوك عن هذا السؤال واضح. يقول ما فحواه: إذا كانت قوة الكلام مغروسة، أصلاً، في عنقنا... إذا كنا نندفع بالسليقة إلى الكلام... فهذا لا يعني أن اللغة توقيفية. الإنسان يتواطأ مع صحبه على وضع المفردات الخاصة. حجة لوك في هذا ما يلي: الكلمة تدل إلى معنى. والمعنى لا يأتي من الشيء المادي. الحجر لا يعني، الكلمة الدالة إلى الحجر هي التي تعني. والذي يعني، في الكلمة، هو الفكر، الفكر إذن، عانٍ. والإنسان هو مصدر الفكر. لنقل - والحالة هذه - إن الكلمات رموزٌ لأفكارنا، شارات حسية لها. الكلمات لا تعني أشياء بقدر ما تعني أفكاراً. علاقتها بالباطن لا بالخارج، بعالم النفس لا بعالم الطبيعة، مهما تكن قوية علاقة الكلمة بالشيء الذي تعنيه. وضعيفة علاقة الكلمة بالفكرة التي لدينا عن هذا الشيء، فإن غاية الكلمة هي الترويح عن النفس، التخفيف من لواعجها ونقل الأفكار إلى الآخرين في نطاق الحياة الاجتماعية. العلاقة حاصلة إذن، بين الكلمة والفكرة، لا بين الكلمة والشيء. العلاقة الثانية لا وجود لها، لأن الأفكار هي التي تعني، لا الأشياء البرانية.

يقصد هذا القول أن الإنسان هو الذي يعطي المعاني للكلمات. فهناك حاجة الإنسان إلى التعبير عن أفكاره، فحاجته إلى التعبير عن أفكاره للآخرين مما يفيد أنه لا يوجد ربط حتمي بين الأفكار وجرس الحروف. لأنه لا توجد علاقة جبرية بين ما نعبر عنه وما نفكر فيه. لو كانت هذه العلاقة موجودة لتكلم

الناس جميعاً لغةً واحدةً، وأثارت الكلمات عينها، في أذهان الكل، المعاني ذاتها. الكلمات في حد ذاتها لا تعني شيئاً. هي تعني ما نريدها نحن أن تعنيه. إذن هي وليدة التواطؤ.

وقد لاحظ لك أن هذه التواطؤية ذات قاعدة. يعني أن وضع الكلمات يتطور من الحس إلى المجرد... من المنظور إلى اللامنظور... من الخاص إلى العام. فلو حللنا مفاهيم مجردة كلفظة عقل، وروح، ونفس، ورب، لوجدنا أن معانيها ترجع بالأساس إلى أوضاع حسية. مثلاً عقل (الذي فحواه نور روحياني تدرك النفس به ما لا تدركه بالحواس) يعني بالأصل شيئاً مادياً. نقول عقل البعير، أي ثني وظيفه مع ذراعه، فشدهما معاً بجبل هو العقل. العقل، إذن، هو الجبل الذي يشد به البعير في وسط ذراعه. نقول أيضاً: عقلت شعرها أي مشطته. اعتقل الرمح، أي وضعه بين ركابه وساقه. عقل الدواء بطنه، أي أمسكه. ولا شك في أن كلمة رب «التي تعني المالك، السيد، المصلح وهو خلاصة جميع الظواهر الكائنة» هذه الكلمة مأخوذة من الرب والرب ما يطبخ من الثمر، وما يخثر من عصير الثمار، وهكذا دواليك حتى تأتي على جميع المفاهيم المجردة^(١).

هذه النزعة التواطؤية يقابلها نزعة توقيفية أشد، أظهرها دي بونالد، أحد مفكري القرن الثامن عشر. وهو يعتبر من أعند الذين اشتغلوا بقضايا الكلمة على الصعيد اللاهوتي البحت.

عنده أن علاقة اللغة بالفكر ليست معضلة خاصة يمكن درسها بمعزل عن معاضل الإنسانية الباقية. هذه المعضلة هي في صميم الكيان البشري ومن صميمه وإلى صميمه. هي معضلة الإنسان رُمّة، من هنا اعتباره إياها، صراحة، قلب الفلسفة كلها.

نستطيع أن نلخص نظرتة في اللغة كما يلي: أن العلاقة التي تربط الفكر

(١) علاقة الرب بالرب متكلفة، والرب في المعنى الحسي هو الكبير والكثير والضخم ومالك الشيء المتصرف فيه.

بالكلمة هي علاقة صميمة. الفكر والكلمة جسم واحد، لا يحصل فكر بدون أن تحدث لغة. ولا تحدث لغة لا تكون ذاتها فكراً. استناداً إليه يقول دي بونالد ما فحواه: اللغة ليست تواطؤية من خلق الإرادة البشرية. الناس لم يتفقوا فيما بينهم على أن يكون ثمة لغة فكان هناك لغة. هذا التفسير لمنشأ اللغة بعيد كل البعد عن واقع الحقيقة؛ ذلك أن الإنسان لا يقدر على حل شيء ما لم يكن لديه فكرة صريحة عنه. ولكي يحصل على هذه الفكرة الصريحة ينبغي له أن يعبر عنها. إذن اللغة واجب وجود لمنشأ اللغة ذاتها. مما يفيد أن اللغة ليست من عمل القوى البشرية. إنها هبة من لدن الله.

أعطي الإنسان قوة النطق منذ أن سوي إنساناً، منذ أن تحرك الحركة الأولى. لذا نخطيء عندما نقول: إن الفكر سابق للكلمة. الفكر ذاته كلمة، والإنسان لا يفكر إلا لأنه كائن لاغ. فنحن نتحدث إلى أنفسنا عندما نفكر بينما وبين ذاتنا. نتحاور في قراراتنا حواراً لا ينقطع، لأن في هذه القرارة فكراً لا ينقطع، والفكر تعبير وراء الشفتين الصامتتين، الفكر حديث باطني، والحديث تفكير بصوت عالٍ^(١).

ونحن متفقون مع أغلب الباحثين المحدثين في فلسفة اللغة، الذين وقفنا على طرف من آرائهم الآن، فالفكر هو المضمون الخفي أو الطاقة القصوى للكلام، هو المعنى الذي نكشف عنه عندما نتأمل القيمة التصويرية لكل وحدة من وحدات الكلام. ولكن هذا بالذات يعني أن الفكر واللغة ليسا في الاعتبار الفلسفي شيئاً واحداً. فالكلام بالنسبة للفكر هو أولاً وقبل كل شيء عملية مصاحبة له غير خالقة له على وجه اليقين: هو رفيق لهذا الفكر يعمل بدأب وتواضع على أن يرتفع إلى مستواه، وبالتالي فهو من جهة أخرى ليس كما يظن البعض بطاقة نلصقها في النهاية على الفكرة عند بلوغها في العقل مبلغ الوجود.

وإذا سألنا زيداً من الناس هل تستطيع أن تفكر بلا كلام؟ بلا لغة؟

(١) كمال يوسف الحاج: في فلسفة اللغة. بيروت (دار النهار) ١٩٦٧، ص ٢٣ وما بعدها.

بدون أن تستحضر في نفسك ألفاظاً معينة؟ فإنه سيجيب غالباً: نعم! ومع ذلك فليس من السهل علي أن أفعل هذا؛ ولكنني أعلم أنه ممكن.

الواقع أن الذي يجيبك بذلك مخدوع، فاللغة للفكر كأرقام للحساب، لا يمكن تصور عملية حسابية بدون أرقام، مع أن الحساب، من حيث هو عملية عقلية، شيء، والأرقام شيء آخر. كذلك لا يمكن تصور فكرة بدون ألفاظ. والذي يوقع الناس عادة في هذا الخطأ هو ظنهم أن الفكر طبيعي، واللغة صناعية، وعلى ذلك تكون الرابطة بينها شيئاً محدثاً مبتدعاً، ليس هو في لب الأمر وجوهره لازماً لا ينفصم. الواقع أن للفكر حمىً أو حرماً عزيزاً منيعاً ليس له إلا طريق واحد تؤدي إليه هي الألفاظ، الكلام. وهناك سبب آخر لذلك الخطأ، وهو ملاحظتنا أن الصم البكم قادرون على التفكير رغم حرمانهم من وسيلته التي تسمى الكلام، وقد سبقت الإشارة إلى أن هؤلاء المحرومين يتلقون من المجتمع الذي يعيشون فيه رموزاً بديلة تحل محل الألفاظ كالإشارة والكتابة إلى آخره.

ونحن في هذا نخالف ما يذهب إليه الدكتور كمال يوسف الحاج ومن لفّ لفه عندما يقول^(١): «اللغة، إذن، في صميم الوجدان، ومن صميمه، وإلى صميمه». نقول أيضاً لا صميم للوجدان بدون لغة. إن اللغة ليست صفة من صفات الوجدان، بل هي الوجدان عينه. إذا توقف الوجدان عن أن يكون لغة، أو في سبيل اللغة، توقف عن أن يكون وجداناً. إن التزام الدلالة في الوجدان دلالة إلى التزامه اللغة دائماً. إذا انعدم انتقاله إلى اللغة انتقل العدم إليه.

المقصود من هذا الكلام أن اللغة متحدة، اتحاداً عينياً بالوجدان؛ لذا كانت اللغة إلى الإيجاز أو الإطناب، إلى اللين والشدّة، إلى الارتفاع أو بعد المدى، بمقدار ما تستلزمه الدلالات في الوجدان. وكانت الدلالات الوجدانية

(١) كمال يوسف الحاج: في فلسفة اللغة. ص ٩٢ وما بعدها.

تنطبع لغةً، بمناسبة طبيعية في الشدة أو الرخاوة، في الهمس أو الجهر، مما يجعل الوجدان غير قادر على أن يتصرف بالحروف، والكلمات، كما يشاء هو، بل كما يفرضه الوجه الذي في الحروف، والكلمات. وهذا الوجه في الحروف، لم يأت محتملاً إلا لأنه يحمل فيه بلاغة الوجدان ذاتها. فدلالة الوجدان طبيعية في دلالة اللغة. يكون فيها من دلالة على مقدار ما يكون فيها من روح الوجدان. وعلى مقدار ما يكون في الوجدان من دلالة ينجذب ضرورة إلى أن يصبح لغة.

اللغة إذن غاية لا واسطة. لولاها ما بان الإنسان من باقي الحيوان إلا بتخطيط جسمه. ولولاها ما وجد إلى المعرفة باباً واسعاً. لا نرى عاقلاً يشك في أنها من مهمات علم الإنسان، في أنها الأسبق إلى منازل الشرف ومواقع التعظيم. لا علم إلا وهو دليل عليها، ولا خير إلا وهو السبيل إليها. نقول: ما كان شيء في الوجود أنور فانوساً من اللغة، التي نفتت الحياة في العدم فأخصب، وضربت السحر في الجماد فتحرك. لولا اللغة لبقيت اللطيفة الإنسانية كامنة محجوبة. لاستولى الخفاء على قاصيها ودانيها. لعجزت النفس عن أن تنتهي إلى خابية الحق المعقّنة.

جلي أن اللغة، التي نعني، ليست قرع الشفاه. ولا هي وسيلة طينية في سبيل غاية وجدانية، قرع الشفاه أحد المظاهر فيها. اللغة، التي نعني، تبدأ في الوجدان وتمر على اللسان، وتنتهي في الخط. مصبها إذن أبعد من الشفاه. إذا أردنا أن نأخذها من معدنها الصافي كان علينا أن نستقيها من الوجدان ذاته. إذ هي وجدان. وأن نمتشقها من طباع النفس عينها. إذ هي نفس ذلك لأنها مركوزة في سوس الآدمية، لاحقت الإنسان، منذ أن كان، وهي تلاحقه إلى أن يذوب، في الحفرة الباردة.

لعل كلمة مصطلح، المشتقة من فعل اصطلح، هي التي ساعدت على تحريف اللغة، لقد جعلتنا نعتقد أن المصطلحات مجرد رموز إلى مسمياتها، وكنايات عنها وإشارات إليها. فهي وليدة الاختيار البارد الذي لا يبرره داع.

حياتي صارم. المصطلح هو الذي اتفق بعض الناس على أن يكون هكذا، فكان. وقد يتفقون على أن لا يكون هكذا، فلا يكون. مثل الاصطلاح مثل كلمة السر بين الجنود في ساحة الوعى. إذا تفشت اصطلاح على غيرها، دون أن يتزعزع الموقف. هذا الفهم الجامد للغة البشرية تحريف لحياتيتها، وتبريد لحرارتها. هي لا تكون عن طريق الاختيار الذي لا يبرره شيء، ولا عن طريق الحجج اللغوية. اللغة توقيف. والتوقيف غاية أصيلة، اللغة تستمد توقيفيتها من الحياة ذاتها، من العمل ذاته. ومنطق الحياة العاملة يعلو، ولا يعلاه، لأنه نقطة التقاء السماء بالأرض.

في ضوء هذا المبدأ لا يعود بإمكاننا أن نعتبر أن اللغة واسطة بل غاية، وجودها معاصر لوجود الإنسان، والإنسان غاية إنسانه. في هذا الضوء لا يعود بإمكاننا أيضاً أن نتواطأ، بأسلوب لغوي صرف على وضع المصطلحات، بل نترك الإنسان يعايشها بالفعل وهو ينطقها بالقول. حينئذ تأتي المفردات، بصيغتها اللفظية، امتداداً للحياة، فتكون عبارات مستقيمة. الضرورة، أو الحاجة، هي التي تدفع بالخطورة إلى أن تتكلمن^(١) بدوق سليم. المصطلحات تؤخذ من العمل ذاته. إذا لم يكن لها داع يدعو إليها من صميم الحياة، خرجت هذياناً تمجده النفس. منطقها منطق الأعماق في النفس، لا منطق ما تتفق عليه، لغة، المجامع اللغوية. من هنا كانت المصطلحات لغزاً من ألغاز الوجود الإنساني لا قاعدة من قواعد الصرف والنحو^(٢).

هذا الكلام يؤكد ما يلاحظه كثير من الباحثين في اللغة، من تعرض الإنسان لمرض «عبادة اللغة» أو «تأليه اللغة» وهو مرض يحسن وقعه في وجدان المصاب به، فيجد له فتنة في أعماق الوجدان. وقد أشرنا سابقاً إلى تردد ابن جني أمام فتنة اللغة العربية وسحر بلاغتها، حتى توقف فلم يقل

(١) تتكلمن: أي تصوير كلاماً، فيما يبدو. (ح. ظاظا).

(٢) الدكتور كمال يوسف الحاج: المرجع السابق.

لا بالاصطلاح ولا بالإلهام. وها نحن أولاء نجد هذا السحر قد استوعب هوى باحث آخر بعده بألف عام أو تزيد. فالدكتور كمال الحاج يبدو وكأنه لا يريد أن يجعل هناك فرقاً بين الفكر واللغة، فهما عنده جزء لا يتجزأ، وهما عنده الوجدان والإنسان وملتقى ما بين السماء والأرض وبهذه المثابة كان لا مفر له من القول بأن اللغة توقيفية، مع تعديل يناسب روح العصر، هو أنها توقيفية لا بوحى وإلهام من الخالق، وإنما بنوع من القدرية أو الحتمية الاجتماعية والحضارية، هي التي تجعل الفكر واللغة عند البشر شيئاً واحداً. ولو أبحث لنفسي أن أعدّل من لفظه لقلت إنه لا يريد إرجاع اللغة إلى التوقيف بقدر ما يريد إرجاعها إلى التوفيق، فالمتكلم يعمل فكره في شق الطريق نحو استخلاص الرمز الصوتي الملائم، وجدانياً، لمدلوله عنده، وهو في هذا، بنوع من الضرورة الحيوية، موفق إلى بغيته لا محالة. فإذا كان ذلك كذلك كان النقاش مع الدكتور كمال الحاج نقاشاً لفظياً بحتاً، ولكنه يلح في إضفاء نوع من الروحانية السرمدية على اللغة، وفي أن يرفعها إلى مستوى الميتافيزيقيات. وانطلاقاً من هذه العقيدة خالف الفيلسوف الفرنسي برجسون الذي كان على سحر أسلوبه يعتقد أن اللغة — منظوراً إليها على أنها ألفاظ تدلّ على معانٍ — هي في الواقع وحدات يتعامل بها البشر في نقل الأفكار، وهي مستقلة عن هذه الأفكار، وقليل ما تنجح في نقلها. يقول: «لقد تزعم برجسون المدرسة الإرهابية، التي قال ذووها بأن اللغة لا تعبر تماماً عن الوجدان، إذ هي دونه. نودي ببرجسون فيلسوفاً لتلك المدرسة لأنه قال بأن مركب اللغة قاصر عن أن يحوز مبسوط المعاني. المعاني جدّ بسيطة، ولها اتصال شديد بعضها ببعض، في حين أنه يوجد بين الكلمات فُرَج وفُضاءات ومسافات. ليس بمقدور لغة بشرية أن تقبض على فرش المعاني وتحيط بها. ليس بإمكان الجملة أن تنصب على الوجدانيات سوراً. إن الألفاظ جالبة للفساد. إذ بها يحصل سوء التفاهم بين الإنسان والإنسان، بها تتحور المشاعر فتأتي عكس منطوقها»^(١).

(١) كمال يوسف الحاج: في فلسفة اللغة، ص ٣٩.

كذلك نقل نفس المؤلف عن الأديب اللبناني ميخائيل نعيمة في كتابه الغربال رأياً يؤكد انفصال اللغة عن الفكر وقصورها الكبير إزاء متطلباته، إذ يقول: «الفكر كائن قبل اللغة، والعاطفة قبل الفكر. فهو الجوهر وهي القشور. ومن تعس البشرية أن تفقد مقدرة قراءة الأفكار والعواطف كما تنبت وتنمو في الأرواح، لا كما ينطق بها اللسان. وأن تراها بحاجة إلى إشارات وعلامات مختلفة، تصطلح عليها رموزاً لأفكارها وعواطفها. لأن تلك الإشارات والعلامات مهما دقَّتْ، ليست لتأتي إلا بأشباح ضئيلة مبهمة، من عالم الفكر المطلق والعاطفة الحرة، ولم تعرف الإنسانية بعد في كل تاريخها من تيسر له أن يسكب كل فكره أو يجسِّم كل عاطفته، في كلام أو خطوط أو ألوان أو ألحان. لذلك فهي أبداً تقرأ بين السطور. وما تقرأه بين السطور هو أفصح، وأبلغ وأعمق، وأوسع، مما تقرأه في السطور. وذلك لأنها تدرك بالفطرة أنه يستحيل على بشري كائن من كان - شاعراً أم كاتباً، رساماً أم نحّاتاً، مهندساً أو ملحناً - تأدية فكر أو عاطفة بكل ما فيها من تجعد وتلون»^(١).

وسنرى بمزيد من الوضوح والتفصيل، عندما نتحدث عن الصلات القائمة بين اللغة والمجتمع، أن عبادة اللغة القومية، وتقديسها وتأليهها، ترجع كلها في الحقيقة إلى عكس ما يظنه أمثال هذا المؤلف من سماوية اللغة و«جوانيتها». ترجع إلى أنها كما أشرنا آنفاً تراث، وخزانة معرفة، وعنوان قومية، ومظهر ترف فكري في كثير من الأحيان: عندما يتغنى بها الشعراء، ويخطب بها قادة الجماهير، وتترنم بها أجيال من المصلين والنساك، ومن العابثين من سمار الليالي.

والأصل في اللغة ليس هذا الترف، بل أن تعبر عن أمور عملية في حياة الإنسان اليومية. وريقها إلى مرتبة الفكر الفلسفي والعلمي والفني في أعلى

(١) كمال يوسف الحاج: في فلسفة اللغة، ص ٣٦، نقلاً عن ميخائيل نعيمة، الغربال، ص ١٠٢.

مفهومها، مرحلة تطور متأخرة تتبع الرقي الحضاري نفسه. أي أن الفكر، وهو ذلك السر البشري المتسامي المتطلع إلى الكمال وإلى التجريد، يتأثر باللغة ويؤثر فيها، آخذاً بيدها في رحلته الطويلة، يعينها ما استطاع على أن تتم معه الرحلة حتى نهايتها. وقد قلنا إن الكلام ظاهرة مرافقة للفكر، ولكنها ليست هي الفكر بعينه، ولا بأس من إيراد بعض أمثلة لألفاظ رفعها الفكر من طينة الحس إلى آفاق التجريد الفلسفي في مراحل تطور، هي بلا شك من صنع العقل البشري.

لنأخذ مثلاً كلمة «المروءة»: أصلها من كلمة المرء ومعناها الرجل المكتمل القوة الحاوي لأبرز المميزات التي يمتاز بها هذا الجنس. فبينما كلمة «الرجل» بمعناها الأصلي الحسي لا تدل إلا على الشخص الذي يمشي على رجلين لا على أربع، كانت لفظة المرء تدل، زيادة على ذلك، على ما في الرجل من صفات تدعو لاحترامه، كالقوة والهمة والحرية والشعور بالواجب، وقد استعملت في لغات سامية أخرى كالآرامية والسريانية بمعنى السيد أو الرجل العظيم، وكانت تنطق «مار»، فيقال مار جرجس، مار مينا، مار الياس... إلخ. ومن كلمة مرء في اللغة العربية اشتقت كلمة مروءة لمجموع صفات الرجولة التي تمثل السيادة، ومع الزمن وجدنا كلمة على نفس النمط هي كلمة «الأنوثة» التي يستعملها المحدثون لمجموع الصفات التي تميز الأنثى من البشر، من الرقة والجاذبية الجنسية ووضوح خلق الأمومة... إلخ. ونجد مثل ذلك في عديد من اللغات الأوروبية فكلمة (Virtue) الإنجليزية أو (Vertu) الفرنسية تعني المروءة، وهي مشتقة من اللفظ اللاتيني (Vir) الذي معناه الرجل المستكمل الرجولة، أي المرء.

ومن هذا القبيل كلمة «الروح»: فأصلها من نفس أصل لفظة الريح، وهو الهواء، ثم النفس الذي يردده الإنسان في صدره شهيقاً وزفيراً. وقد سمي كل ما تحمله الريح ويمكن أن يشمه الإنسان عند التنفس رائحة، وسميت الراحة كذلك لأن المتعب، أو المهموم المكروب، تضيق أنفاسه، فإذا استطاع أن يستنشق الهواء وأن

يتنفس الصعداء، صعد الهم مع هذا التنفس من صدره، فأحسّ بالراحة، وهكذا يكون قد استراح، ولما كانت الريح لا تلاحظ في هبوبها بقدر ما تلاحظ بوضوح في الأماكن الشاسعة المنبسطة سمي كل شيء واسع فيما بعد أَرْوَحَ، وسميت راحة اليد لاتساعها وانبساطها. ولما كان تردد الريح في صدر الإنسان هو أوضح العلامات على أنه حي لم يمِت، اشتق من ذلك لفظ الروح بمعنى سر الحياة المجرد المبهم في الكائن الحي، ولاشتقاق الروح من الريح جاء لفظها في القرآن الكريم مستعملاً مع الفعل نفخ في قوله تعالى: ﴿ونفخنا فيه مِنْ رُوحنا﴾.

وتذكرنا هذه الكلمة بمثل لها وهو «النفس»: فأصلها من مادة التنفس أي استنشاق الهواء شهيقاً وزفيراً؛ ومن ذلك استعملت النفس بمعنى الكائن المحتوي على سر الحياة، لأنه يتنفس، ثم سميت المرأة التي وضعت حملها نفساء، لأنه خرجت من بطنها نفس أخرى حية. كل ذلك تطور مع احتياجات الفكر للتعبير ولم ينزل وحياً من السماء على بني آدم دفعة واحدة.

ولفظ «الدين» بدورها سارت في طريق تطوري طويل، فأصل الدين الحق، وأمر الحاكم الواجب الطاعة. كذلك جاء لفظ «الدِّين» بالفتح اسماً للمال الواجب أدائه على الإنسان. أما الدِّين بالكسر فانتقل من معنى الحق وأمر الحاكم إلى معنى الطاعة، استشهد على ذلك أبوزيد القرشي في مقدمة «جمهرة أشعار العرب» بقول زهير بن أبي سلمى:

لَئِنْ حَلَلْتَ بَجَوْ فِي بَنِي أَسَدٍ فِي دِينِ عَمْرٍو وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُّ

«في دين عمرو» يعني في طاعة عمرو، وقال الله تعالى: ﴿ولا يدينون دين الحق﴾، أي لا يطيعون^(١). ثم انتقلت إلى معنى القانون ومنه سمي القاضي الديان، لأنه يقيم القانون بين الناس. ومن ذلك جرت العادة قديماً أن يسمى أي

(١) جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن الخطاب القرشي. طبع بولاق سنة ١٣٠٨ هـ

بلد فيه قاضٍ وشريعة ومحكمة «مدينة»^(١)، ولما هاجر النبي ﷺ إلى يثرب وأقام فيها أحكام الشريعة الإسلامية وقضى فيها بين الناس بالقرآن سميت المدينة، ومن هنا جاء اسم الدين بكسر الدال وهو مجموع الشرائع التي يقرُّ لها الناس بالطاعة، بعد أن يعتقدوا أنها من عند الله.

وذكرنا هذا بلفظة جارية على الألسنة هي «العقيدة»، فأصلها من الفعل الثلاثي عقد، وهو أن يربط الإنسان عقدة في حبل أو قطعة من النسيج، والعقيدة هي الشيء الثمين الذي يُصرُّ ويربط، ويعقد عليه الرباط حتى لا يضيع، وكذلك كان الرجل القديم يعقد خيطاً، أو خصلة من الشعر أو الصوف، على أصبعه ليتذكر شيئاً هاماً ولا ينساه، ثم استعملت كلمة العقيدة استعمالاً تجريدياً فلسفياً فيما استقر في قلب الإنسان من فكرة دينية أو سياسية أو اجتماعية أو غيرها يحرص عليها ويتعصب لها، وكأنها شيء ثمين عقد عليه قلبه حتى لا يضيع.

وكلمة «العقل»، كان معناها المادي كما أشار إليه الدكتور يوسف الحاج أنفأ هو ربط الدابة بحبل اسمه العقل، حتى لا تجمع أو تشرد، والعقال الذي يعقد على الرأس يسمى كذلك لأنه يعقل «الكوفية» أو «الحطة» فلا تنزلق عن الرأس، ثم نقل العقل من معناه الحسي وهو الربط والكبح إلى المعنى الفلسفي وهو القوة الخفية الكائنة في الإنسان التي تمسك النفس فلا تجمع ولا تضل.

ومن هذا القبيل كلمة «الأدب»، ونلاحظ أولاً أن الهمزة والهاء تتبادلان وتتخالفان كثيراً في اللغة مثل أراق وهراق، ومثل قول بعض العرب (أل فعلت كذا؟) أي هل. وأحياناً تتبادل الهاء وحرف المد في اللغة مثل «الدهر» المأخوذة من الفعل «دار»، لأنه «دورة الزمن»، «والذهب» من الفعل «ذاب» لأنه كان من أوائل المعادن التي «أذابها» الإنسان على النار، أي صهرها. وكما تتبادل الألف والهاء كذلك تتبادل الدال والذال، وهكذا تتقارب

(١) ولذلك استعملت كلمة مدينة في كثير من اللغات السامية - كالعبرية - والآرامية مثلاً - بمعنى الدولة أيضاً.

مادة (أدب) و (هذب). وأصل تهذيب الشيء مادياً هو تنعيمه وتقويمه وإزالة ما به من خشونة نائثة لا فائدة منها، ومثله (شذب)، وهو من نفس مادة هذب بزيادة الشين التي نجدها تزداد قياساً في بعض صيغ الفعل في اللغة الآرامية، وهي سامية من أخوات العربية، كما تزداد في بعض اللهجات العامية عند العرب في أفعال مستعملة مثل: (شقلب) بمعنى قلب رأساً على عقب، (شعلق) أي علّق بصعوبة، و(شعبط) من عبط الشيء أي تشبّث به واحتضنه، و(شخلع) أي تصرف بخلاعة... إلخ. وأصل التشذيب هو تهذيب غصن شجرة ليتخذ منه وتد أو عصا أو عمود لحيمة أو نحو ذلك، ثم انتقل التهذيب إلى معنى التنظيم الحسي أولاً، ثم النفسي بعد ذلك، وقام إلى جانب التهذيب التأديب بالمعنى الفكري فقط، وهو إزالة الجلافة والجهالة والرذيلة من الإنسان، وفي حديث «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، ويعود المعنى المادي إلى الظهور في كلمة (المأدبة) وهي الخوان الممدود المرتب المهذب المعدّ لاستقبال المدعوين. ثم جاء الأدب بمعنى هذا الكلام الفني الذي لا يصدر إلا عن النفوس التي هذبته الثقافة وصقلتها المعرفة، ولا يحس به ويقدره إلا من ارتفع عن حضيض الجلافة وأصبح مهذباً، وهو في ذاته الكلام المرتب المنمق الذي اختفت منه الخشونات والفضول وأصبح كأنه في النعومة والاستقامة والجمال الغصن المقوم المشذب. هذا أيضاً تطور طويل ومعقد ساير الفكر وواكب تقدم المجتمع.

وهناك كلمة «الشرف»: وأصله الارتفاع والنظر إلى الناس والأشياء من فوق. وسميت «الشُرْفة» في البيت أو القصر كذلك لارتفاعها ولكون الواقف فيها يشرف، أي يطل على ما تحتها، وانتقل الإشراف مع المحدثين خاصة من هذا المعنى الحسي إلى المعنى التجريدي الفكري. كالإشراف على البحوث العلمية أو التلاميذ في المدارس، أو الإشراف الاجتماعي ونحوهما. ثم تجرد المعنى أكثر فأكثر، حتى أصبح الشرف هو مجموع صفات، بعضها بالنسب وبعضها بالحسب، تجعل الإنسان، معنوياً، في منزلة أرفع من غيره.

وحتى «الجنة»: كانت في الأصل تعني البستان الذي يجري فيه الماء

وتثبت فيه ألوان من الأشجار والنبات، قال تعالى: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ ثم استعمل اسماً لدار النعيم المقيم التي يحظى بها في الآخرة الذين رضي الله عنهم.

أما «جهنم»: فأصلها أشد غرابة، إذ ترجع إلى لفظتين ساميتين قديمتين هما «جي» (بالكسرة الممالة) ومعناها الوادي، ولعل الفعل «جاء» في اللغة العربية كان معناه الأصلي هبط إلى الوادي أو مشى في الوادي، والعنصر الثاني في تركيب هذه الكلمة هو لفظة «هنم» (بكسر الهاء وضم النون المشددة) وهو اسم علم لقبيلة قديمة كانت تعيش في فلسطين قبل نزوح العبريين إليها، وكانت تعبد إلهاً اسمه «ملك» (بضممتين) وكان من طقوسهم أن يقدموا لهذا الإله قربانين من الأطفال الصغار يذبحونهم ويحرقونهم؛ وكان لهم وادٍ في جنوب مدينة القدس يقومون فيه بهذه الطقوس، وكان يسمى باللغة الكنعانية والعبرية «جي بني هنم» أو «جي هنم» وكانت صورته في الأذهان هي صورة إزهاق الأرواح، وإراقة الدماء، والنيران الملتهبة، والجثث المحترقة، فاستعيرت هذه الصورة وأصبحت «جهنم» علماً على دار العذاب في الآخرة، حيث يحترق بنارها كل من حاق بهم غضب الله.

وأخيراً نجد مثلاً لتطور الدلالة مع تطور المجتمع في كلمتي «المعروف والمنكر» فمعناها التجريدي هو الخير والشر، أما المعنى الحسي المادي القديم، فالمعروف ما يعرفه الإنسان والمنكر ما لا يعرفه. وفي حياة العشائر البدائية كان الإنسان لا يعرف إلا أهله وذوي قرابته وبني قبيلته، ثم حيواناته الأليفة المستأنسة، وكان يجب ذلك كله ويطمئن إليه. أما من عداهم فكان يخاف منهم، يستوي في ذلك الإنسان والحيوان، ولا يطمئن إليهم بل يعتبرهم أعداء يجب عليه أن يطاردهم ويقاتلهم. وعلى ذلك فقد كان يرى فيما يعرف الثقة والراحة والأمن والخير، وفيما لا يعرف المخاوف والمشاكل والخطر والشر. ومن هنا نقل الكلمتين إلى المعنى الفلسفي التجريدي، فأصبح المعروف والمنكر مرادفين في اللغة للخير والشر تقريباً.

من هذه الأمثلة يتبين أن كل ما في اللغة من تنوع في الاشتقاق، أو توسيع أو تضيق في الدلالة، أو نقل لها من عالم المحسوسات إلى عالم المعاني المجردة، كل ذلك من صنع البشر، وهو نتيجة طبيعية لتطور المجتمعات ومع ذلك فلأن اللغة كانت أول مخلوقات الفكر، ولأنها لم تنفصل عنه لحظة واحدة، وهو لم يستغن عنها على مدى تاريخ الإنسانية الطويل، فقد امتزجت به، حتى إن إدوارد سابير يقول: إننا نفكر دائماً من خلال ألفاظ نستحضرها في أذهاننا، ويؤكد ذلك عندما يتساءل: هل نظل دائماً على أهبة الموت في سبيل (الحرية) والكفاح من أجل (المثل الأعلى) إذا فرضنا أن معنى هاتين اللفظتين لم يقترن في نفوسنا باسم كل واحدة منها^(١)؟.

ويزيد نفس العالم دليلاً آخر على لزوم اللغة للفكر، وهو عمومها وشيوعها في النوع الإنساني على اختلاف أجناسه وألوانه ودرجاته في الحضارة، وانعدامها فيما سواه من المخلوقات، فإذا ما تذكرنا أن الإنسان هو المخلوق الوحيد العاقل المفكر، تبين لنا إلى أي حد ترتبط اللغة بالفكر وإلى أي حد كان المعلم الأول (أرسطو) دقيقاً عندما عرّف الإنسان بأنه «الحيوان الناطق» وشرح الناطق بأنه المفكر.

وفي عالم الفكر الاشتراكي يقول كارل ماركس: «اللغة هي الواقع المباشر للفكر»، أي أن جوهر الفكرة يعلن عن نفسه بواسطة الألفاظ. ويقول مرة أخرى: لا وجود للأفكار خارج نطاق اللغة، أي أن الاتصال الأبدي بين الفكر واللغة أوجد حالة اعتماد كلي من الفكر على اللغة، بحيث أصبح الإنسان غير قادر على جمع شتات الفكر إلا داخل أسوار اللغة. وتتردد عند الباحثين في علم اللغة وفقه اللغة في البلاد الشيوعية عبارة تلخص ذلك: هي أن اللغة هي المادة الطبيعية للفكر. ويعنون بذلك أن الفكر إنما يتبلور في قوالب من الألفاظ^(٢).

(١) سابير: نفس المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) Staline: A Propos du Marxisme en Linguistique, Paris 1951.

وبتتبع الآراء المختلفة حول ارتباط الفكر باللغة نجد أن الخلاف يكاد يكون لفظياً بين علماء الشرق والغرب. يقول الباحث البلجيكي أوسيب - لورييه^(١) في كتابه «الكلام ومرض الثرثرة»: «في بداية الإنسان كان الوعي والإحساس والفكر والكلام شيئاً واحداً بصورة أساسية، ودون أن نوغل في الذهاب بعيداً نجد أن ارتباط الكلام بالفكر كان مشكلة طرحت أمام العقل الأغريقي: ففي اللغة اليونانية كانت كلمة لوغوس (Logos) تعبر عن الصلات الحميمة بين الكلام والفكر، وما يعتقد الأغريقي حول ذلك. فهذه الكلمة لا تفصل بين الفكر واللغة. وفي مذهب الفلاسفة الرواقيين لم يكن هناك فاصل بين الفكرة والكلام الذي يعبر عن هذه الفكرة. وكان اليونان يعتقدون أن الكلام بدون فكرة مستحيل كاستحالة التفكير بدون كلام. وكل كلمة لا تعبر عن فكرة محدودة كانت بالنسبة لهم ضوضاء لا قيمة لها. لدرجة أن هذا الباحث يقول: إن مفهوم كلمة لوغوس عند اليونان تستحيل ترجمته، لشدة الارتباط الذي يتضمنه المعنى بين ما هو فكر وما هو لفظ، من هنا جاءت الصعوبة التي يجدها الباحث في اللفظ لأنه مضطر باستمرار إلى البقاء في عالم المعاني وفي محيط الدلالات، لأن المتكلم يستعمل هذه الوسيلة ليخرج بها شيئاً داخلياً هو الفكرة، ولكن هذا نفسه دليل قاطع على أن اللفظ شيء والفكر شيء آخر.



اللغة والمجتمع

تبين لنا في ثنايا حديثنا عن نشأة الكلام، وعن صلته بالفكر أن اللغة ظاهرة فكرية إنسانية لا يمكن أن تنشأ إلا في مجتمع يحتاج أفرادَه إلى التعامل بعضهم مع بعض. وينقلنا هذا إلى أسطورة رواها المؤرخ اليوناني هيرودوت (جزء ٢، فصل ٢) ونقلها عنه اللغوي الفرنسي المعاصر فندريس في كتابه «الكلام». يقول: إن فرعون مصر بسماتيك أراد أن يعرف أي الشعبين أقدم، المصريين أم اليونان، فأمر بإحضار طفلين بمجرد ولادتهما، ووضعهما معاً مع تحريم النطق بكلام من أية لغة أمامهما. وبعد بضعة أشهر من بداية التجربة سُمع الطفلان يقولان «بيكوس» وهي كلمة يونانية، في لهجة اليونان الفريجيّين، معناها: «خبز». فاستنتج فرعون أن الفريجية هي أقدم لغات العالم^(١).

وواضح أن القصة كلها مختلفة وأنها تنطلق من نقطة بدء هي أن الإنسان عند ولادته تأتيه اللغة إلهاماً. ومن الناحية العلمية نستطيع أن نؤكد أن فرعون مصر ولو أنه عزل طفلاً واحداً لا طفلين، ولو أن هذا الطفل لم يسمع من البيئة المحيطة به كلمة واحدة، لما استطاع أن يتكلم بأية لغة. ولكن الأسطورة تحدثنا عن طفلين. ولو أن التجربة قد وقعت، لكان من المحتمل بعد سنين طويلة من تعايش الطفلين معاً دون سماع أي كلام من الخارج، أن يبتدعا لغة جديدة يتفاهمان بها لا تشبه المصرية ولا الفريجية في شيء. والذي يؤكد ذلك عملياً وتاريخياً هو ما يسمى في جغرافية اللغات بالجزر اللغوية، وهي مجتمعات محدودة

العدد نسبياً، انعزلت عن طوفان الكتل اللغوية الكبيرة المحيطة بها، فبقيت وحدات لغوية مستقلة. من ذلك مثلاً اللغة الألبانية في العصر الحديث، ولغة أخرى كانت في الشمال الشرقي لإيطاليا، في مقابل إقليم ألبانيا، هي اللغة الأثرورية، التي تكلم بها وكتبها شعب إيطالي غير لاتيني هو الأتروسك. ومن تلك الجزر اللغوية في المجتمعات المعاصرة، لغة الباسك في فرنسا، ولغة النوبة أو بالأحرى لغات النوبة في مصر والسودان، واللغة السقطرية التي يتكلمها العرب من أهل جزيرة سقطرى في المحيط الهندي في مواجهة عدن، وهي لغة، حسب تسجيل المستشرق «لسلاو» لها، تعتبر مزيجاً من العربية الفصحى والسبئية القديمة والسريانية أيضاً، إلى جانب نسب صغيرة دخلت في المزيج من لغات أخرى^(١). وتعتبر رومانيا جزيرة لغوية لاتينية قائمة في وسط العالم اللغوي السلافي، وهذا هو ما برر الإصرار على ربطها بالتراث الروماني اللاتيني وتسميتها رومانيا. وليس ثمة شك في أن البحث في الظروف الاقتصادية والإقليمية وفي طبيعة الأرض والسكان في هذه الجزر اللغوية هو الطريق الوحيد الذي يوصلنا إلى كشف أسرار هذا التفرد اللغوي، وبقاء المجتمع الصغير جزيرة متميزة في خضم لغات أخرى بل لسنا مضطرين إلى أن نذهب بعيداً لتلمس أمثلة ذلك. إذ إنه على مستوى اللغة الواحدة، أو حتى اللهجة الواحدة، تظهر جزر متميزة لظروف اجتماعية أو اقتصادية معينة، فعندنا لهجة واحة سيوة التي يمتاز بها أهلها وتكاد لا تفهم بين غيرهم، وعندنا كثير من القرى في أقاليم مصر تميزها لهجة معينة يعرف بها أهلها مهما ابتعدوا عن مواطنهم، كالذين ينطقون الجيم دالاً في الصعيد فإذا ذكروا مدينة جرجا نطقوها «دردا»، وهناك الذين يقولون على نطق القاف العربية الفصحى في لهجتهم العامية، تسمعونهم في ضواحي رشيد، وتكرر أمثال هذه الملاحظة إذا تجولنا في العالم العربي من الخليج إلى المحيط، بل تتكرر في شتى لغات العالم بفعل ظروف محلية تعطي للنطق وطريقة التفاهم تلويناً خاصاً في جهات معينة.

W. Leslau: Lexique Soqotri; Paris, 1938.

(١)

ولأن اللغة من خلق الفكر، ولأنها خلقت خصيصاً لتيسير التبادل المادي والفكري مع المجتمع، ولأن المجتمع دائم التطور، فاللغة التي تسايره دائمة التطور أيضاً، وهي صورة صادقة لحضارته، فالمعجم اللغوي لأمة ما، هو في نفس الوقت صورة مخلصة لما تعرفه هذه الأمة في حياتها اليومية، وكيانها الاقتصادي والسياسي، وسلوكها الديني والأخلاقي، وتقدمها العلمي والفني. وانطلاقاً من هذه الفكرة يقول اللغوي الفرنسي أرسين دارمستير^(١): إن اللغة، أية لغة كانت وفي أية فترة كانت من وجودها، في تطور دائم مستمر، يتنازعها في تطورها هذا عاملان متناقضان تجاهد اللغة في الاحتفاظ بتوازنها بينهما، وبقدر احتفاظها بهذا التوازن يكتب لها طول العمر بين الناطقين بها، وهذان العاملان هما عامل المحافظة من ناحية، وعامل التطور من ناحية أخرى.

أما فيما يتصل بعامل المحافظة، فإن اللغة بعد أن تصبح قادرة على أداء وظيفتها في التفاهم بين أبناء المجتمع الواحد، تتحول في ذلك المجتمع نفسه إلى وسيلة من وسائل الترف، مثلها في ذلك مثل الملابس والأطعمة التي بمجرد خروجها من حيز الوقاية ضد تقلبات الجو، أو خطر الجوع، تصبح عالماً حافلاً بإمكانيات الأبهة، وامتياز طبقة من الناس على طبقة أخرى أو فرد منهم على غيره، فالأزياء الغالية الثمن، الكثيرة الزينة والحلي النفيسة والفراء الثمين، والأحذية الأنيقة، والقبعات الفاخرة، والمنسوجات الفخمة، كل ذلك قد خرج عن الاستجابة إلى مطالب ضرورية، ليكون فناً يُقصد لذاته، لمجرد المتعة، وكذلك ألوان الطعام والشراب التي لم تعد قيمتها الغذائية في الحماية من الموت جوعاً تدخل في الحساب إلا نادراً. وفي الذيل بعد جميع الاعتبارات، التي أهمها توفير اللذة الكاملة في المذاق، والتنعم عند النظر إلى المائدة، وربما نُظر أيضاً إلى ألوان من النشوة كالتّي يقصد إليها بأنواع الخمور التي يشربها البعض مع الطعام.

كذلك اللغة، مع تقدم الحضارة وتبلور التقاليد وتكوّن الذوق الجمالي،

Arsène Darmeseter: la vie des mots ; Paris, Delagrave 1932 pp. 3-27

(١)

وحرص الآباء على أن يكون أبنائهم صورة منهم، وصورة محسنة منقحة منقاة من الشوائب، كل ذلك أوجد لدى البشر إحساساً جمالياً بحثاً باللغة، بحيث لم يعد الإنسان يكتفي منها بمجرد الفهم والإفهام، بل راح يتلذذ بالجرس الحسن والصيغة الجميلة، والتعبير المحكم، والصورة البيانية الرائعة، وأخذ يتذوق ذلك، ويجذب إليه انتباه أبنائه ومن يهيم أمرهم من ذويه، كما أقام الأسواق للشعر والأدب والخطابة، وأعطى المتفنين في استعمال اللغة فرصاً نادرة في قيادة المجتمع، وحياسة الشرف والمجد والثروة.

وفي بعض اللغات توج ذلك كله نزول كتب مقدسة، أو ظهور نصوص دينية لها في قلوب المؤمنين بها جلاله وهيبته. وبسرعة أصبحت هذه النصوص نماذج لغوية، ومثلاً عالياً، وحواجز في وجه التطور اللغوي الطبيعي في كثير من الأحيان. فنحن نعلم مثلاً أن اللغة اللاتينية التي ماتت في أوروبا كلغة للتخاطب بعد سقوط الدولة الرومانية بقليل، ظلت مع ذلك لغة العلم في أوروبا كلها قروناً طويلة بعد هذا التاريخ، لأن المثقفين هناك كانوا يرون فيها لغة الكنيسة ولغة البابوات ولغة الطقوس والصلوات في الكنيسة الكاثوليكية.

وعند الأمة العربية عرضت المشكلة بشكل آخر لعله أشد قسوة في ظاهره ولكنه مع إمعان النظر كان أقل تقييداً للغة العربية، ذلك أن القرآن الكريم لم يكن نصاً مقدساً وكتاباً دينياً عند العرب فحسب، ولكنه كان معجزة، وكان معجزة بلاغية، فإذا كان المسيحي الكاثوليكي يرى في قرارة نفسه أن لغة الكتاب المقدس في ترجمته اللاتينية «الفولجاتا» التي كتبها القديس جيروم تعتبر غطاءً يجب تقليده، فإن المسلم في قرارة نفسه كان يؤمن بأن القرآن لا يمكن تقليده ولو اجتمعت على ذلك الإنس والجن، فهو معجزة الرسول الكبرى، وبالتالي خفت قيوده اللغوية على الكتاب والمؤلفين، واستطاعوا أن يبنوا حضارتهم الفكرية على تطور لغوي أكثر مرونة وأقل تعنتاً. بل إن الإسلام الذي جاء للعربي والعجمي على السواء قد وجد من مفكره وفلاسفته من يسمح

بممارسة العبادة في حوزته بحدٍ أدنى من اللغة العربية، على أن يستمر المسلم في تفكيره من بعد بلغته القومية، فظهر من كبار مفكري الإسلام من كتب بالفارسية أو التركية أو الأوردو (لغة الباكستان) أو غيرها.

أما اليهود فكانت مصيبتهم في كتابهم، حسب النظرة التي نظروا بها إليه، سبباً في موت اللغة العبرية. وكانوا يعتقدون أن اللغة العبرية، قبل أن تنزل بها التوراة، كانت لغة الرب، ولغة الملائكة، وأن حروفها الإثني والعشرين قد حفرها الله بيده في كبد السماء قبل أن يخلق شيئاً على الأرض. وتزمتوا جداً في ربطها بالدين، حتى فشلت كل المحاولات التي قام بها المصلحون من أنبيائهم لجعل الشريعة الموسوية شريعة عالمية، وذهبت دعوة أرمياء وأشعيا وغيرهما أدراج الرياح. وعندما بُعث المسيح كانت اللغة العبرية قد ماتت فعلاً على ألسنة الناطقين وحلت محلها اللغة الآرامية. أما إحيائها مع الصهيونية المعاصرة فقد وقفت من ورائه العصبية العنصرية المتحفزة.

فاعمل المحافظة إذن كان دائماً كابحاً للتطور اللغوي، لأنه ينطلق من فكرة أساسية وهي أن اللغة تراثٌ قومي، وقد يكون دينياً أيضاً، تقتضي الأمانة الحفاظ عليه كما كان على عهد السلف.

وأما عامل التطور فهو عامل ثوري متمرد على الجمود، تقف من ورائه الحضارة قوة دافعة. فاختلاط الناس بعضهم ببعض، والرحلة من مكان إلى آخر ووجود عناصر بشرية جديدة تدخل على مجموعة مستقرة فتؤثر في نطقها، والهجرة الجماعية من البيئة الأصلية إلى أمصار بعيدة أخرى، وتعاقب الأزمان والأجيال، مع وجود الفارق في دقة التلقي عن طريق السمع، وعن طريق المحاكاة بين الأبناء وآبائهم، كل ذلك يحدث عاهات عميقة في شكل اللغة بل يظهر فيها لهجاتٍ تتنوع وتنفصل عن اللغة الأم. مَنْ يدري مثلاً كيف كانت كلمة «شمس» تنطق في اللغة السامية الأولى؟ بشينين معجمتين، أم بسينين مهملتين، أم بشين وسين، أم العكس؟ هذا تحريف صوتي يتكرر بشتى الصور في خلال

تطور اللغة. أما التطور النحوي، بالتوسع في القياس ومحاولة تطبيقه، حيث لم يكن مطبقاً من قبل، فظاهرة شائعة في جميع اللغات. من ذلك إجراء حركات الإعراب على المضاف في اللغة العربية بحيث نقول: هذا كتابُ زيد، (بضم الباء) وقرأت كتابَ زيد (بفتح الباء)، ونظرت في كتابَ زيد، (بكسر الباء). هذا الإعراب لم يكن على الأرجح إلا استمراراً في عملية آلية هي تغيير الحركة في آخر الكلمة بتغير التراكيب. وبمقارنة العربية بغيرها من اللغات السامية نجد أن قواعد الإضافة في العبرية والآرامية ثم في الآشورية والبابلية قبلها تؤكد أن المراحل الأولى للغة الساميين لم تكن تعرب المضاف. وما زال نحاة العرب يقولون صراحة إن المضاف والمضاف إليه في حكم اللفظة الواحدة. وقد عثر على نقش في جزيرة العرب يرجع إلى عهد الرسول وقد وردت فيه صيغة «علي بن أبوطالب»، ذكره كراوس وحيد الله في كتابها «وثائق سياسية من عهد النبوة والخلفاء الراشدين»، كما أن النحاة أشاروا إلى نوع آخر من التوسع الآلي في القياس النحوي يسمونه الإعراب على المجاورة، كقولهم: هذا جُحْرُ ضُبٍ خرب، بجر خرب لمجاورتها لضب مع أنها صفة لجحر مرفوعة.

فالتغيير الصوتي الذي يطرأ على نطق بعض الألفاظ والصيغ، والتوسع النحوي، الذي يظهر بالتدرج، إن هي إلا مظاهر لتطور حيوي في اللغة على ألسنة الناطقين، تضاف إليها مظاهر أوسع وأهم وهي ظاهرة الابتداع في اللغة. وهو أمر لا مفر منه مع تعقد حياة البشر وتقدم الحضارة، ويكون ذلك بإحداث ألفاظ جديدة، أو إعطاء معانٍ جديدة لألفاظ قديمة، أو استعارة ألفاظ من لغات أخرى. وظاهرة الابتداع هذه هي التي أوجدت في فقه اللغات فكرة المعاجم التاريخية، التي يحدد فيها بقدر المستطاع مولد كل كلمة في اللغة وتاريخ ذلك، كما يبين بالشواهد متدرجة مع مر العصور، تغير الدلالات وظهور المشتقات المختلفة من مادة الأصل، ويقابل ذلك التوسع النحوي السالف الذكر مبحث من مباحث فقه اللغة أيضاً، هو النحو التاريخي، أو تاريخ التطور النحوي، ويقابلهما في دراسة الأصوات كثير من الظواهر الصرفية، ولا سيما ما اتصل منها

بالإبدال والإدغام والقلب والترقيق والتفخيم وما إليها. ولعل الابتداع الذي هو الصق الظواهر بنمو الثروة اللفظية في اللغة من أوضح الشواهد على خضوع اللغة لنواميس الحضارة والاجتماع.

وسنسوق بعض أمثلة هذا النمو لنرى بوضوح كيف كانت اللغة العربية تسير في نفس الركب الذي سارت فيه الحضارة.

أمثلة من الألفاظ المبتدعة :

المثذبة : أصل المثذبة التي جاءت منها هذه الكلمة هو الأذن، عضو السمع المعروف، والأذان في الأصل هو الإعلان والإعلام، قال الفرزدق :

وحتى علا في سور كل مدينة منادٍ ينادي فوقها بأذان

وواضح أن معناه هنا الإعلان والنداء. وقال اللغويون : والتأذين مخصوص في النداء إلى الصلاة والإعلام بوقتها، وقد أذن الرجل تأذينا وأذانا وأذن يؤذن إيدانا. كل هذا ملحوظ فيه المجاهرة بدعوة صوتية تصل إلى الأذن. أما المثذبة فهي موضع الأذان للصلاة، أو المنارة - كما في الصحاح، قال أبو زيد: يقال للمنارة المثذبة والمؤذنة. وقال اللحياني هي المنارة، يعني الصومعة، وأما قولهم «المأذنة» فلهذا عامية. فالكلمة إذن من مصطلحات العمارة الإسلامية، تطلق اسماً على هذا البرج المرتفع فوق المسجد لتنتقل منه الدعوة إلى الصلاة. ولم نجد شاهداً على معرفة العرب لهذه الكلمة، لا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام، ومع ذلك فقد أخذت مكانها في المعجم العربي وتمتعت بنطقين فصيحين، وثالث عامي كما رأينا، لشدة ارتباطها بالنمط الفكري والحضاري للأمة الإسلامية.

المقذاف : هو تلك الخشبة الطويلة المفلطة من طرفها الغائص في الماء، التي تستعمل في دفع السفن والقوارب وكأنها تقذفها إلى الأمام، أو لأنها تقذف الماء أثناء تحريكها، أو لأنها تسبب السير السريع، من قولهم : ناقة قاذف وقذاف وقذوف وقُذف، وهي التي تتقدم من سرعتها وترمي بنفسها أمام الإبل في

سيرها ويقال له أيضاً المَقْدَف. وقد ورد فيه أيضاً لفظ مجذاف من قول العرب جذف الطائر أي أسرع بجناحيه، وجاءت هذه المادة كلها بالبدال المهملة كذلك، إلا أن شارح القاموس قد ذكر «مجداف السفينة» وروي عن الجوهري أن ابن دريد قال هو بالبدال والذال جميعاً، لغتان فصيحتان، وفي «المحكم»: مجداف السفينة: خشبة في رأسها لوح عريض يدفع بها، مشتق من جذف الطائر، وقال أبو عمرو: جذف الطائر، وجذف الملاح بالمجداف وهو المِرْدِي والمَقْدَف والمَقْدَاف. وإن كنا نلاحظ أن صاحب «القاموس» ذكر مجذافة السفينة، وعقب عليه الشارح بقوله هكذا في النسخ والأولى مجذاف. وقال الشرتوني في أقرب الموارد: جَذَفَ الطائر - مثل جلس - طار وهو مقصوص كأنه يَرُدُّ جناحيه إلى خلفه. وواضح من تعدد أشكال النطق في هذه الكلمة، ومن محاولة اللغويين ربطها بأفعال تخص حركة الإبل أو الطيور أنها مبتدعة، وهذا ليس بعجيب؛ فصلة العرب بالملاحة البحرية، فيما عدا بعض القبائل المقيمة في الخليج، لم تكن أصيلة في حضارتهم، ولا قديمة العهد عندهم.

المِدْخَنَة: الدخان هو العُثَان، أي ما ينبعث من النار مسوداً متصاعداً، وورد فيه على وزن غُرَاب وعلى وزن جَبَل، ومنه قول العرب: هدنة على دَخَن، كما تنطق بالتشديد على وزن رُمَان. أمّا المدخنة فهي اسم مبتدع يطلق على ما يخرج منه الدخان من أنبوب أو كُوَّة، ونص الشرتوني في «أقرب الموارد» على أنها بفتح الميم وأنها مولدة، أما المِدْخَنَة بكسر الميم فهي المِجْمَرَة، أي الموقد الذي يهيا فيه الجمر، وجمعها مداخن، ولم نجد شاهداً في كلام العرب الأقدمين على المدخنة لا بالفتح ولا بالكسر، والظاهر أن العرب كانت تستعمل كلمة أخرى هي الداخنة، نقل ابن منظور في لسان العرب عن التهذيب: الداخنة: كُوى فيها أَرْدَبَات تتخذ على المقالي والآتونات، وأنشد:

كَمِثْل الدواخِنِ فوق الارينا.

أمثلة من الألفاظ المنقولة إلى معنى جديد :

المُدفع : هو آلة الحرب التي تدفع القذيفة بعيداً بقوة انفجار البارود أو غيره من المتفجرات . وهذه الكلمة المنقولة الحديثة أجمل وأكثر عروبة من الكلمة القديمة «منجنيق» أو «منجنوق» ، للآلة التي تقذف الحجارة في الحروب القديمة ، والتي ظن بعض أصحاب المعاجم أنها فارسية ، قال شهاب الدين أحمد الخفاجي في كتابه «شفاء الغليل ، في ما في كلام العرب الدخيل» : منجنيق معرب «من جه نيق» أي ما أجودني ، أو أنا شيء جيدٌ ، لأنه لا يجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية ، غير اسم صوت ؛ بكسر الميم كما في القاموس ، وضبطه أبو منصور بفتحها ، آلة لرمي الحجارة كالمنجنوق ، ومنجنيق لغات فيه ، معربة . وقيل الأقرب أنه معرب «منجل نيك» ومنجل ما يفعل بالحيل . والذي نراه هو رأي الأب رفائيل نخلة اليسوعي في كتابه : «غرائب اللغة العربية» من أنه من أصل يوناني هو (منجنيكون Manganikon) ، وواضح أن الكلمة المولدة «مدفع» أخف على الألسنة ، كما أنها أقرب إلى سليقة اللغة ، ولذلك انتشرت بين الخاصة والعامة .

القطار : كان عند العرب مجموعة من الجمال يسير الواحد منها وراء الآخر وقد قُرِب بعضها إلى بعض ، يقال جاءت الإبل قِطاراً بالكسر أي مقطورة . واستعمل القطار لكل سرب من الكائنات الحية يسير الواحد منهم وراء الآخر ، حتى قيل قطار النمل قال أبو النجم العجلي :

وأنحَتْ من حَرْشاءِ فلجٍ خَرْدُلُهُ وأقبل النمل قِطاراً تَنْقُلُهُ

ونُقِلَ اللفظ في العصر الحديث للدلالة على الصف من مركبات السكة الحديد المربوطة بعضها في بعض والمقطورة بقاطرة . وهكذا يوصلنا القطار المولد إلى القاطرة والمقطورة معاً .

الدراجة : اسم مولد للناقلة ذات العجلتين الخفيفتين . لأن راكبها يحرك رجله على دولابها الأوسط المسنن بدلاً كأنه صاعد على درج .

السيارة: من الفعل سار يسير، وهي صيغة مبالغة استعملت قديماً بمعنى القافلة، قال تعالى في سورة يوسف ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون﴾؛ وواضح أن السيارة بمعنى القافلة اسم جمع يدل على مجموع المسافرين في القافلة. ويزداد ذلك وضوحاً في قوله تعالى في نفس السورة: ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيّارة إن كنتم فاعلين﴾ ونظراً لوجود كلمة القافلة فقد نقل المحدثون الكلمة إلى معنى عربة (الأوتومبيل).

الهاتف: يستعمل في اللغة الحديثة بمعنى (التليفون). والفعل هتف معناه صاح، والهاتف في الأساطير العربية القديمة نوع من الجن يُسمع صوته ولا يُرى شخصه. ومن هنا جاء في ذهن المحدثين وجه الشبه بينه وبين مَنْ يتحدث مع غيره بهذه الآلة فيسمعه ولا يراه.

الطيارة: من الفعل طار يطير، وهي صيغة مبالغة نقلت في العصر الحديث للدلالة على آلة النقل الجوي المعروفة، وتستعمل أيضاً لفظة الطائرة بصيغة اسم الفاعل البسيطة. ونلاحظ أن «السيارة» انتشرت على ألسنة العوام بنسبة أقل من الطيارة أو الطائرة، إذ ما يزال في العالم العربي من يقول (أوتومبيل) صحيحة أو محرفة، بينما لا يعرف العرب في حديثهم العادي اسماً للمركبة الهوائية غير الطيارة أو الطائرة، ولا تستعمل أسماؤها باللغات الأجنبية على الإطلاق.

الإذاعة: وهي إرسال الصوت على أمواج الأثير ليسمع من أجهزة استقبال في أماكن بعيدة عن مصدر الصوت نفسه. والأصل أنه مشتق من الفعل ذاع بمعنى شاع وانتشر وعرفه الخاص والعام، القريب والبعيد، يقال شاع وذاع وملاً الأسماع. ثم استعملت الإذاعة حديثاً في نقل الصوت بالراديو، وجاء منه المذيع لجهاز الاستقبال، وكان الأولى إطلاقه على جهاز الإرسال، كما اشتق من نفس المادة المذيع وهو الموكل بتقديم البرامج في دار الإذاعة، ولا أقول محطة الإذاعة، لأن المحطة تقتضي السفر قدوماً أو رحيلاً، حيث يحط المسافرون

أحماهم وحيث تحط الطيور المهاجرة لتستريح ، فقد تصدق المحطة على القطار أو السيارة أما الإذاعة فلا .

أمثلة من الألفاظ المأخوذة من لغة أخرى :

الصراط : وأصله الكلمة اللاتينية (ستراتا strata) ، وهو الطريق الواسع الكبير المستقيم المعبد ، وقد أمدَّت الكلمة اللاتينية لغات أخرى ، ففي الإنجليزية (Streat) ، والألمانية (Strasse) ، والإيطالية (Strada) . . . إلخ .

الخنثوق : بالفارسية «خنده» وكذلك «كنده» بمعنى المحفور .

الأسفنت : قالوا إنه أجود الخمر ، وهو المتخذ من عصير العنب المطيب . وأصله يوناني هو (Apsinthion) ، وهو نوع من النبات كانت الخمر تُعطر به . وهذه الكلمة الأخيرة قد دخلت أيضاً إلى اللغة العربية للدلالة على هذا النبات العطري بلفظ «أفستين» ، ذكره داوود الأنطاكي في «التذكرة» وجعل من خصائصه أنه يمنع السكر ، فلعله كان يضاف إلى الخمر لكسر حدتها .

السكر : وهو المادة الحلوة المعروفة ويكاد يكون اسمه هذا عالمياً ، فلم أجد فيما اطلعت عليه من أسماء في ست وعشرين لغة مختلفة^(١) لفظاً يخرج عن هذا الأصل إلا في اليابانية حيث يسمونه «ساتو» ، وفي الأندونيسية حيث توجد كلمة «جولا» إلى جانب كلمة سكر . ويبدو أنه من أصل هندي وأنه يرجع إلى السنسكريتية القديمة حيث توجد كلمة «سرkra» وكان معناها الأصلي حبيبات الرمل لأنهم كانوا يستعملون السكر مسحوقاً كحبيبات الرمل^(٢) .

الشاي : ويكاد هو أيضاً يكون اسماً عالمياً مع تحريفات صوتية طفيفة . فهو في الفارسية والتركية «تشاي» وأصله من اللغة الصينية واللفظة الدالة عليه فيها هي (تشا Tchaa) .

Peter M. Bergman: the concise dictionary of 26 languages, New York 1968 .

(١)

E. Littré: dictionnaire de la langue Française, Paris 1833.

(٢)

الليمون: اختلف فيه هل هو معرّب من الفارسية أو من اليونانية، والأرجح أنه يوناني الأصل.

البرتقال: فاكهة موطنها الأصلي في الشرق الأقصى، وقد جلبها إلى حوض البحر الأبيض المتوسط البحارة البرتغال فسميت باسمهم، ولذلك يسميه البربر في المغرب اللتشين وهو اسم الصين في لغتهم. وكأنهم يسمونه فاكهة الصين.

القرش: وهو العملة المعروفة، ويسمى أحياناً الغرش، من كلمة لاتينية الأصل هي (جروسو Grosso)، ومعناها الأصلي الكبير، واستعمل الألمان قديماً كلمة (جروشن Gruschen) اسماً لقطعة من النقود تساوي اثني عشر جزءاً من مائة من المارك، وعرفها البلغار وسكان رومانيا والمجريون والأتراك بلفظ جروش أو غروش.

الريال: اسم لنقد قديم عرف في المغرب وفي كثير من بلاد الشرق العربي وأصله من كلمة (ريال Real) الأسبانية التي تقابل الإنجليزية والفرنسية (رويال Royal) بمعنى الملكي، وكأن الريال هو العملة المسكوكة باسم الملك، والصادرة من قصر الملك، فسميت هكذا أي النقد الملكي.

ولا يقتصر أمر الصلة بين المجتمع واللغة على ما نلاحظه من تبعية تفرضها ظروف الحضارة على ألفاظ اللغة كما مثلنا لذلك فيما سبق، وإنما هناك آثار أكثر عمقاً ما تزال جديرة بالتنبه والبحث. ففي البلاغة العربية مثلاً يوجد مبحث كامل للفصل والوصل يهتم بوصف أبلغ الأساليب وأمثلها في تحديد صلات الجمل في الكلام، كل جملة بما قبلها وما بعدها. فيذكر في هذا الباب كيفية الوصل بين جملتين بالواو، وكيفية ربطهما ببعض أدوات الإضراب والاستدراك مثل بل ولكن، كما يذكر فيه ما يلزم لقطع الجمل المتتابعة بعضها عن بعض. والدارس لهذا الباب يشعر أن معظم قواعده وشواهد مآخوذ من نصوص قديمة من الأدب العربي شعراً ونثراً، في وقت كانت الفصاحة والبلاغة أساسها المشافهة، أي سماع الكلام بالأذن من شاعر أو متحدث أو خطيب.

ولكن ظهرت بعد ذلك الكتابة، وغلب النص المكتوب على الكلام المنطوق، ثم ظهرت المطبعة، وأصبح القارئ لا يرى الكاتب ولا يسمعه، ومع رقي الكتابة والطباعة ظهر فن التقسيم والتنقيط، فعرفت اللغات المكتوبة الفصلة، والفضلة المنقوطة، والنقطتين الرأسيتين، والنقطة الكاملة، وعلامة الاستفهام، وعلامة التعجب، وشرطة الاعتراض، وشرطة الربط، ونقط التعليق الأفقية... إلخ. وواضح أن كل هذه الإشارات تفيد الفصل أو الوصل، بل تفيد ما يزيد على ذلك، فليس عجيباً والحالة هذه أن يظهر تسامح شديد في التزام هذا الباب من قواعد البلاغة، إذ يكفي الكاتب العصري بهذه العلامات. ولكن تعود المشكلة فتقفز من جديد في مجتمعنا المعاصر مع ظهور الإذاعة والتلفزيون (الإذاعة المرئية) والمسرح والسينما، وكلها تعتمد من جديد على المشاهدة لا على الكتابة والقراءة مما يقتضي عودة إلى قواعد الفصل والوصل البلاغية. ولما كان كثير من المشتغلين بهذه الألوان من النشاط الثقافي، ينطلقون من نصوص مكتوبة أو مطبوعة، فقد كثر شعور المستمعين بالملل، الذي يرجع بنسبة كبيرة إلى هذه المفارقة بين الفصل والوصل بالعلامات في النصوص المكتوبة، والفصل والوصل البلاغي بالأدوات والسكتات والنبرات في النصوص الملقاة على الأسماع.

كذلك تؤثر الصبغة العامة التي يتسم بها نشاط المجتمع في عصر من العصور على أسلوبه في الأداء: ففي العصور الوسطى كانت الحياة تسير في تقاليد رتيبة بطيئة في كل أنحائها، فالمواصلات البرية كانت على ظهور الدواب أو بعربات تجرها هذه الدواب، والمواصلات البحرية كان عمادها سفينة بالشراع أو بالمجاذيف، والصناعة كانت كلها يدوية، والكتابة والتعليم والثقافة كانت تعتمد على المخطوطات والمستنسخات، والحرب كانت بالقوس والسهم والسيف والرمح والمنجنيق، وكان مرور الزمن بطيئاً، فكان يلذ للناس إذا قرءوا أن يكون الكتاب مسهباً مطولاً حتى تدوم التسلية وقتاً طويلاً، وهذا ما برر ظهور مؤلفات مثل الكوميديا الإلهية لدانتي في إيطاليا، والدون كيشوت لسرفانتس في

أسبانيا، وجرجانتوا وبتجرويل لرابليه في فرنسا، وألف ليلة وليلة، وقصص أبي زيد الهلالي وعنترة في العالم العربي، والشاهنامه للفردوسي، والمثنوى لجلال الدين الرومي عند الفرس. كان عند الناس الوقت، والاستعداد النفسي لقتل هذا الوقت وتبديده. أما اليوم فلا يمكن أن نتصور سيناريو للسينما مكتوباً بطريقة أبي زيد الهلالي، ولا رواية عصرية تنتهج نهج الدون كيشوت أو ألف ليلة وليلة، ولا نتصور محرراً في جريدة يومية يكتب الخبر على طريقة إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس للأقليدي، فالسرعة العلمية التقنية التي تعمل بها الطائرات النفاثة والآلات الإلكترونية والمطابع الآلية واللاسلكي والمصانع ذات الإنتاج الغامر الأوتوماتيكي، كل ذلك لا يسمح لا مادياً ولا نفسانياً بأن يأخذ الأسلوب البطيء في القصص أو السامرة أو التأليف مكانه في هذا المجتمع. لو أننا قرأنا عدداً من صحيفة يومية صدر اليوم وعدداً من نفس الصحيفة صدر منذ خمسين عاماً لأحسنا بتزايد السرعة في العدد الحديث، وبرغبة الكاتب في الإيجاز، إلا بعض المتسكعين من الكتاب الذين ما يزالون يجترون أنماط الآباء المعروفة قبل أن يتغير الزمن. وفي ميدان الصحافة بخاصة، نجد معلماً للأسلوب السريع هو البرقية التي تفرض نفسها بما فيها من إيجاز وتجرد من فضول القول على أقلام الصحفيين، حتى أصبح بعضهم يكاد من تأثره بذلك يقع بأسلوبه في الإيجاز المخل. وقد قالوا قديماً إن الأسلوب الأمثل هو الذي سَلِمَ من التطويل الممل والاختصار المخل. وكأنهم عنوا به الأسلوب الذي يماشي سرعة عصره.

وكما يؤثر المجتمع بمعناه الواسع في تطور اللغة تتأثر أيضاً بالمجتمعات الضيقة في داخل المجتمع الواحد، فتظهر ألفاظ وتعبير خاصة بأصحاب الحرف المختلفة لا يكاد يعرفها غيرهم. يقول الدكتور السامرائي في كتابه «دراسات في اللغة»:

«وقد فطن الجاحظ إلى استعمالات ولهجات الطبقات الدنيا في المجتمع في أيامه، فهو يعرض للغة المتسولين والمحتالين ولا سيما ما جاء في كتاب

«البخلاء» من هذا الباب . . . كما أشار الجاحظ إلى جماعة من هذه الجماعات التي ارتضت لنفسها أن تحيا حياة خاصة، وهم اللصوص، وقد كتب في الموضوع رسالة أسماها كتاب اللصوص، وقد جاء ذكر الكتاب في مظان عدة. ومن المفيد أن نذكر أن الجاحظ لم يكن أول من كتب في اللصوص، فقد كتب أبو عبيدة في الموضوع نفسه، غير أنه إذا عرفنا أن نزعة الشعوية عند أبي عبيدة هي التي دفعته إلى الكتابة في هذا الموضوع للانتقاص من العرب وتعصباً للفرس (كذا).

«ولعل هوى الجاحظ في تسجيل آداب العوام وملحهم وظرفهم هي التي دفعته إلى أن يسجل حكايات عن الملاحين مع ذكر مصطلحاتهم التي يستعملونها»^(١).

ومن أوضح الأمثلة للغة الخاصة التي يتفاهم بها أهل فئة معينة، القصيدة الطويلة التي كتبها في القرن الرابع الهجري، الشاعر الماجن المتسول أبو دلف الخزرجي الينبوعي، مسعر بن مهلهل، واشتهرت باسم القصيدة الساسانية، وقد اختار منها أبو منصور الثعالبي قدراً لا بأس به أورده في «يتيمة الدهر» وشرح فيه المصطلحات الخاصة بالتسولين. ومن ذلك قوله فيها:

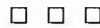
وَمِنَّا حَافِرُ الطَّرْسِ بَلَا خَرْطٌ وَلَا جَهْرٍ
وَبَرْكُوشٌ وَبَرْكَكُ وَمُعْطِي هَالِكِ الْجَزْرِ
وَمَنْ قَرْمَطٌ أَوْ سَرْمَطٌ أَوْ خَطَّطٌ فِي سَفَرٍ
وَحَرَّاقٌ وَبَزَاقٌ بَنِي الشَّخِيرِ وَالنَّشْرِ
وَمَنْ زَكَّرَ وَالْقَوْمَ الزُّكُورِيُونَ فِي الصَّدْرِ
وَمَنْ دَهَشَمَ بِالْكَرَشِ وَيَسْتَبْرِدُ فِي النَّهْرِ
وَمَنْ يُعْطِي الضَّمَانَاتِ مِنْ الزَّنْكَالَةِ الْعُفْرِ

ويشرح الثعالبي رموز هذه اللغة المغلقة فيقول: (حافر الطرس)

(١) الدكتور إبراهيم السامرائي: دراسات في اللغة. بغداد ١٩٦١، ص ١٩٩.

هو الذي يحفر القوالب للتعاويد، فيشتريها منه قوم أميون لا يكتبون، وقد يحفظ البائع النقش الذي عليه، فينفذ التعاويد إلى الناس ويُوهم أنه كتبها، ويقال للقلب الطرس. (بركوش) هو الذي الذي يتصامم ويقول للإنسان: تكلم على هذا الخاتم باسمك واسم أبيك، فيسمع ما يقوله وينبئه به. (بركك) هو الذي يقلع الأضراس ويداوي منها، و(الهالك) الدواء، و(الجزر) البصر، ويقال للعين الجزارة. (قرمط) هو الذي يكتب التعاويد بالدقيق والجليل من الخط. و(سرمط) كتب، والسرماط الكتاب. (الحراق) الذي تكون معه مرآة تشعل منها النار وتسمى حراقة و(البزاق) الذي يرقى المجانين وأصحاب العاهات، ويتفل عليهم. (زكر) كَدَى على الأبواب، وهو من أجلائهم. (ومن دهشم) تَحْرَقَ ومَوّه بأنه صائم، و(الكرش) الصوم، والجوع أيضاً، ويكون قد أكل في منزله، فإذا عطش نزل في النهر بعلّة الاستبراد وشرب ما أراد، (الزنكلة العفر) واحد، وهم المعافرون، يأخذون الحجيج ويضمنون الجنة^(١).

وقد أفاض المؤلفون في الكلام عن صلة التطور اللغوي بالاقتصاد والدين والأخلاق والكشف العلمي، وهم في ذلك يسوقون أمثلة يستطيع أي مهتم بالبحث اللغوي الاجتماعي أن يجد لها نظائر حيثما شاء.



(١) يتيمة الدهر في شعراء العصر، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، المتوفى سنة ٤٢٩هـ، مطبعة الصاوي، القاهرة ١٢٥٣هـ - ١٩٣٤م، ج ٣، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

الفصل السادس

مظاهر التطور اللغوي

وهذه شعبة من البحث اللغوي مكانها الطبيعي هنا بعد أن أخذنا فكرة عن علاقة اللغة بالفكر والمجتمع. ومظاهر التطور اللغوي كثيرة جداً لا يكاد يحيط بها حصر، ولكن هناك خطوطاً رئيسية في هذا التطور ينبغي التعرف عليها.

وبداية ذلك أنه ما دام الفكر الإنساني نفسه في تطور مستمر، ينتقل من البسيط إلى المركب، ويخطو دائماً في درجات النمو والاتساع والتعقيد، فإن اللغة التي هي آله لا تستطيع كما قلنا أن تقف حيث هي وتبقى مع ذلك على قيد الحياة، بل يجب أن تتطور هي أيضاً، وفي عدة اتجاهات.

فمن حيث النمو، تبدو بسيطة جداً، ثم سرعان ما تتعقد مع رغبة الإنسان في أن يجعل لفظه مرآة دقيقة صادقة لكل الاختلاجات والعمليات الجزئية التي تجري داخلياً في فكره ونفسه. ومن هنا كان النحو في اللغات القديمة مختلفاً عنه في اللغات الحديثة المتطورة عن هذه اللغات القديمة.

فمثلاً يكثر في اللغات القديمة تغيير أواخر الكلمات بحسب الوظيفة التي تؤديها كل كلمة في الجملة، وهي الظاهرة التي يسميها نحائنا بالإعراب. ففي اللغة العربية تُضم أواخر الأسماء إذا كانت أركاناً رئيسية في الإسناد، أي في بناء الفكرة المضمنة في الجملة، كالفاعل ونائب الفاعل، والمبتدأ، والخبر، ويسمي النحاة تلك الضمة رفعاً، أما إذا كانت هذه الأسماء فضلات غير مباشرة، أي تنمات للجملة، أو لبعض أجزائها، تتصل بما تتعلق به بواسطة روابط كحروف الجر، أو كأسماء أخرى، في حالة الإضافة، أتت هذه الأسماء مكسورة الآخر،

ويسمى ذلك في النحو جرّاً. وإذا كانت الأسماء تتمت بمباشرة للإسناد الموجود في الجملة كأن يقع مفعولاً به للفعل، أو حالاً، أو تمييزاً، أو ظرفاً، فإنها تكون مفتوحة الآخر ويسمى ذلك نصباً.

وقد لوحظ أن مثل هذه التغيرات تردّ في غير اللغة العربية: ففي اللغات السامية، التي هي من نفس العائلة اللغوية للفتنا، نجد اللغة الأكادية بفرعيها البابلي، والأشوري، تجري على نفس قواعد الإعراب العربي، من الرفع بالضمّة والنصب بالفتحة والجر بالكسرة، في المواضع الماثلة من الجملة. كما لوحظ أن نفس ظاهرة الإعراب تأتي بشكل آخر لكن على نفس الأساس، وهو تغيير آخر الكلمة بتغيير التراكيب، في لغات قديمة تنتمي إلى عائلات لغوية أخرى، فمن ذلك اللاتينية، واليونانية، والألمانية، ومن قبلها السنسكريتية الهندية، التي تعتبر أمّاً لهذه اللغات ولبقية اللغات الهندية الأوروبية.

كذلك نلاحظ أن الفعل المضارع في اللغة العربية يُعرب، لكن لمعانٍ أخرى غير التي يعرب لها الاسم، فهو يأتي مرفوعاً إن دل على مجرد وقوع الحدث في الحال أو الاستقبال، أو إن دل على وقوعه على وجه الاستمرار والعادة والقانون المقرر، نقول مثلاً: المطر ينزل الآن، المطر ينزل غداً، المطر ينزل في الشتاء في بلادنا، فنرفع الفعل المضارع في كل هذه الحالات. فإذا تمحض وقوع الحدث في المستقبل على وجه الانتظار والاحتمال، استحق الفعل المضارع الذي يعبر عنه النصب، نقول مثلاً: أملنا أن ينزل المطر، انتظرنا حتى ينزل المطر، صلينا كي ينزل المطر، تكوّن السحاب لينزل المطر، لن ينزل المطر... إلخ، أما إذا أريد بالمضارع معنى القطع بوقوع الحدث، أو اشتراط وقوعه حتماً، استحق الفعل المضارع الجزم بالسكون، كما في حالات الجزم والشرط المعروفة، نقول مثلاً: إن ينزل المطر نزرع، لم ينزل المطر، لما ينزل المطر... إلخ.

فالرجل القديم عندما فكر في التوزيع الوظيفي للألفاظ داخل الجملة، رأى أن يميز عمل كل لفظة بنهاية صوتية معينة، وكانت له بذلك حرية واسعة جداً في أن يرتب هذه الألفاظ داخل الجملة كما يشاء. فاللفظ، ما دام يحمل

العلامة المميزة لمهمته، يجوز فيه التقديم والتأخير، بل يمكن أن يحذف من الجملة إذا بقى فيها ما يدل عليه ويجعله مفهوماً من السياق. هذا الإعراب على ما يبدو للمتعلمين من تعقيد، يعتبر طريقة بسيطة لتمييز وظائف الألفاظ في الكلام المركب، وهو أقل تعقيداً من طريقة الكلام في اللغات الخالية من الإعراب كما سنرى.

فأثناء تطور اللغة جنح الناطقون بها، ولا سيما بعد أن دخلت بينهم شعوب كثيرة غريبة على المجتمع اللغوي النقي القديم، إلى التخفيف من قيود الإعراب وهكذا اختفى نهائياً في اللغات واللهجات الحديثة التي ولدت من اللغات القديمة الفصيحة: فالفرنسية، والإيطالية، والإسبانية، والبرتغالية لا إعراب فيها، مع أنها مشتقة من اليونانية واللاتينية وهما معربتان. والإنجليزية التي تلتقي في أرومة واحدة مع سائر اللغات الجرمانية (ترجع في النهاية إلى الهندية الأوروبية كذلك) تخلصت من الإعراب، بينما هو لا يزال محترماً في الألمانية الفصحى. ومع ذلك فلعل من الطريف أن نلاحظ آثاراً باقية من الإعراب في الإنجليزية مثلاً، نحو التغيرات التي تحدث في ضمير المفرد الغائب (he, him, his).

وفي اللغة العربية بدأ الجنوح إلى إهمال الإعراب في بعض قبائل العرب منذ الجاهلية، كقول الشاعر:

فاليوم أشربُ غير مستحب إثماً من الله ولا واغل
وهو كما نرى لم يعرب الفعل المضارع أشرب ونطق آخره موقوفاً، وكقول

الراجز:

إن أباهَا وأبا أباهَا قد بلغا في المجد غايتها
فهو لم يعرب كلمة أب ولا المثني في آخر البيت ويقول المثل: «مكره أخاك لا بطل» وهو أيضاً لم يعرب كلمة أخ. وقد سبق أن أشرنا إلى أن المضاف لم يكن يعرب في بعض لهجات العرب الأقدمين، وروينا من ذلك النقش الذي جاء فيه «علي بن أبو طالب».

والظاهر - كما يرى المستشرق يعقوب بارت، ويوافقه فلهاؤزن ورينان وغيرهما^(١) - أن لغة القرآن الكريم، وهي لغة سدنة الكعبة وأمراء الحج من قريش، كانت على أواخر الجاهلية قد أصبحت «لغة فصحي» أو «لغة مقدسة» بالمعنى الكامل لذلك، أي أن عامة العرب كانت لا تدقق في مراعاة كل أركان الفصاحة التي تمتاز بها، وكانت لكل قبيلة لهجة مختلفة، مما جعل هذه اللغة الفصحى لغة دين وثقافة ولغة دبلوماسية رفيعة يتفاهم بها الرؤساء وقادة الرأي في القبائل. وكان أكثر الناس يحتاج إلى تعلمها، فيحفظون الأشعار والخطب والأمثال، ويتتلمذون على كبار الشعراء والأطباء والكهنة والعرافين والخطباء، حتى إذا أتقنها الواحد منهم فرحت به قبيلته لأنه صار أهلاً لتمثيلها في الأسواق والمتنديات الكبرى، ينطق بمفاخرها ومآثرها، ويكون سفيراً لها مدافعاً عن مصالحها. ونحن نعلم أن اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم، بناءً على أحدث أبحاث فقه اللغة التاريخي والمقارن^(٢)، أقرب الصور إلى ما كانت عليه لغة الساميين الأم، تلك اللغة الأصلية المندثرة، التي تفرعت عنها كل هذه المجموعة التي نسميها اللغات السامية من أكادية (بابلية - آشورية)، وكنعانية (فينيقية - مؤابية - عبرية)، وأرامية (سريانية - نبطية)، وعربية (عدنانية - قحطانية يمنية)، وحبشية (جعزية - أمهرية)... إلخ. فإذا ما تبين لنا أن الأكادية التي ترجع إلى الألف الثالث قبل ميلاد المسيح، إذا قورنت بالعربية الفصحى ظهر أنها، على شدة شبهها بلغة العرب، وكأنها متطورة متساهلة في كثير من المقومات والمميزات القديمة للغة السامية، فإنه يصبح من المرجح أن اللغة العربية الفصحى أقدم بكثير جداً مما تقف عنده نصوصها ومروياتها الجاهلية، وأنها بهذا القدم، وبعدد

(١) راجع مثلاً: Ernest Renan: *Histoire Générale et Système Comparé des Langues Sémitiques*, Paris 1855, PP. 320-388.

(٢) راجع: C. Brockelmann: *Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen*, 2 vols, Berlin 1908-1913.

William Wright: *Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages*, Amsterdam, philo Press 1966.

من الأنبياء الذين ظهرُوا بين أهلها في قديم الزمان كشعيب وهود وصالح ، وبالكعبة التي شيدها إبراهيم الخليل عليه السلام في مكة ، كانت تعتبر - حتى عند الجاهليين - لغة مقدسة حقاً ، وهو ما يبرر كون معجزة الإسلام ، أي القرآن الكريم ، قد جاءت من صميمها ؛ ولعل ما يرويه المؤرخون عن العرب من تقسيم أمتهن إلى عرب بائدة وعرب باقية ، ثم تقسيم هذا الجنس الأخير إلى عاربة ومستعربة ، هو نفسه صدى لهذا القدم الموعل في مجاهل التاريخ التي انقطعت دونها الرواية ولم ترد منها أية كتابة . ومع ذلك فهناك نصوص كثيرة مما كتبه الأكاديون ، بابليين وآشوريين ، ورد فيها ذكر العرب ، وكذلك جاء ذكرهم في الكتب الدينية العبرية في العهد القديم والتلمود وغيرهما .

لا عجب ، والحالة هذه ، أن تكون هناك لهجات تختلف قريباً وبعداً من العربية الفصحى على أواخر الجاهلية ، حتى إذا ما انتشر الإسلام في خارج بلاد العرب ، حدث تفاعل بين هذه اللغة وبين لهجات الأمم المجاورة ، وظل هذا التفاعل يقوي ويزداد نشاطاً مع كثرة الألسنة الغربية التي دخلت في الإسلام أو انضوت تحت لواء الحضارة العربية ، إلى أن تمَّ تخلُّق اللهجات العامية التي نعرفها الآن في العالم العربي ، متخلصة تماماً من الإعراب .

ومع التخلص من الإعراب يحدث دائماً تقييد وتحديد من حرية المتكلم في التقديم والتأخير والحذف ، فاللفظة وقد أصبحت لا تحمِلُ في نهايتها العلامة الصوتية المميزة لوظيفتها في الجملة ، تحتاج بدل هذه العلامة إلى أن يكون لها مكان ثابت في نظام الألفاظ في داخل الجمل ، بحيث تعرف وظيفتها من هذا المكان الذي تشغله ، ولذلك فإن علم التركيب (Syntax) يزداد دقة وتعقيداً ، ويفقد كثيراً من مرونته القديمة في اللغات الموقوفة ، أي التي ليس فيها إعراب . ولكن ، هل الانتقال من التركيب المعرب إلى التركيب الموقوف يعتبر ظاهرة حتمية في تطوّر اللغات ؟ نعم ولا .

نعم : لأن الجملة التي يصنعها المتكلم في المجتمعات القديمة إنما يصنعها في نفس الوقت الذي يصنع فيه فكرته نفسها . وهو لذلك يحتاج إلى أقصى حد من

المرونة في التركيب والترتيب حتى تتيسر له هذه المسيرة التي يلاحق فيها اللفظ جزئيات المعنى وهي ما تزال في طور التكوين. والذين لهم بعض اتصال باليونانية القديمة مثلاً أو بالبابلية يعرفون هذا الوجه من الذوق اللغوي الذي يميز التعبير القديم، حيث يكثر في الجملة رد المتأخر على شيء سبق النطق به، وهو يتعلق به تعلقاً فكرياً؛ كما تكثر صيغ التردد والاحتمال بدرجاته، وأدوات الفصل والوصل، وأنواع من الزوائد تتجاوب مع حركات عقلية جزئية تختلج في الفكر في لحظة التعبير. على حين أن المتكلم باللغات الحية المعروفة يكاد يفرغ من تكوين فكرته داخلياً قبل سبكها في قالب الكلام، فيقل فيها ما يشعر بهذا الجهد الداخلي في بناء الفكرة نفسها.

ولا: لأن أصحاب لغة ما، قد يشقون طريقهم نحو التطور والحضارة في ظل كتاب مقدس يحتم عليهم الإبقاء على الطابع العام المميز للغة وهو الإعراب، فاللغة اللاتينية، كما سبق أن أشرنا، بقيت قروناً طويلة بعد الرومان بفضل المسيحية الكاثوليكية التي كَرَّسَتْهَا لَعَةً دين وعبادة. وكذلك اللغة العربية بكتابها المبين، القرآن، فرضت على العرب الحفاظ عليها كما هي، حتى إنهم رضوا بازدواجية حتمية بين لغتهم المقدسة وبين اللهجات السوقية، وبقيت العربية الفصحى لغة الثقافة والفكر والعلم حتى يومنا هذا. كذلك يحدث أحياناً تمزق لغوي إلى لهجات فقيرة منحرفة متباعدة بعضها عن بعض، بينما تبقى العواطف القومية، والمصالح المتصلة بالحضارة والتراث، تدعو فروع الأمة التي تبلبلت ألسنتها إلى التمسك باللغة الفصحى، ولو لم يكن فيها كتاب مقدس، وأشهر أمثلة ذلك الألمان الذين تعدد لهجاتهم بينما يتحد تراثهم وتتوحد أهدافهم القومية على نحو يفرض اللغة الفصحى لتشدهم جميعاً برباطها. وهذا الوضع يصدق أيضاً على الأمة العربية، ويتدخل لغوياً في صالح العربية الفصحى، حتى بصرف النظر عن الاعتبار الديني السابق الذكر. ويكفي دليلاً على ذلك أن نلاحظ أنه في أخريات عصر الانحطاط الفكري للأمة العربية، على أواخر الحكم العثماني، وفي الوقت الذي كان فيه العرب المسلمون ينظرون فيه إلى

الخلافة التركية على أنها المساك السياسي للإسلام، كان المسيحيون من العرب، لا سيما في لبنان، يتمسكون باللغة العربية في وجه الغزو اللغوي التركي مع الحكومة ومع الإدارة، حفاظاً على قومية ليس الدين جزءاً منها، وهذا ما يفسر لنا ظهور الدراسات والمعاجم العربية وكثرة نشر آثار التراث الأدبي العربي على يد علماء من العرب المسيحيين في لبنان؛ فالمعلم بطرس البستاني يؤلف معجمه «محيط المحيط»، وكذلك دائرة المعارف المشهورة المعروفة باسمه، كما ينشر سعيد الشرتوني معجم «أقرب الموارد» وكثيراً من التراث العربي القديم مثل كتاب «النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري»، ويؤلف المطران جرمانوس فرحات كتابه المشهور في النحو «بحث المطالب»، كما ينشر معجماً في اللغة؛ ويطول بنا الحديث لو حاولنا الاستقصاء، فهناك عبد الله البستاني، والأب لويس شيخو اليسوعي والمعلم جرجس همّام الشويري، وآل اليازجي، والأب لويس المعلوف اليسوعي وغيرهم، هذا فضلاً عما تدين به الصحافة العربية لمسيحيي العالم العربي في إبان نشأتها، وهو مظهر من تمسك أولئك العرب، بصرف النظر عن الدين كما قلنا، بدعامة من أهم دعائم القومية العربية التي كادت التركية أن تزعزعها يومئذ.

أما من حيث الصرف فالأمر يختلف كثيراً، لأن قواعد التصريف هي الآلة الأولى البسيطة المرنة لتنمية الثروة اللفظية في اللغة. ولذلك تكثر أوزان التصريف وتتعقد، وهي لا تظهر طفرة واحدة، وإنما يظهر بعضها في أثر بعض بحسب الحاجة، كما تختفي بعض الصيغ الصرفية عندما ينصرف المتكلمون عن الإقبال عليها.

فمن الحقائق المعروفة في علم اللغات أن من أوائل صيغ الأفعال ظهوراً فعل الأمر، ومن أواخرها صيغة المصدر، على عكس ما يزعمه النحاة والصرفيون. إذ ليست هناك صيغة فعلية أبسط وأقرب إلى حاجة الرجل البدائي من قوله اذهب، ارجع، احضر، خذ، كل، اشرب... إلخ؛ فهو قبل أن يشعر بالحاجة إلى الإخبار عن شيء كان قد حدث، أو احتمال شيء سيحدث،

أو تصور الحدث المطلق المجرد عن الزمن والفاعل والمفعول، كان يطلب شيئاً، أو يأمر بعمل شيء. ولهذا نرى السمات الصرفية الأولى للمادة الفعلية الأصلية أكثر وضوحاً في صيغ الأمر في أكثر اللغات، وهذا واضح جداً في اللغة الفارسية مثلاً، حيث يتفق فعل الأمر مع ما يسميه نحاة اللغة الفارسية بالمادة الفعلية الأصلية للاشتقاق في كل الحالات تقريباً.

كذلك ما من شك في أن اسم الفاعل واسم المفعول كانا أقدم ظهوراً في اللغات من اسم الآلة مثلاً، بل إن كثيراً من اللغات تسمي أكثر الآلات بأسماء ليست مشتقة من الأفعال التي تشاركها في المعنى العام.

وبعض الأدوات التي تفيد معنى زائداً على صيغة الفعل مثل السين، وسوف، وقد، أو معنى ثانوياً للجملة مثل رُبِّ، التي تعبر عن التقليل والتكثير والاحتمال تأخرت في الظهور نسبياً، ودليلنا على ذلك وجودها في العربية وانعدامها في البابلية الآشورية، والعبرية، والآرامية وغيرها من لغات نفس العائلة السامية، مع وجود المادة التي اشتقت منها كلمة «رَبِّ» في هذه اللغات بمعنى الكبير أو الكثير.

ومثل هذا يقال في أدوات التعريف، التي لم تظهر في اللغات إلا بعد أن وقف الإنسان موقفاً عقلياً واضحاً محدداً إزاء الشيء المعروف والشيء المجهول وهو موقف فلسفي يحتاج إلى تطور فكري وحضاري طويل، وإلى تكامل ثقافي في نظرية المعرفة. ولهذا بقيت أداة التعريف غير معروفة في البابلية واللاتينية، وظهرت الاستعانة على تمييز المعروف من المجهول في عصور متأخرة بأسماء الإشارة أو بأجزاء مقتطعة منها، أو أحياناً بتحديد النكرة دون المعرفة كما في الفارسية، حيث يوضع في آخر الاسم المقصود تنكيه حرف ياء مكسور ما قبلها وذلك في المفرد فقط، فكلمة «رَجُل» بالفارسية هي «مَرَد» وعندما أنطق بهذه الكلمة هكذا يكون أقرب مفهوم لها هو «الرجل» بالتعريف، فإذا أردت النص على تنكيه، وأنه مجرد رجل ما، قلت «مَرَدِي».

أما الصيغ الزائدة من الأسماء والأفعال فهي تنشأ في اللغات في عصور

متفاوتة وبحسب الحاجة أيضاً. ثم إن استعمالها بعد ذلك يقل ويكثر بنسب متفاوتة أيضاً فمثلاً صيغة فَعَلَ (بتشديد العين)، وأفَعَلَ (المزيد بالهمزة)، وانفعل (المزيد بالنون)، أقدم وأوسع انتشاراً من صيغة افعوعل مثلاً، فالعرب استعملت أعشب أكثر من أعشوشب واستعملت كذلك اخضرَّ (بتشديد الراء) أكثر من اخضوضر، وأكثر من اخضارَّ (بألف مد قبل الراء المشددة) ثم إنها استعملت انفعل وافتعل أكثر من استعمالها للمبني للمجهول، وكان أسهل عليهم أن يقولوا انهدم البناء واندحر العدو واحترقت الدار واهتزت الأشجار، من أن يقولوا هُدم ودُحر وحُرق وهُز (بصيغة المبني للمجهول). ولذلك سبب صوتي وهو أن المبني للمجهول تتعاقب فيه حركتان متنافرتان بطبيعتها الضمة والكسرة، بالنسبة للذوق العربي طبعاً، حتى إن هاتين الحركتين لم تتعاقبا في أوائل الأسماء الثلاثية إلا نادراً، وأشهر ذلك النادر «الدئل» وهو اسم حيوان صغير من فصيلة ابن عرس، وسميت به قبيلة من كنانة إليها ينسب أبو الأسود الدؤلي اللغوي القديم المعروف.

وفي لهجاتنا العامة تأكد النفور من المبني للمجهول فاختفى تماماً وحلت محله صيغ المطاوعة: انفعل، افتعل (أو اتفعل) فنقول الكيس انسرق، والخشب احترق (أو اتحرق) ونحو ذلك.

والخلاصة أن الصيغ الصرفية لا تسير في خط التبسيط المطلق، وإنما تتجاوب مع حاجة المتكلمين، فبعض الصيغ يستحدث، وبعضها الآخر يهجر حتى يندثر تماماً.

وأما التطور في متن اللغة، أي في الألفاظ ودلالاتها على المعاني، فإنه كما سبق أن ذكرنا، الميدان الكبير الذي يتسع لأكثر من بحث، ويتناوله العلماء من أكثر من جانب، فمثلاً عالجّه اللغوي الفرنسي البيردوزا في كتابه حياة الكلام^(١). وبدأ القسم الثالث منه، وهو القسم الخاص بالعامل الاجتماعي في التطور اللغوي بفصل عن «الصراع بين اللغات، وموتها»، يرى فيه أن اللغة

Albert Dauzat: La Vie du Langage-paris 1910, P. 161 ss.

(١)

كأي كائن حي، تتطور خلال حياة تطول أو تقصر ثم تموت في النهاية: إما بموت الأمة التي كانت تتكلمها واندثارها، وإما لأن تلك الأمة قد غيرت لسانها. والصراع على الحياة، كما هو قائم بين الكائنات الحية، يقوم أيضاً بين اللغات، بل بين الألفاظ في داخل اللغة الواحدة. وإذا كان كذلك فهل لنا أن نفهم أن لكل لغة طفولة، ثم سنأمعيناً تصل فيها إلى أوج القوة والصحة والجمال، ثم تصيبها أمراض الكبر وغضونه إلى أن تموت؟ يقول دوزا: إن علماء الأدب يجيبون عن هذا السؤال بنعم، وفقهاء اللغة يقولون لا، وأما علماء الاجتماع فيقولون ربما. ولتوضيح ذلك نقف إلى جانب دوزا، لكن نحاول أخذ أمثلة من لغتنا العربية، حيث يبدو الأدب الجاهلي أشبه بالطفولة الفكرية للأمة، أما دور الشباب والاكتمال والجمال فهو من نزول القرآن الكريم إلى تلك الأيام التي جادت بأمثال جرير وأبي نواس وأبي تمام والبحري والمتنبي والجاحظ وغيرهم. ثم تأتي الشيخوخة مع قرون الانحطاط التركي. ولولا المعجزة القرآنية التي حافظت على هذه اللغة لما أتيت لها انتفاضتها الأدبية الحديثة، وبعثها من على شفا القبر، ولكانت الآن في عداد اللغات الميتة.

أما من وجهة نظر النحاة وفقهاء اللغة فإن معدن اللغة كأداة، مجرد أداة للفكر، في عصر ابن نباته والسراج الوراق وابن حجة الحموي وعبد الغني النابلسي وتوفيق البكري مثلاً، معدن هذه اللغة يبقى هو هو، وحيويتها تظل هي هي. أما الذي ضعف وأصابه الانحطاط فهو ثقافة المتكلمين بها، وذوق المستعملين لها. وإذا كنا قد استعرنا أمثلتنا من تاريخ العربية فإن ألبير دوزا يجول في ميدان اللغة اللاتينية بنفس الطريقة فيقول: إن هذه اللغة في عصر ثيودوسيوس - وهو عصر انحطاط - لم تكن أقل جدارة بالحياة منها في عصر أوغسطس، وكان من الممكن أن تعيش، وأن يمتد بها العمر لولا أن دهمتها غزوات البرابرة، فقطعت أوصال المتكلمين بها والمستعملين لها في الثقافة، وساعدت بذلك على سيادة اللهجات المحلية، والإجهاز على اللاتينية الفصحى. كذلك يلاحظ أن اللغة اليونانية قد عاشت بعد انهيار الفلسفة اليونانية، وبعد

زوال القوة السياسية والعسكرية للإغريق، وحتى بعد سقوط الدولة البيزنطية المسيحية، وطرده الأتراك لليونان ولغتهم وفكرهم من القسطنطينية، عاشت اللغة اليونانية مشردة، وعاشت كل عصور الانحطاط السياسي والفكري، وهي موجودة إلى الآن لم يطرأ عليها، من الناحية اللغوية البحتة، إلا تطور طبيعي طفيف هو معقول في حساب المدد الزمنية التي قطعتها من القرن السادس أو السابع قبل الميلاد - عصر هوميروس - إلى يومنا هذا.

أما كيف تموت اللغة فإن أصحاب النظرة الاجتماعية للتطور اللغوي يذكرون لذلك ثلاثة أشكال:

أولها: أن تموت اللغة موتاً طبيعياً، من الكبر والضعف والتقدم في السن، ولا بد في تلك الحالة من أن يكون المتكلمون بتلك اللغة قد كثروا وتشعبوا، وتباعدت مواطنهم، وأقاموا لهم حضارات متباينة لا يتصل بعضها ببعض إلا من بعيد، فتولد لدى كل منهم لهجة محلية منبثقة من اللغة القديمة، ومع مرور الأجيال تندثر اللغة الأم من ذاكرة الأبناء وعلى ألسنتهم وتموت. وأمثلة ذلك السامية الأم، والسنسكريتية، والفارسية القديمة، والجزرية الحبشية، واللاتينية.

ثانيها: أن تموت اللغة قتيلة، وذلك بفعل الغزو المسلح. ولكي يكون هذا القتل ممكناً يجب أن تتضافر ظروف معينة أهمها:

١ - أن يكون الغزاة أكثر عدداً بأضعاف كثيرة من أهل تلك اللغة، بحيث يصبح استقرارهم بلغتهم في الأرض المفتوحة أشبه بطوفان يبتلع الشعب الأصلي الصغير، ولغته معه. ومن ذلك غزو الساميين القدماء للعراق، حيث كان الشوميريون يقيمون منذ ما قبل التاريخ، وباكتساح الساميين لهم تلاشوا هم ولغتهم، ومع ذلك - إنصافاً للحقيقة - ينبغي أن نقول إن اللغة القليلة تترك دائماً آثاراً منها في لغة الفاتحين تقل أو تكثر.

٢ - في حالة التساوي في العدد تقريباً بين الغزاة والسكان الأصليين، ينبغي أن يكون الغزاة أعلى درجة في الحضارة من الأمة التي أصيبت بالغزو، وإلا فإن الغزاة هم الذين يفقدون لغتهم، وتنتصر لغة المهزمين كما حدث عندما

هاجمت القبائل المتبربرة أوروبا اللاتينية التي كانت شعوبها أكثر تقدماً في الحضارة، ولذا ترك هؤلاء البرابرة لغاتهم الأصلية، بل تركوا أديانهم الوثنية، واصطنعوا اللاتينية واعتنقوا المسيحية الكاثوليكية. وكذلك التتار بعد إسقاطهم بغداد اعتنق أكثرهم الإسلام وتعلموا اللغة العربية.

أما الغزاة المتحضرون فإنهم يقتلون لغة الأمم المفتوحة بفرض لغتهم في العلم والثقافة والتجارة ونحوها، وترك من لا يتقن اللغة بلا عمل ولا فرصة طيبة للتعلم أو الارتقاء: ومثال ذلك سيادة اللغة الأسبانية أو البرتغالية بين شعوب أميركا اللاتينية، وسيادة الإنجليزية في أميركا الشمالية، وسيادة الفرنسية في أنحاء من كندا وفي جزر الجوادلوب والمريتينيك وغيرها. وهذه الظاهرة ممكنة الحدوث، حتى إذا كان الغزاة أقل عدداً بكثير بشرط أن يكون رقيهم الحضاري والإداري والاقتصادي ساحقاً.

ثالثاً: أن تموت اللغة بالتسمم، ويبدأ ذلك بتسرب رشح من الدخيل من لغات أخرى تحتاج إليه اللغة فتقبله، بل تحس مع تعاطيها له في البداية بمزيد من الانتعاش والقوة والنشاط يشجعها على تقبل جرعات أكبر فأكبر من هذا الدخيل. ولكن قدرتها على هضم ذلك كله واستيعابه في بنيتها العامة تخونها في النهاية، فتسقط من الإعياء، تاركة المجال للبقية الباقية من الدخيل تتسرب إليها بدون أية مقاومة حتى تجهز عليها وتميتها. هكذا ماتت اللغة السريانية في بلاد الشام. فإن الفاتحين العرب تصالحوا مع المسيحيين في هذه الأقطار، قانعين منهم بالولاء والمسالمة ودفع الجزية، أما دينهم فقد تركوا لهم مطلق الحرية فيه، واتخذوا منهم المترجمين والأطباء والمهندسين وأساتذة الصناعة وكبار الموظفين، ولكن سيل الدخيل العربي المتزايد استمر في التسرب إلى ألسنتهم حتى وجدوا أنفسهم يوماً ما وقد فقدوا لغتهم نهائياً وتكلموا العربية، وأصبحوا من بعد أشد غيراً عليها من كثير من المسلمين، كالفرس مثلاً، إذ كان الفتح العربي قد أدخل اللغة العربية إلى بلاد فارس، حتى أصبح العلم والأدب والسياسة جميعاً لا تعرف تعبيراً غير العربية، وتقلص ظل الفارسية فأصبحت رطانة للطبقة الدنيا من الفلاحين والرعاة وصغار التجار والصناع؛ ولكن العصبية الشعبية

استيقظت منذ القرن الثالث الهجري، وبدأت مع الدويلات الإسلامية الشعبية التي قامت في فارس حركة إحياء وبعث للغة الفارسية، وهكذا بدأ مفكرون من الفرس يهجرون لغة العرب ليعودوا إلى لغتهم قبل الإسلام، من أمثال رَوْدَكِي وقرْدُوسِي وعمر الحيام وسعدي وجلال الدين الرومي وغيرهم. ومع ذلك فهذه اللغة الإسلامية الفارسية تحتوي على أكثر من خمسين في المائة من الدخيل العربي في صلب ثروتها اللغوية، وهي نسبة لولا النعرة السياسية القومية التي تداركت الفرس، لكانت قريبة من درجة الإشباع المؤدية إلى التسمم^(١). والصورة ما تزال بعد في حاجة إلى استكمال جوانب أخرى منها، فمثلاً نريد أن نعرف كيف تحاول اللغة ملاحقة تطور الحياة؟ كيف تتسع وتنمو، ما هي مواردها وروافدها، كيف تنسق الألفاظ صفوفها من جيل لجيل لتستجيب اللغة للمطالب المتجددة مع الزمن؟

ونريد في ختام هذا الفصل أن نمر على بعض المصطلحات التي وردت في ثناياه لكي نحصرها الآن في صعيد واحد، ونزيد من وضوح دلالتها:

١ - اللغة:

يقول أنطوان ميه في كتابه «لغات العالم»^(٢): «إن كلمة لغة تعني كل جهاز كامل من وسائل التفاهم بالنطق المستعملة في مجموعة بعينها من بني الإنسان، بصرف النظر عن الكثرة العددية لهذه المجموعة البشرية، أو قيمتها من الناحية الحضارية». ثم يضيف إلى هذا التعريف قوله: «إننا نستطيع أن نعد من اللغات بقدر ما نستطيع أن نعد هذا العالم من مجموعات بشرية، يختلف بعضها عن بعض في وسائل التفاهم بالنطق، بحيث لا يستطيع الواحد من أبناء

(١) وقد عني اللغويون الغربيون بتقدير الجرعات القاتلة للغة من الدخيل الأجنبي، فوجدوا أن الأساء أقلها خطراً، وتستطيع اللغة أن تهضم منها القدر الكبير جداً. أما الأفعال فإن أقل من ربع نسبة الأساء يكفي لقتل اللغة لأن الفعل يتصرف وتشتق منه ألفاظ كثيرة ولا يبقى وحدة محايدة كالاسم بل يعمل في غيره. وأما الحرف فأشدها خطراً لأنه أهم ضوابط الفكر قبل التعبير.

Antoine Meillet et Marcel Cohen: les langues du monde, Paris 1952, p. 14.

(٢)

مجموعة منها أن يتفاهم مع أبناء مجموعة أخرى إلا بعد تلقين وتعليم». وجدير بالذكر هنا أن نشير إلى أن تعريف العرب لها هو أنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»، وهو تعبير صاحب القاموس، أما الشارح فيذكر تعريفاً آخر وهو أنها «الكلام المصطلح عليه بين كل قبيل».

والغريب في لفظة «لغة» أنها لم ترد مستعملة في كلام عربي يعتد به؛ وإنما كانت العرب تسمي مجرد الضوضاء التي لا طائل من ورائها لغواً، وجاء من ذلك الفعل ألغى، يُلغى، بمعنى أبطل، أي اعتبر ذلك لغواً؛ ولذلك فقد اختلف في اشتقاقها، وحار بعض الأعراب في جمعها، يقول ابن منظور بعد أن ذكر في تعريفها ما ذكره صاحب القاموس، «وهي فُعْلة، مِنْ لغوت - أي تكلمت، أصلها لغوة، ككرة، وقلة، وثبة، وكلها لاماتها واوات؛ وقيل أصلها لَغَى أو لَغَو، والهاء عوض، وجمعها لَغَى مثل برة وبُرى، وفي المحكم: الجمع لغات ولغون. قال ثعلب: قال أبو عمرو لأبي خيرة، يا أبا خيرة سمعت لغاتهم (بكسر تاء لغاتهم) فقال أبو خيرة وسمعت لغاتهم (بالفتح)، فقال أبو عمرو. يا أبا خيرة، أريد أكثف منك جلدًا، جلدك قد رق. ولم يكن أبو عمرو سمعها ومن قال لغاتهم بفتح التاء، شبهها بالتاء التي يوقف عليها بالهاء»^(١).

فالعرب الخالص لم يكونوا يستعملون كلمة لغة في كلامهم، وإنما كانوا كغيرهم من الأمم السامية، بل كأكثر أمم الدنيا، يستعملون كلمة لسان للدلالة على اللغة، وهكذا يضطرد الأمر في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِي مُبِينٌ﴾^(٢)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾^(٣)، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِي مُبِينٍ﴾^(٤)، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَأْنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٥).

(١) لسان العرب، لابن منظور مادة (ل. غ. و).

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٣. (٤) سورة الشعراء: الآية ١٩٥.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٤. (٥) سورة الروم: الآية ٢٢.

وأصل اللسان هو عضو الذوق والنطق الموجود في الفم، وقال اللغويون إنه يذكر ويؤنث، فمن ذكر جمعه على ألسنة، مثل حمار وأحمرة، ومن أنث جمعه على ألسن مثل ذراع وأذرع، وورد جمعه على لسن بضم وسكون مخففاً عن لسن بضمين مثل كتاب وكتب. قال اللغويون: واللسان اللغة، ويقول شارح القاموس إن اللفظة في هذا الاستعمال تؤنث لا غير^(١)، واستعمل اللسان مؤنثاً بمعنى الرسالة، قال أعشى باهلة:

إني أتني لساناً لا أسربها من علو لا عجب منها ولا سخر
ومثله قول الشاعر:

أتني لسان بني عامر أحاديثها بعد قول نُكِر
وواضح في البيتين أن الرسالة التي يتحدث عنها الشاعر لم تكن رسالة مكتوبة، وإنما شفوية يحملها متكلم عن مرسلها، ولذا قال اللغويون «واللسان المتكلم عن القوم».

وإننا ونحن لا نجد شاهداً واحداً على استعمال العرب لكلمة لغة بهذا المعنى العلمي الذي نعنيه، ونظراً لما بدا من اضطراب اللغويين في اشتقاقها، وتردد الأعرابي في ضبط جمعها، لنميل إلى القول بأنها من أصل يوناني هو كلمة «لوغوس»^(٢) التي معناها الأصلي «كلمة» و«كلام». وذكر المختصون من استعمالاتها في اليونانية الوحي، والحكم، أو الحكمة، أو المثل، أو المثال، أو القصة، أو المقالة، أو القضية المنطقية، أو التعريف، أو التفكير... إلخ. وكل هذا كما نرى يحوم حول التعبير اللفظي عن الفكر. لكن متى دخلت هذه الكلمة إلى اللغة العربية؟ لا ندري. ومن المحتمل أنها جرت على الألسنة بين بعض قبائل العرب حتى قبل الإسلام، ولكنها لم تكن إذ ذاك في أسماعهم من النبيل والطين، بحيث تستحق أن تستعمل في الشعر أو الخطب أو غيرها من فنون

(١) كيف يكون هذا وقد قال الله تعالى ﴿بلسان عربي ميين﴾ بتذكير الصفة؟

القول الاحتفالي الذي كان العرب يدققون في انتقاء الألفاظ له. ومهما يكن من شيء فنحن لا نقول ذلك لنطرد لفظة «اللغة» من اللغة، وإنما هي ملاحظة كان ينبغي أن يقف عليها الباحث فيما يتصل باللغة.

٢ - اللهجة :

يقول أنطوان ميه في كتابه السابق^(١): «إن كل جهاز كامل للتفاهم بالنطق، أي كل لغة، تتعرض لأن تنقسم المجموعة البشرية المتكلمة بها إلى جماعات جزئية يشعر كل منها بأن له في استعمال هذه اللغة ذوقاً خاصاً متميزاً من الناحية الصوتية ومن ناحية الصرف والتركيب والدلالة يعرف به، ويسهل من خلاله تمييزه ونسبته إلى جماعته الجزئية الخاصة. وهكذا تعرض للغة نفسها تقسيمات فرعية تبعاً لتقسيم المتكلمين بها إلى جماعات صغيرة، مع دخول الزمن عاملاً أساسياً في هذا التطور. ويعرف كل قسم فرعي في داخل اللغة الواحدة باسم اللهجة. ومن الملاحظ، في التطور اللغوي التاريخي، أن أية لغة نعرفها الآن قد بدأت حياتها كلهجة من لغة أخرى أقدم منها. وهكذا يصعب على علم اللغة أن يضع حدوداً مضبوطة تمام الضبط لامتداد مدلول كلمة لهجة، وأقرب الحدود منلاً هو أن يقال: إنه إذا كانت مجموعة من اللهجات تنتمي إلى لغة أم، وكانت هذه اللغة الأم نفسها ما تزال على قيد الحياة، شائعة الاستعمال، فإن أية واحدة من فروعها غير جديدة بأن تسمى لغة، إلى أن تموت اللغة الأم نفسها؛ فحتى ذلك الوقت يسمى كل فرع من فروعها لهجة؛ ومن ذلك اللهجات العربية. ومنها قديم مات بينما اللغة الأم ما زالت حية، وحديث هو هذه اللهجات العامية التي تعيش بجانب العربية الفصحى.

وإذا كانت «اللغة» من حيث الاشتقاق تثير مشكلة، وتدعو إلى التردد، فإن كلمة «اللهجة» فصيحة أصيلة، وهي بسكون الهاء وفتحها، وأصل معناها طرف اللسان وجرس الكلام، ولهجة الإنسان لغته التي جبل عليها فاعتادها

(١) نفس المرجع.

ونشأ عليها. قال ابن منظور واللهجة اللسان، وهو يقصد اللسان بمعنى الحديث والكلام، والدليل على ذلك استشهاده بقول رسول الله ﷺ:

«ما من لهجة أصدق من أبي ذرٍّ» وقوله: «أصدق لهجة من أبي ذر».

٣ - اللحن أو اللغية:

اللحن في الأصل هو نغمة في المسموعات تميزها، قال شارح القاموس: اللحن من الأصوات المصوغة الموضوعة، وهي التي يرجع فيها ويضطرب، قال يزيد بن النعمان:

لقد تركت فؤادك مستجناً مطوّقةً على فنن تغنّي
يميلُ بها وتَرْكَبُهُ بِلَحْنٍ إذا ما عنَّ للمحزون أنا
فلا يحزنك أيام تَوَلَّى تذكّرها ولا طير أرنا

وفلان لا يعرف لحن هذا الشعر، أي لا يعرف كيف يغنيه، جمعه ألحان ولُحُون، يقال هذا لحن معبد، وألحانه، وملاحنه، لِمَا مَالَ إليه من الأغاني واختاره، وقال الشاعر:

وها تَفِينِ بِشَجْوٍ بعدما سَجعت وَرَقَ الحمام بترجيع وإرنان
بَاتَا عَلَى غُصْنٍ بَانَ فِي ذُرَى فَنَنْ يُرَدِّدَانِ لُحُونَا ذَاتَ أَلْوَانِ

ولُحْنٌ في قراءته تلحيناً طَرَّبَ فيها وغرَّدَ بالحن. والغريب في الأمر هو أن اللحن بالحناء المنقوطة هو قبح الكلام، وروى ذلك أبو عمرو، واللحن في الروائح هو التّن، وفي الطعوم فساد المذاق، وفي الألوان كل يقع بيضاء تعيب الجلد. واللحناء صفة سوء تميز المرأة، قال شارح القاموس: رجل ألحن وأمة لحناء، لم يُحْتَنَا، ومنه حديث ابن عمر: «وابن اللحناء»، ومع ذلك فالعنى الدقيق هنا فيه خلاف؛ قيل: هونتَن في الرائحة يكون في الجسم كله أو بعضه، وقالوا: إن ابن اللحناء معناه دنىء الأصل أو لثيم الأم. والأصل في اللحناء أنها المرأة التي تقوم بالخدمة فيما يُستقذر عند الناس، والكلمة في هذا المعنى تقريباً وردت

خاصة بالخدمة باللغة الآرامية، حيث تعني كلمة (لحينة، لَحِنتًا) الجارية التي تقوم بالخدمة، وكذلك الأمة التي يتسرى بها الرجال، هذا، ولا تفوتنا الإشارة هنا أن مادة لحن ولحن تتصلان بمادة أخرى هي «لعن» التي تستعمل في ما يستقبح من صياح الناس بالسباب أو الدعاء بعض على بعض، وهي في الآرامية والعبرية كانت أولاً المرارة في الطعم.

ويبدو من ذلك أن القدر المشترك من الدلالة هوشية مميز في السمع أو البصر أو السلوك الأخلاقي، والأصل فيه أنه مميز بما لا يستحب، وبقي منه في مادة (لحن) استعمال اللحن بمعنى الخطأ وترك الصواب في القراءة والنشيد ونحو ذلك، وقيل: هو ترك الإعراب، وبه فسر قول عمر رضي الله تعالى عنه: تعلموا اللحن والفرائض. وفي حديث أبي العالية: كنت أطوف مع ابن عباس رضي الله تعالى عنها: وهو يعلمني لحن الكلام. قال أبو عبيد: وإنما سمّاه لحناً لأنه إذا بصّره بالصواب فقد بصره باللحن. قال شمر: قال أبو عدنان: سألت الكلبيين عن قول عمر هذا، فقالوا: يريد به اللغو، وهو الفاسد من الكلام، وبه فسر قول أسماء الفزاري:

وحديث ألذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطقٌ رائعٌ وتلحنُ أحيا نأ، وخير الحديث ما كان لحنا

أي أنها تخطيء في الإعراب، وذلك أنه يستملح من الجواري ذلك إذا كان خفيفاً، ويستثقل منهن لزوم مطلق الإعراب. ومن ذلك استعمال اللحن بمعنى اللغة، قال شارح القاموس: واللحن اللغة، بني كلاب، وبه فسر قول عمر رضي الله عنه تعلموا اللحن في القرآن أي تعلموا كيف لغة العرب فيه، الذين نزل القرآن بلغتهم. قال أبو عدنان: وأنشدني الكلبي:

وقوم لهم لَحْنٌ سوى لَحْنِ قَوْمِنَا وشكلٌ وبَيْتُ اللَّهِ لَسْنَا نُشَاكِكُهُ

قال: وقال عبيد بن أيوب:

أَتَتْنِي بِلَحْنٍ بَعْدَ لَحْنٍ وَأَوْقَدْتُ حَوَالِي نِيرَانَا تَبُوخَ وَتَزْهَرُ

وفي الأساس يقال: هذا ليس من لحن ولا من لحن قومي، أي من نحوي، وميل الذي أميل إليه وأتكلم به، يعني لغته ولسنه، ومنه تعلموا الفرائض والسنة واللحن، قلت: ويروى والسنن، وهو قول عمر رضي الله تعالى عنه. وقال الأزهري في تفسير قوله: تعلموا اللحن في القرآن، أي لغة العرب في القرآن، واعرفوا معانيه وكقوله أيضاً: أُبَيُّ أَقْرُونَا، وإِنَّا لَنرغب عن كثير من لحنه، أي من لغته، وكان يقرأ (التابوه). ومنه قول أبي ميسرة في قوله تعالى: فأرسلنا عليهم سيل العرم. قال: العرم المسناة، بلحن اليمن، أي بلغتهم، وقد لحن الرجل: تكلم بلغته.

واللحن: الرمز والإشارة الملحوظة التي يفهمها اللبيب، ومنه قول القتال الكلابي:

ولقد لحت لكم لكي ما تفهموا ووحيت وحيّاً ليس بالمرتاب

وفي الحديث: إذا انصرفتما فالحنا لي لحنًا، أي أشيرا إليّ ولا تفصحا، وَعَرَضَا بما رأيتما. أمرهما بذلك لأنها ربما أخبرا عن العدو بياس وقوة، فأحب أن لا يقف عليه المسلمون، وبه فُسِّرَ أيضاً قول أسماء الفزاري المتقدم. وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، أي فحواه ومعناه، وقيل: أي في نيته وما في ضميره؛ وروى المنذري عن أبي الهيثم أنه قال: العنوان واللحن بمعنى واحد، وهو العلامة تشير بها إلى الإنسان ليفطن بها إلى غيره، وأنشد:

وتعرف في عنوانها بعض لحنها وفي جوفها صمعاء تحكي الدواهي

واللحن أيضاً الميل يقال لحن إليه أي مال إليه، واللحن كذلك الفهم والفطنة والانتباه، واللاحن العالم بعواقب الكلام. وقد لخص ذلك شارح القاموس بقوله: أن للحن سبعة معانٍ: الغناء - واللغة - والخطأ في الإعراب - والميل - والفطنة - والتعريض - والمعنى.

ومن طريف المجاز قولهم: قدَحَ لاحن، إذا لم يكن صافي الصوت، وهذا يأتي من سوء صناعته أو من أنه مشعور.

واللحن عند اللغويين هو قسم أو فرع صغير من فروع اللهجة يختص بإقليم معين أو مدينة أو بشعبة من قبيلة؛ فاللهجة المصرية لهجة واسعة الحدود، أما نطق أهل الإسكندرية أو القاهرة أو الصحراء الغربية فكل منها لحن أولغة (تصغير لغة) بالنسبة للهجة أو حتى للغة، وهي تتميز باختلافات في الحركات أو في النبرة الرئيسية وموضعها على الكلمة أو في نطق بعض الحروف، أو في قواعد أو استعمالات للألفاظ محلية ضيقة الحدود.

٤ - اللغات الميتة:

وهي اللغات التي انطفأت ولم يعد يتحدث بها أحد وهي نوعان:
(أ) لغات أدركت عصر الكتابة ثم ماتت ووصلتنا نصوص مكتوبة ونقوش أثرية منها. ومن أمثلتها: المصرية الفرعونية، البابلية الآشورية، السنسكريتية، اللاتينية.

(ب) لغات عاشت وماتت دون أن تعرف الكتابة، فاندثرت مع المتكلمين بها، وأصبحت لا تعرف إلا افتراضاً وعن طريق أبحاث مقارنة في علم اللغة وفقه اللغة، وأشهر هذه الفصيلة من اللغات المجهولة أو المندثرة اللغة السامية الأم، التي عاشت وماتت قبل اختراع الكتابة فلم يصلنا شيء من نصوصها. وكل لغة حية إنما هي في نهاية الأمر وليدة لغة ميتة سابقة لها، معروفة أو غير معروفة، وكانت في حياة اللغة الأم التي أنجبته لا تعدو في البداية أن تكون لهجة منها، كالفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية بالنسبة للاتينية، وكالعربية والبابلية والآشورية والسريانية والعبرية بالنسبة للسامية الأم، مع ملاحظة أن بعض هذه اللغات الوليدة ذاتها كان حياً، ثم أصبح الآن بدوره في عداد اللغات الميتة، كالبابلية الآشورية والسريانية.

٥ - اللغة الأم:

وهي اللغة التي عنها تشعبت عدة لغات أخرى. وهذا الاعتبار هو الذي حدا بعلماء اللغة إلى القول بانتفاء اللغات إلى عائلات أو مجاميع تنحدر كل مجموعة منها من أصل واحد. وإذا كانت اللغة لا تنتمي إلى مجموعة معروفة،

ولم تترك لها مواليد من اللغات أو اللهجات، وصفت - ولو مؤقتاً - بأنها (لغة معزولة، أو عازلة) كاللغة الألبانية، والإيتروسكية، ولغة الباسك، واللغة الشوميرية في العراق القديم.

٦ - الكتابة:

الكتابة من أهم الاختراعات التي قام بها الإنسان، وهي عبارة عن تحويل الرموز المسموعة في الأذن إلى رموز مرئية بالعين، وقد مرَّ هذا الاختراع بمراحل وخطوات كثيرة في سبيل تيسيره وتحسينه. وهذه المراحل تتخلص في ثلاث:

(أ) الكتابة التصويرية: وهي أقدم طرق التعبير البصري عن الكلام المسموع، وفيها يكتفي الكاتب برسم مدلول الكلمات الواحدة تلو الأخرى، فالرجل يعبر عنه بصورة رجل، والتضرع يعبر عنه بصورة يد ترتفع وتتقدم إلى الأمام، والأكل يعبر عنه بيد تمتد إلى الفم، والماء يرمز إليه بأموج متتابعة وهكذا. وهذه الكتابة هي التي تسمى بالكتابة الهيروغليفية عند المصريين الفراعنة، والحيشين في آسيا الصغرى، والشوميريين بداية تاريخهم. وهي كتابة تطورت نحو تبسيط الصور وتوحيدها وزودت بإشارات بصرية لإضافة مزيد من تحديد المعنى. وكثير من هذه الإشارات وظيفته نحوية صرفة ولا يقرأ أو ينطق، كالإشارات التي تبين المذكر من المؤنث، والمفرد من الجمع، والتي تميز الآلهة من البشر ونحو ذلك.

(ب) الكتابة المقطعية: وهي خطوة متقدمة في الحضارة بالنسبة لسابقتها. إذ فيها اكتشف الإنسان أنَّ الألفاظ التي ينطقها تتكون من مقاطع، هي وحدات صوتية صغيرة تسيطر عليها حركة واحدة. فكل كلمة مقعد تتكون من مقطعين: مق + عد، فيضع الكاتب لكل من هذين المقطعين علامة اصطلاحية يستعملها في جميع الكلمات التي يرد فيها نفس المقطع، فالإشارة الدالة على المقطع (مق) يكتب بها في كلمة مقدس، مقبرة، مقطع، أحق، أعمق... إلخ. ومن أشهر الكتابات المقطعية القديمة الخط المسماري، الذي كان يستعمل هذه الإشارات المقطعية منقوشة على ألواح من الطين في العراق وإيران وغيرهما من بلدان

الشرق الأوسط القديمة. ومن الكتابات المقطعية التي ما تزال حية مستعملة الكتابة الصينية. أما الكتابة الحبشية فهي مقطعية متقدمة نحو الأبجدية.

(ج) الكتابة الأبجدية: تدرج الفكر التحليلي للإنسان من الكلمة برمتها، في الكتابة التصويرية، إلى المقطع الذي هو وحدة صوتية مستقلة داخل الألفاظ، في الكتابة المقطعية، إلى أن وصل إلى التمييز بين الحروف والحركات، وبدأ يراقب جهازه الصوتي، وعدد ما يخرج من أنواع الحروف بصرف النظر عن الحركات، فعرف أن لغته تقوم على عدد قليل نسبياً من الحروف الساكنة، فأراد أن يسجلها.

وانبثقت الفكرة في أكثر من مكان في آن واحد، اكتشفها الكنعانيون في «رأس الشمرة» بالقرب من اللاذقية في سوريا، فاستعاروا الكتابة المسمارية وطوّروها وطوّعوها لنظام أبجدي دقيق. كذلك حاول المصريون أن يصلوا بكتابتهم إلى المرحلة الأبجدية، ولكن كانت الكتابة بعدُ بحاجة إلى تفكير جديد. فالطريقة الكنعانية المتطورة عن المسمارية إلى الرسم الأبجدي، كانت ما تزال تعتمد على نقش العلامات على ألواح الطين، وهي طريقة غير عملية، لثقل حمل النصوص المكتوبة، ولخطر تعرضها للرطوبة الذي لا يؤمن منه إلا بإحراقها وتحويلها إلى فخار وهو عملٌ كثير المشقة والتكاليف، ويحتاج إلى وقت طويل. أما الطريقة المصرية فكانت طريقة أرستقراطية تحتاج إلى كاتب فنان وإلى أنواع من ريشة الكتابة دقيقة الصنع، وإلى ورق خاص وأنواع معينة من الأحبار والأصباغ.

وفي هذا الوقت كان الفينيقيون في لبنان قوماً من البحارة محتاجين إلى كتابة عملية وسريعة، ليس فيها ثقل ألواح الطين، وخطورة تعرضها لماء البحر فوق السفن، وليس فيها كل التأنق الذي يحتاج إليه الكاتب المصري الفرعوني ربيب الكهنة وخادم الملوك والآلهة. وهكذا التقط أولئك الفينيقيون في لبنان فكرة الأبجدية وحاولوا أن يصلوا بها إلى مزيدٍ من التيسير؛ فكان من أوائل الأبجديات التي ظهرت في هذه المنطقة الأبجدية «شبه التصويرية» في مدينة جبيل إلى الشمال من

بيروت ثم ظهرت جنوبي بيروت في منطقة صور أبجدية نهائية فرضت نفسها على أكثر بقاع العالم المتحضر، فأخذها اليونان، ومنهم انتشرت في جميع أنحاء أوروبا، وأخذها الآراميون فنشروها في جميع أنحاء آسيا حتى حدود الصين؛ وتلقاها العبريون، والمؤابيون، والسريان، والنبط، والعرب. ومعهم انتشرت في جزء كبير جداً من إفريقيا وجزائر المحيط الهندي. وتعرضت الكتابة الأبجدية لتحسينات بحسب طبيعة اللغات التي استعملتها؛ فالأوروبيون جعلوا حركات الضبط من صميم الأبجدية، بينما جعلها العرب والعبريون والسريان زوائد وعلامات توضع فوق الحروف أو تحتها، وهو أكثر ملاءمة لطبيعة لغاتهم التي تعتمد على الحروف الساكنة فقط، دون الحركات، عند التصريف والاشتقاق.

وكان اختراع الكتابة سبباً في ظهور اتجاهات لغوية جديدة لم تكن معروفة قبل أن يتعلم الإنسان تخليد أفكاره وتثبيتها في وثائق مكتوبة. فمع الكتابة ظهر الحرص على سلامة التركيب ووضوح الدلالة وإحسان التنسيق والتقسيم والعمل على تنقية التعبير من الحشو والفضول وتصفيته من الشوائب. إذا أخذ الإنسان بالقلم وشرع يكتب أحس بأن الكلام لم يعد طائراً في الهواء، بل هو باقٍ محفوظ، وكتبه مسؤول عنه طول حياته بل بعد مماته. وهو بهذا، تحت عامل نفساني بحث، يسعى إلى ألا يثبت بالقلم إلا ما يشرفه، ويكون وسيلة لانتزاع حكم طيب عليه من القارئ.

وبالاختصار فإن اللغات المكتوبة تكاد تكون مرادفة للغات الأدبية، أو لغات الثقافة، ويقابل ذلك في أقصى الطرف الثاني اللغات الدارجة أو العامية. وهناك سبب آخر في وجود فرق كبير بين اللغات المكتوبة والدارجة، ففي الأخيرة يستعين المتكلم بالحركات والإشارات والنبرات الصوتية على إكمال دلالاته المنطوقة وتحديداتها وتوضيحها، أما الكاتب فهو لا يملك كل هذه المؤثرات التكميلية، ولذا فهو يتوخى أن يكون ما يثبته بالكتابة مستغنياً عن كل هذه المؤثرات، وبهذا يتفاضل الكتاب، ويعلو أسلوب على أسلوب.



البَابُ الثَّانِي
تَصْنِيفُ اللَّغَاتِ

تصنيف اللغات

فرغنا في الباب الأول من عرض أهم ما يتعلق بما يسمى بالظاهرة اللغوية، مع ذكر العوامل التي تؤثر في تطور اللغات. والظاهرة اللغوية ذاتها تقدم للباحث في علم اللغة حقائق واقعة، عليه أن يتعمق كنهها وأن يخلصها بالبحث، وفي مقدمة ذلك تنوع لغات البشر وتعددتها، لدرجة أنه يكاد يكون من المستحيل إحصاء جميع اللغات واللهجات واللغيات المحلية التي يستعملها النوع الإنساني الآن فضلاً عن الإحاطة بذلك منذ بدء الخليقة.

فاللغات المستعملة الآن ما يزال بعضها كامناً في بقاع نائية من مجاهل الكرة الأرضية، لم يتصل الناطقون بها بنظام التبادل الفكري الحديث، فبقيت بعض لغاتهم ولهجاتهم غير مكتوبة ولا مدروسة ولا مسجلة. واللغات القديمة فيها لغات مندثرة مع الأمم التي تكلمت بها. بادت هذه الأمم قبل أن تعرف الكتابة، وبادت معها طرقها في التعبير، بل هناك لغات وصلتنا كتابات تصويرية منها. ولكننا لا نعرف على وجه التحقيق كيف كانت تنطق ولا كيف كان نظامها في النحو وصياغة الألفاظ والجهل، ومن أشهر هذه اللغات الأتروورية في إيطاليا والأوراتو في شمال العراق. ومع ذلك فإن معرفة المحدثين من علماء اللغة بالنظم المختلفة التي تهيمن على ألسنة البشر قد تقدمت تقدماً كبيراً بفضل الكتابة، والطباعة، وتنوع وسائل المواصلات، وسرعتها، واختراع الوسائل الآلية للتسجيل الصوتي. كل ذلك أتاح لعالم اللغويات الحديث مادة ضخمة يستطيع من خلالها أن يصنف اللغات، إن لم يكن على وجه الحصر والإحاطة

الكاملة فهو على الأقل جهد يصف معظم ما نعرف من اللغات، ويحدد العلاقات المختلفة القائمة بينها، بما يكفل للدارس فكرة واضحة عن هذا المظهر الحضاري الكبير، وهو تعبير الإنسان عما يدور في فكره بلسانه. يقول «جان بيروه»^(١): إنه من العسير إحصاء اللغات المعروفة في الوقت الحاضر. والصعوبة التي نرتطم بها تأتي أولاً من الناحية النظرية، فالكلمة الاصطلاحية «لغة» تتضمن حقيقة معقدة ليس من السهل تعيين حدودها: أين تنتهي اللغة وأين تبدأ اللهجة؟ وأين تنتهي اللهجة ويبدأ اللحن أو اللغية؟ كل هذا في دنيا الأمر الواقع ما يزال عائماً، وليس هناك فيصل يساعد على التمييز النهائي، والتقسيم الواضح الحاسم. ثم إن المعلومات الوثيقة ما تزال تنقصنا في كتل كاملة، ومعقدة جداً، من التعبير الإنساني سواء في إفريقيا أم في أمريكا، الأمر الذي يجرمنا من إنجاز تعداد دقيق. وبناء على ذلك فإن الجهود الاحصائية لن تستطيع والحالة هذه، أن تطمح إلا إلى أرقام تقريبية، ربما كانت لا تغطي كل ما يسمى «لغة» بقدر ما تنسحب على أشكال وألوان من الألسنة واللهجات واللغيات.

وفي هذه الحالة يكون الرقم الذي يقدمه اللغويون قريباً من الواقع، ومع ذلك فهم مختلفون فيه بين ألفين وخسمائة من الألسنة واللغات وثلاثة آلاف وخسمائة.

وهذا العدد يضم لغات لا يمكن أن يقارن بعضها ببعض من حيث الأهمية: ففي إحصاء نشره الباحث اللغوي إ. تينير في عام ١٩٢٨م يتبين أن هناك تسعاً وعشرين لغة فقط في العالم يستعمل كلاً منها مجتمع يزيد على العشرة ملايين من الأنفس، وفي مقدمة ذلك الصين. ويبدو أيضاً أن اللغات التي لها ثقافة وأدب، يعتد بها أولاً، هي خمسون لغة في العالم كله، لا تكاد تتجاوز هذا العدد. أما اللغات ذات الأهمية العالمية من حيث سعة إنتشارها

أو قيمة تراثها المكتوب فإنها لا تصل إلى نصف هذا العدد.

ومنذ القرن الماضي ونحن نشهد تطوراً في لغات معينة. فالحركات الوطنية التي انبثقت في ذلك الوقت ساعدت على ازدهار لغات وطنية لم يكن معترفاً بها بصورة كاملة من قبل، كاللغة التشيكية واللغة المجرية. وفي الوقت الحاضر كان قيام جمهورية إندونيسيا في جنوب شرق آسيا سبباً في استقلال إحدى لهجات الملايو وجعلها لغة لإندونيسيا تهيم على أمور الحضارة بين أكثر من سبعين مليوناً من الناس. وشبه بذلك اصطناع الصهيونية لصورة متطورة للغة العبرية وجعلها لغة رسمية لإسرائيل. ويبدو أن اللسان «الهندي» الذي ما يزال لهجة من لهجات الهند مقدر له أن يكون اللغة القومية للهند الجديدة.

وفي إفريقيا تشقُّ لهجة «الهاوسا» طريقها لتصير لغة قومية في حوض النيجر، وهو نفس ما تفعله اللهجة «السواحلية» في شرق إفريقيا.

ومهما يكن من شيء فإن معظم اللغات المستعملة بين البشر الآن، والتي عرف المستكشفون المجتمعات المتكلمة بها، قد وصفت وسجلت على نحو من الدقة يزيد وينقص. والعقبات الحقيقية التي تقف في وجه علماء اللغات هي اللغات الميتة: ففي عائلة اللغات الهندية الأوروبية ما تزال مشاكل معينة مطروحة على بساط البحث تنتظر التفسير، فقد وجدت في البلقان ومنطقة البحر الأسود مجموعة لغوية تكاد تكون غير معروفة هي المجموعة «التراقية، الفريجية». واللغة التراقية القديمة نفسها ما تزال إلى الآن شبه مجهولة، مثلها مثل الكتابات «الايبيرية» التي تسجل لغة أمة سكنت شرقي أسبانيا وامتدت شمالاً على الساحل الفرنسي حتى نهر الرون، قبل الاحتلال الروماني لهذه الجهات. وهي أيضاً لغة تكاد تكون غير مفهومة منا. واللغة القبرصية قبل اليونان هي أيضاً لغز من الألغاز. ونفس الغموض يحيط بنقوش معينة في آسيا الصغرى قبل الأتراك وقبل الروم وقبل اليونان بل قبل الحثيين. كل ذلك يضاف إلى اللغة الأترورية. ومن الكتابات التي ما تزال سرّاً مبهماً لم تحل طلاسماها حتى الآن الكتابة الكريتية القديمة التي تسمى بين اللغويين

«الأتيوكريتية» أو «المينووية» التي ترجع إلى الألف الثاني قبل ميلاد المسيح .
وهناك لغات مندثرة منها عدد معين في آسيا الصغرى تضاف إلى هذه العقد
اللغوية ، وتجعل أمر الوصف والتصنيف للغات البشر تقريباً وغير كامل .

ومع ذلك فليست الصورة كلها معتمدة بهذا الشكل ، فهناك لغات قديمة
كثيرة معروفة لدينا بشكل دقيق أو قريب من الدقة ، منها :

١- لغة شومر : وهم أمة سكنت جنوبي العراق حول الخليج العربي
وتركت لنا آثاراً مكتوبة يرجع أقدمها إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد .
وقد بلغ من قوة هذه اللغة أنها لم تمت نهائياً بعد غزو الساميين الأقدمين
«الأكاديين» للعراق ، بل عاشت قروناً طويلة في ظلهم ، لغة للعلم
والدين والثقافة .

٢ - لغة أكاد : منذ النصف الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد بدأ
زحف الساميين من جزيرة العرب نحو سهول العراق ، فعاشوا أولاً بجانب
الشومريين ، وتعلموا كتابتهم وتدينوا بدينهم وتكلموا بلغتهم ، كما أنهم سجلوا
اللغة الأكادية منذ ذاك الوقت نفسه ، وابتلعوا الشومريين سياسياً وعنصرياً .
فاستمرت اللغة الأكادية حية متطورة في صورة اللغة البابلية الآشورية ثم
الكلدانية ، وظلت تصارع عوامل الموت حتى بعد سقوط نينوى عاصمة
الآشوريين أمام الغزو الفارسي بقيادة قورش سنة ٥٣٨ قبل الميلاد ، فامتدت بها
الحياة بين الكهنة والعلماء والفلكيين والأطباء والمنجمين ، بل بين بعض
طبقات الشعب ، إلى ما قبل ميلاد المسيح بقليل .

٣ - اللغة المصرية الفرعونية : وتبدأ وثائقها كذلك من الألف الرابع
قبل الميلاد ، ثم تستمر في صورة أخرى بعد انتشار المسيحية في مصر ، هي اللغة
القبطية التي لم تستطع اليونانية على عهد الاسكندر والبطالسة ، ولا اللاتينية
في ظل الاحتلال الروماني ، أن تمحوها ، ولم تقلص إلا أمام الفتح الإسلامي
الذي أقر اللغة العربية بصورة نهائية في البلاد .

٤ - اللغة الحيثية في آسيا الصغرى: التي تغطي وثائقها الألف الثاني قبل الميلاد.

٥ - اللغة الصينية القديمة: وآثارها المكتوبة ترجع كذلك إلى الألف الثاني قبل الميلاد، ولكنها لا تنتهي في خلاله كما انتهت الحيثية بل تزدهر، وتكثر فيها الأعمال الأدبية الكبرى منذ الألف الأول قبل الميلاد، ثم تواصل تطورها الطبيعي وتظل على قيد الحياة إلى يومنا هذا، حيث تعتبر بحق من أهم اللغات الآسيوية الحية.

٦ - اللغة السنسكريتية: وهي لغة الهند المقدسة ترجع نصوصها الأدبية التي تعرفها إلى غزون الألف الأول قبل الميلاد.

٧ - اللغة اليونانية: وهي أيضاً معروفة لنا بنصوصها منذ الألف الأول قبل الميلاد، أي منذ عصر هوميروس الذي يقترن اسمه بالملحميتين العظيمتين: «الإلياذة» و«الأوديسة».

٨ - اللغة العبرية القديمة: لغة التوراة، وأسفار الأنبياء اليهود، وتراث الحكمة القديمة عندهم، وهي نصوص يرجع أقدم ما وصلنا منها مكتوباً إلى هذا الألف الأول قبل الميلاد نفسه.

٩ - اللغة اللاتينية: وهي أيضاً من هذا الألف الأول قبل الميلاد، ولكن الحياة استمرت بها إلى القرن الخامس عشر المسيحي، حيث بدأت القوميات تتبلور، وأخذت اللهجات المتفرعة عن اللاتينية تقوى حتى تغلبت عليها وقتلتها.

هذه الأمثلة المعدودة التي ذكرناها تبين أن اللغات القديمة ليست كلها مجهولة منا، بل إن قدراً كبيراً منها، ومن أهمها، مسجل معروف يجعل مشاكل التصنيف أقل خطورة مما يتصور بعض الباحثين. وهذا التصنيف يتبع طريقتين تتكاملان فيما بينهما:

(١)

تقسيم اللغات إلى فصائل بحسب طبائعها أو أنماطها

في هذا التقسيم نظر الباحثون في علم اللغة الحديث إلى اللغات، لا من حيث انتمائها إلى أصل معين هو اللغة الأم لكل مجموعة، ولا من حيث درجة القرابة بين لغات المجموعة الواحدة، بل من حيث الصبغة العامة التي تميز طريقة التعبير، أي من حيث النمط المتبع في صياغة الألفاظ (الصرف) وفي صياغة الجمل (النحو). وخرجوا من هذا بملاحظة أن لغات البشر تندرج تحت ثلاث فصائل:

١ - اللغات العازلة: ويمكن تسميتها اللغات الجامدة: وهي لغات موادها الأصلية عبارة عن وحدات ثابتة تتكون عادة من مقطع واحد، ثم عند الاستعمال توضع هذه المواد متتابعة حسب نظام نحوي مبني على ترتيب أماكن الكلمات في الجملة، دون المساس بأية مادة أو لفظة من هذه الألفاظ بتغيير إعرابي أو صرفي أو صوتي. ومن أمثلتها القديمة اللغة الشومرية في العراق، فالشومريون كانوا يستعملون ألفاظاً وحيدة المقطع، فكلمة بيت عندهم هي (أي)، والصفة التي معناها عظيم أو كثير هي (كَلْ) وكلمة رجل هي (لُو)، فكانوا ينطقون مثلاً (لُو - كَلْ) وواضح أن معناها الحرفي الرجل الكبير أو العظيم، وكانت هذه التسمية تعني عندهم الملك... والبيت الكبير الذي يعنون به المعبد كان يقال له (أي - كَلْ) وهي الكلمة التي انتقلت منهم إلى الساميين حتى أخذها العرب بلفظ «هيكل». ومن هذه الفصيلة في اللغات الحديثة اللغة الصينية وكثير من اللغات واللهجات القريبة منها في أواسط آسيا والشرق الأقصى.

٢ - اللغات الإلحاقية، أو الإلصاقية: وهي لغات تختلف عن الفصيصة الأولى بأن فيها مادة أصلية تتألف من مقطع أو أكثر، وتبقى كما هي بلا تغيير، ولكن يستعان فيها لتنويع الدلالات النحوية والصيغ الصرفية بزوائد، تلتصق بالمادة الأصلية على صورة سوابق (Prefixes) أو لواحق (suffixes). فمن عينات الفصيصة التي تستعين بالسوابق لغة «البانتو» في وسط أفريقيا. ولغة «التلنكيت» الأفريقيين أيضاً. ومن عيناتها التي تستعمل اللواحق لغة «الاسكيمو» ولغة الهنود الحمر من قبائل «الاجونكين» الذين تعيش فلول منهم الآن في كندا فقط، وكذلك اللغة التركية.

٣ - اللغات المتصرفة: وهي التي تتكسر فيها المادة الأصلية فتقبل السوابق (Prefixes) واللواحق (Suffixes) والمقححات (Infixes) التي تحشر في وسط البنية الأصلية؛ كما تقبل الإدغام والحذف في بعض الحروف، حسب نظام صوتي في كل لغة منها، لأجل تنويع الصيغ، وكذلك لتحديد الوظائف النحوية عن طريق علامات الإعراب. ومن أمثلتها اللغة العربية ولغات كثيرة من اللغات المعروفة الشائعة.

وبالرغم مما يبدو على هذا التقسيم من إحكام فقد هاجمه عدد كبير من العلماء، نذكر منهم ادوارد سابير الذي يقول^(١): إن هناك اعتراضين كبيرين يتجهان ضد هذا التقسيم: أحدهما، أن معظم اللغات لا تنتمي إلى فصيصة من هذه الفصائل بصورة خالصة نقية من الشوائب، بل تتأرجح بين فصيلتين منها أو بين الفصائل كلها؛ فاللغات السامية مثلاً كالعربية والعبرية والسريانية... إلخ، تنتمي إلى اللغات الإلصاقية والمتصرفة في آن واحد، فمادة «أكل» مثلاً في اللغة العربية يأتيها منها المضارع بإضافة «سابقة» هي حرف المضارعة وتغيير طبيعة الحركات إذ نقول يأكل، فإذا انتقلنا إلى الأمر من هذا الفعل وقع فيه الحذف، وقلنا كُلْ، وإذا جمعناه أضفنا «لاحقة» وقلنا:

كلوا، وإذا أتينا بجمع اسم المفعول منه قلنا: مأكولون بسابقة هي الميم، ومقحمة هي الواو بين الكاف واللام، ولا حقة للجمع هي الواو والنون.

أما الاعتراض الثاني فهو أن مثل هذا التقسيم من حيث الشكل يعتبر سطحياً، إذ إنه يجمع تحت فصيلة واحدة عدة لغات يختلف بعضها عن بعض تماماً من حيث الروح، لأن واضعي هذا التقسيم قد لاحظوا ببساطة شيئاً من وجه الشبه الخارجي البحت؛ فمما لا شك فيه أن لغة كمبوديا التي تستعمل السوابق والمقحمتات إنما تستعملها استعمالاً صرفياً محدوداً بتنوع المشتقات، على حين أن السوابق المستعملة في لغة البانتو أكثر سيطرة على الكلمة والجملة، إذ لها أهداف في النحو والتركيب وتحديد العلاقة بين الفكرة واللفظ. ويضيف سابير إلى ذلك أن التقسيم فاسد من حيث جمعه السوابق واللواحق تحت فصيلة واحدة لمجرد النظرة السطحية الخارجية أيضاً، على حين أن اللغات التي تعتمد اعتماداً أساسياً على السوابق تختلف من حيث الفكر اللغوي عن تلك التي تعتمد على اللواحق.

بناء على هذا يتبين من موقف سابير أنه يسم هذا التقسيم بالسطحية، أو النظرة البرانية، وبطبيعة الحال فقد انساق إلى أن يقترح محاولات أخرى للتقسيم والتصنيف منها هذه المحاولة:

يقول: إن جميع فصائل الكلام تعبر بالضرورة عن متصورات إنسانية، أو عن علاقات بين هذه المتصورات، ثم إن الألفاظ نفسها قد تكون جامدة في بعض اللغات، أي وحدات مستقل كل منها عن الآخر، وقد تكون من لغات فيها اشتقاق وتصريف، كذلك راح يبحث في الروابط في الاسناد: أهى صوتية ملفوظة، أو نظامية فقط، أي مجرد علاقات تركيبية فكرية يحددها مكان اللفظة من الأخرى. وحاول بناء على هذه الاعتبارات أن يقسم اللغات إلى لغات تحليلية، ولغات تركيبية، ثم لغات تعتمد على الاشتقاق، ولغات لا تعتمد عليه. ووصف وجهة النظر هذه بأنها نقية من سطحية التصنيف السابق، وأنها

«جوانية» أي تتعلق بروح الفكر اللغوي، لا «برانية» تتعلق بشكل الألفاظ والجمال فقط. ولكنه في النهاية أقرّ بأن تصنيفه هذا لا يمكن أن يضع حدوداً فاصلة واضحة المعالم بين اللغات بعضها وبعض، كما ذكر أن بعض اللغات يمكن أن يقع في تقسيمه وسطاً بين فصيلتين، الأمر الذي عابه على التصنيف الأول. ووصل به الأمر من ذلك إلى أنه أعلن أن أي تقسيم غطي لكلام البشر غير ممكن، لأن الكلام، شأنه شأن سائر مظاهر النشاط الإنساني، يختلف من مجتمع لآخر، بحيث يصعب إدخال طوائف معينة منه في نمط واحد وتحت فصيلة واحدة. ولخص أسباب صعوبة هذا التصنيف في أربعة:

(أ) ليست هناك نقطة بدء منطقية تفرض نفسها عقلاً عندما نشرع في هذا التصنيف.

(ب) إن تصنيف لغات البشر ولهجاته التي تعد بالآلاف تحت فصائل تعد على أصابع اليد أمر خطير جداً، ولا سيما إذا علمنا أن كل علماء اللغويات يجهلون معظم هذه الآلاف المؤلفة من اللغات.

(ج) إن هذا التصنيف هو ميل إلى التبسيط في مسائل من أشد الأمور تعقيداً، ومن السذاجة أن تحدد بطريقة ما، غالباً ما تكون تحكيمية بحتة: قطبين يتدرج التصنيف بينهما، نقطة بدء ونقطة انتهاء، أي ما نفترض كونه طرفي نقيض، كاللغة الصينية مثلاً من ناحية، واللغة اللاتينية من ناحية أخرى، ثم نحاول أن نحشر كل لغات البشر بينهما بشكل أو بآخر.

(د) الإسراف في الإيمان بفكرة التطور التقدمي التي قال بها الاجتماعيون في القرن التاسع عشر، ومحاولة اللغويين نقل هذه الفكرة إلى البحث اللغوي، إذ أكثرهم رأى أن اللغة اليونانية واللغة اللاتينية هما أرقى صور الكلام التي ظهرت بين البشر، وساعدهم على ذلك ارتباطهم منذ الطفولة بالتراث اليوناني واللاتيني في اللغة والتاريخ والحضارة، في المدارس التي تعلموا بها؛ فتلورت لديهم، وجدانياً لا عقلياً، حالة إعجاب أو تقديس لهاتين

اللغتين، وجعلوهما المثل الأعلى عند المقارنة والقياس، في حين أنه على محك النظر العلمي المتجرد ليس هناك أدنى دليلٍ على امتياز لغوي لليونانية أو اللاتينية.

وهكذا تظل مشكلة تصنيف النظم اللغوية عند البشر، من حيث إنها لغات ولهجات، وبصرف النظر عن الناطقتين بها، وعن أوطانهم وزمانهم ودرجاتهم في الحضارة، ويظل هذا التصنيف أمراً مشكلاً نتركه برمته لتفكير اللغويين، ونقنع منه فيما يتصل بنا بالتقسيم الذي لم يرض عنه سابير، فهو على ما فيه من عيوب، يعطينا إمكانات أمتن في البحث اللغوي التجريدي، كما أنه بسطحيته وبرائيته يقينا من المؤثرات الثانوية في حكمنا على الأنماط اللغوية كحالة الأدب أو التأليف أو وجود كتاب مقدس، أو غزارة الحكم والأمثال أو المأثورات الشعبية ونحو ذلك، مما يبهز الباحث فيشغله عن التركيز البحث على النوعية اللغوية فقط للكلام.

* * *

(٢)

تقسيم اللغات إلى عائلات لغوية

يعتبر تقسيم اللغات إلى عائلات أو مجاميع، كل مجموعة منها يبدو أنها منحدرة من أصل واحد، من أهم نتائج علم اللغة التاريخي. ولما كان علم اللغة التاريخي نفسه ودراسة تاريخ اللغات من المباحث الحديثة في اللغة، فقد جرت عادة الكتاب الغربيين على اعتبار أصول هذا التقسيم من مخترعاتهم، وأنها لم تبدأ إلا مع مقارنة اللغات الأوروبية بعضها ببعض. ويذكرون أن انتباه المفكرين في أوروبا إلى هذا التقارب بدأ بملاحظته في اللغات الرومية. (أي المنحدرة من اللاتينية) وذلك في أوائل القرن الرابع عشر حيث تعزى مقالة إلى الأديب الإيطالي دانتي (Dante) حول الألفاظ التي معناها «نعم» في اللغات الرومية ورجوعها جميعاً إلى أصول فصيحة في اللغة اللاتينية.

ومن القرن السابع عشر شغلت مسألة القرابة بين اللغات الرومية أذهان المفكرين. وبالرغم من الوضوح الشديد في سمات هذه القرابة، فقد ظلت موضع شك، بل إنكار، من فريق من العلماء، حتى كرسها البحث العلمي في القرن التاسع عشر فقط. وبالطبع سارت المقارنات اللغوية في البداية متعثرة جداً حتى إن ب. جامبولاري (P. Giambullari) حاول أن يربط لهجة بلده (فلورنسا) باللغة الكلدانية. أما ج. بريون (J. Péron) فربط الفرنسية باليونانية بصلات قرابة تاريخية وفكرية دون أن تكون ثمة سمات تشابه وتطور. والذي حاول هذه المحاولة هو إتيين (Estienne) في مؤلفه الذي عنوانه «رسالة في مطابقة الفرنسية لليونانية» (سنة ١٥٦٩) كما ربط نفس المؤلف (سنة ١٥٧٦) بين

الفرنسية واللاتينية في رسالة أخرى. وفي أواسط القرن السابع عشر ظهر كتاب «أصول اللغة الفرنسية» الذي ألفه مناج (G. Ménage) وطبقت شهرته أوروبا كلها. وقبل هذا الإسباني الدريتي (B. Aldrete) قد حاول دراسة مماثلة للعلاقة بين الإسبانية واللغة اللاتينية. وواضح أن هذه المحاولات في بدايتها كان مبعثها الرغبة في قتل اللغة اللاتينية. كان عصر النهضة الأوروبية الذي بزغت أنواره منذ القرن الرابع عشر قد أيقظ القوميات المحلية في أوروبا، وشجعها على أن تحاول أن تتعتع عن كاهلها نير الكنيسة ولو قليلاً، وأن تؤكد شخصياتها في أوطانها، فتحرر الفن التشكيلي، وتحرر الأدب فكتب عباقرة عصر النهضة آثارهم الخالدة لا باللاتينية الفصحى بل بلهجات عامية شعبية: دانتي وبتراش بوكاشيو ثم مكيافيلي في إيطاليا، ورابليه ومونتيني ورونسار في فرنسا، وسرفانتيس مؤلف الدون كيشوت في أسبانيا؛ فشأت حركة لغوية متضافرة مع روح النهضة، ومع هذه النزعة التحررية والرغبة الملحة في الخروج من العصور الوسطى، تدعو إلى النظر إلى اللهجات التي يكتب بها الأدباء في أوروبا على أنها مواليد شرعية للغة اللاتينية، وبالتالي فهي جديرة بميراثها، أي أن هذه الدراسة كانت فرعاً من الصراع الذي نشب بين الفصحى والعامية في أوروبا. وليس ينبغي مقارنة هذه الحالة بالعامية والفصحى في العالم العربي، فالإسلام ليست فيه بايوية، والتعايش السلمي بين العاميات والعربية الفصحى قد قرره التاريخ منذ عصر الجاحظ في الشرق وابن قزمان في الأندلس.

إذن فالقرن التاسع عشر هو الذي شهد في أوروبا، التأريخ للغات وتصنيفها في عائلات يبدأ سيراً منهجياً لم يعرفه من قبل، وهو وقت متأخر جداً بالنسبة لظاهرة كان ينبغي أن تشد أفتباه العلماء من قبل، فما السبب في ذلك؟ إلى جانب روح الصراع بين اللاتينية الفصحى وبناتها العاميات وما كان يمليه من نفور ومقاومة في حلقات العلم الرصينة المحافظة، كان هناك عامل آخر له صفة دينية. ذلك أن الكتاب المقدس الذي تدين به أوروبا كان أصله باللغة العبرية. وكان اليهود منذ حقبة التلمود قد أشاعوا أن هذه اللغة التي كلم الله

بها موسى لغة أبدية أزلية سماوية، نستطيع أن نقول إنها في اعتقادهم اللغة الرسمية لله. ووافقهم على ذلك آباء الكنيسة المسيحية، فظلوا حتى القرن السابع عشر يقولون: إنه ما دامت هذه اللغة هي لغة الوحي فإنه يترتب على ذلك ضرورة الاعتقاد بأنها اللغة الأولى للبشر التي عنها تفرعت جميع ألسنتهم، وإن كانت حكاية برج بابل التي وردت في سفر التكوين من التوراة تخفف كثيراً من سلطان هذه العقيدة. ومع ذلك فقد وُجد من يقول بأهمية العبرية للغات البشر، ومنهم جيشار (E. Guichard) الذي ألف في ذلك في أوائل القرن السابع عشر دراسة عن «النسق الاشتقاقي للغات المنحدرة من العبرية» ولكن الفيلسوف ليبنيز (Leibniz) يحمل على هذه العقيدة وعلى أشباهها حملة شعواء.

إلا أن النظرية البديلة التي قدمها ليبنيز لم تكن قد وصلت إلى حد الكمال، فهو يحاول أن يجعل لغات أوروبا وآسيا ترجع إلى أصل واحد، هو نفسه الذي يضم اللغة المصرية القديمة. ولكننا على كل حال نقرب شيئاً فشيئاً بهذا الشكل من اكتشاف اللغات الهندية الأوروبية وما بينها من صلات، وهي صلات لاحظ بعضها منذ القرن السادس عشر الإيطالي ساسيتي (Ph. Sasseti) والفرنسي كيردو (P. coeurdoux) والإنجليزي جونز (W. jones) بعد ذلك.

وتاريخ اللغات وتقسيمها إلى عائلات، إذا كان يرجع في أوروبا إلى القرن التاسع عشر، فإنه في الشرق العربي أقدم من ذلك بكثير. فاللغوي الفرنسي جان بيرو^(١)، يذكر في كتابه «علم اللغة» أن الإمام ابن حزم الأندلسي المتوفى في القرن الخامس الهجري قد ذكر أن اللغة العربية والعبرية والسريانية متفرعة من أصل واحد. كذلك قال الإمام اللغوي علي بن أحمد بن سيده في كتاب المخصص: «وكنعان بن سام بن نوح، وإليه ينسب الكنعانيون، وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع العربية»^(٢) ومنه يتبين إدراك هذين العالمين أن العبرية

Jean Perrot: La Linguistique, P. 85.

(١)

(٢) المخصص، لابن سيده، ج ١٣، ص ١٦٧.

والسريانية والكنعانية من نفس العائلة اللغوية التي تنتمي إليها اللغة العربية. بل إن كثيراً من علماء المسلمين، عند تفسيرهم للقرآن الكريم، كانوا يشيرون إلى بعض ألفاظ تشابهت في العربية والعبرية والسريانية ونذكر منهم الراغب الأصفهاني في كتابه «مفردات القرآن». وقد كثر بين اللغويين العرب من يتكلمون في أصول بعض الألفاظ كالمصحف والمنبر والسورة والآية والملائكة ويتلمسون لها المتابع الأولى في الحبشية أو السريانية أو غيرها، ثم هناك كل الكتب التي ألفت في المغرب والدخيل وما جاء في كلام العرب من لغة النبط ولغة حمير وهي اليمنية القديمة. كل ذلك يدل على أن هؤلاء العلماء كانوا منذ القرن التاسع والعاشر الميلاديين متنبهين، في حدود الإمكانيات العلمية المتاحة لهم، لصلات القرابة بين اللغات.

وقد بدا هذا بشكل أوضح عند العلماء المسيحيين واليهود الذين نشأوا في ظل الثقافة العربية. فأكثرهم كان مضطراً بحكم دينه إلى إتقان لغة أخرى على الأقل غير العربية قد تكون العبرية، أو الآرامية (لغة التلمود) أو السريانية. بل كان كثير منهم يعرف لغات أخرى من خارج عائلة اللغات السامية، كالفارسية والهندية واليونانية وغيرها، وكانوا يشتغلون بالطب أو الحسبة أو الترجمة، وفي هذه الصناعة الأخيرة كانوا يتبينون بوضوح درجة التقارب بين لغات العائلة الواحدة ودرجة التباعد بين اللغات المختلفة الأصل. فالترجمون السريان كانوا يشعرون وهم ينقلون من اليونانية إلى العربية أنهم يتوسطون بين طرفين غريبين، فإذا ما وصلوا إلى الترجمة من السريانية إلى العربية وجدوا القرابة الحقيقية والأصل الواحد.

وفي بغداد كان اليهودي سعديا سعيد بن يوسف الفيومي، المتوفى سنة ٩٤٥ ميلادية يرأس الحركة العلمية واللغوية العبرية، وكان يتلمذ على اللغويين العرب ويحذو حذوهم، بل كان يفسر الألفاظ العبرية المشككة في التوراة بما يقاربها في اللفظ العربي. وقد ترجم الكتاب المقدس اليهودي (التوراة - الأنبياء - كتب الحكمة) إلى اللغة العربية، فكان يختار أقرب الألفاظ

العربية من نطق اللفظة العبرية، كلما أمكنه ذلك. وفي المغرب والأندلس ظهر فوج من علماء اليهود اقتبسوا مناهج اللغويين والنحاة العرب وطبقوها أيضاً على اللغة العبرية، وعلى رأس هؤلاء مناحم بن سروق، ودونش بن لبرط، وأبوزكريا يحيى بن داود حيوج، وأبوسليمان داود بن إبراهيم الفاسي، الذي ألف معجماً ضخماً للغة العبرية يقع في مجلدين كبيرين وجعل شرحه للألفاظ بالعربية^(١)، ونص في أكثر من موضع على التقارب والتشابه بين اللغتين، ثم يأتي شيخ نحاة اليهود بلا منازع مروان بن جناح القرطبي المتوفى في سرقسطة في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، فيكتشف الصلة المثينة من حيث الأصل بين عدد لا بأس به من اللغات السامية، وفي مقدمتها العبرية والعربية، ويؤلف باللغة العربية كتاباً في النحو العبري اسمه «كتاب اللمع»، يقول في مقدمته، وهو يشرح منهجه في دراسة القواعد وتفسير مشكلات اللغة:

«وما لم أجد عليه شاهداً من المقرأ (أي الكتاب المقدس) استشهدت عليه بما حضرني من المشنة والتلمود (مرويات شفوية في الدين بالعبرية والآرامية) واللغة السريانية، وجميع ذلك من استعمالات العبرانيين. مقتفياً في ذلك أثر رأس المثيبة (رئيس علماء يهود العراق) الفيومي رحمه الله في استشهاده على «السبعين لفظة الفردة»^(٢) (أي المستعملة مرة واحدة في كل الكتاب المقدس) من المشنة والتلمود، وأثر غيره من الجأونيم أيضاً (أي الأخبار) كالسيد شيريرا والسيد هاي رضي الله عنهما، وأثر غيرهما أيضاً. وما لم أجد عليه شاهداً مما ذكرته ووجدت الشاهد عليه من اللسان العربي، لم أنكل من الاستشهاد بواضحه، ولم أخرج عن الاستدلال بلائحته، كما يتخرج عن ذلك من ضعف علمه، وقل تمييزه، من أهل زماننا، لاسيما من استشعر منهم التقشف وارتدى بالتدين، مع قلة التحصيل لحقائق الأمور. وقد رأيت رأس المثيبة سعديا - نصر الله وجهه - يتوكأ

(١) كتاب جامع الألفاظ أو (الأجرون)، لأبي سليمان داود بن إبراهيم الفاسي.

تحقيق سالومون سكوس، طبع فيلادلفيا، الجزء الأول سنة ١٩٣٦م، والثاني سنة ١٩٤٥م.

(٢) هو عنوان كتاب لسعديا الفيومي يفسر فيه هذه الألفاظ العبرية الغريبة النادرة

على مثل ذلك في كثير من تراجمه، أعني أنه يترجم اللفظة العبرية الغريبة بما يجانسها من اللغة العربية. وقد رأيت الأوائل رضي الله عنهم.. وهم القدوة في كل شيء، يستشهدون على شرح غريب لعتنا بما جانسه من غيرها من اللغات».

ثم يعقد مروان بن جناح مقارنة لغوية بين اللسانين العربي والعبري فيقول:

«أما اعتلاله وتصريفه ومجازاته واستعمالاته فهو في جميع ذلك أقرب إلى لساننا من غيره من الألسن، يعلم ذلك من العبرانيين الراسخون في علم لسان العرب، النافذون فيه، وما أقلهم».

ثم يؤكد أنه يشق طريقه نحو ما أصبح يسمى في العصر الحديث بعلم اللغة المقارن، وفقه اللغة والنحو المقارن أيضاً، فيقول: «ولسنا نقنع نحن فيما نستشهد من ذلك بمثل ما قنع به الأوائل، رضي الله عنهم، بما ذكرناه من استشهادهم، بل بما هو أبين دليلاً، وأقوى برهاناً، لعلمي بتعسف أهل زماننا وكثرة تشططهم، وبما يبعثهم عليه الحسد من الإنكار بما ليس بمنكر، ومن الدفع فيما لا مدفع فيه»^(١).

ومن يستحقون الذكر من علماء هذه المدرسة اليهودية الداعية إلى المقارنة بين العبرية وسائر اللغات السامية، لمعرفة معاني الألفاظ معرفة واضحة، وإدراك أسرار التركيب إدراكاً دقيقاً، اللغوي اليهودي المغربي يهودا بن قريش، ومن أحسن كتاباته في هذا الباب وصية بعث بها إلى الجالية اليهودية في مدينة فاس يحثهم على قراءة الترجمة الآرامية للتوراة (الترجوم) عند دراستهم للنص العبري، وكذلك عند قراءتهم لأسفار الأنبياء، وشرح في هذه الرسالة الروابط اللغوية المتينة التي تربط العبرية بكل من الآرامية والعربية، ثم يميل إلى

(١) كتاب اللمع (في النحو العبري)، لأبي الوليد مروان بن جناح القرطبي الأندلسي. حققه ونشره يوسف دربنورغ في باريس سنة ١٨٩٦م — المقدمة.

الفارسية، فيثبت أنها قد أثرت في العبرية ببعض الألفاظ الدخيلة، كما أثرت فيها لغة البربر في إفريقية^(١).

وهذه الوصية تردنا من جديد إلى مروان بن جناح^(٢) الذي يشير إلى منهج أمثال ابن قريش وغيره من العلماء بقوله: «أفلا تراهم يفسرون كتاب الله (يعني التوراة) من اللسان اليوناني والفارسي والعربي والإفريقي وغيرها من الألسن، فلما رأينا هذا منهم لم نتخرج عن الاستشهاد على ما لا شاهد عليه من العبراني بما وجدناه موافقاً ومجانساً له من اللسان العربي، إذ هو أكثر اللغات بعد السرياني شهاً بلساننا». ويصل مروان بن جناح في ثورته على الفكر اللغوي المحافظ المتسم في نظره بالجمود، إلى حد أنه يقول في وجه المتزمتين من يهود عصره بالتطور اللغوي والتكامل بين الحقب المختلفة من حياة اللغة، ويشدد النكير على من يعارض في ذلك فيقول: «وأشنع من هذا وأقبح من فعلهم وأظهر من جهلهم، إنكارهم علينا معشر أهل التفسير لكتب الله المنزلة الاستشهاد بألفاظ المشنة (الشريعة الشفوية، وعبريتها متطورة متأخرة) إذ يجعلونها، بما يوجد فيها من ألفاظ غريبة، خارجة عن قياس اللغة».

ومن بين الذين أنصفوا الفكر اللغوي في ظل الحضارة العربية من وجهة النظر هذه جان بيرو^(٣) حيث يقول بعد أن بين أن الدراسة اللغوية المقارنة وتقسيم اللغات إلى عائلات حديث جداً في الفكر الأوروبي: «بينما كانت القرابة بين اللغات السامية معترفاً بها منذ وقت مبكر من النحاة اليهود والعرب الذين كانوا يعيشون في جهاتٍ مختلفةٍ من العالم العربي».

(١) Barges and Goldberg: Epistola da studii torgum utilitate et de linguae chaldaicae, Misnicae, Talmudicae, Arabicae, vocalblarum item nannullorum convenientia cum hebraea: Paris 1875.

(٢) مروان بن جناح: اللمع — المقدمة.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٨.

مهما يكن من شيء فإن المقارنة اللغوية قد أدت إلى ملاحظة تشابه، لا في النمط النحوي الذي عرضنا لمشاكل تصنيفه قبل أن يفضي بنا الحديث إلى العائلات اللغوية، ولكن لوحظ تشابه أوثق وأشد اتصالاً بالتاريخ. فعندما نوه مروان ابن جناح ومعاصروه قديماً بالتشابه بين العبرية والعربية، كانوا يعنون بهذا التشابه الوجه التالي:

١ - التشابه في النطق؛ فهذه الطائفة من اللغات تحتوي مثلاً على حروف حلقيّة مثل الحاء والعين لا توجد في غيرها من لغات المجاميع المجاورة كاللغات الأوروبية؛ وكذلك حروف التفخيم كالصاد والطاء والظاء والقاف.

٢ - التشابه في الألفاظ؛ فهناك نسبة كبيرة جداً من الكلمات توجد بنفس نطقها ومعناها، أو مع تغيير طفيف في هذه اللغات، فألفاظ مثل «يد»، «رجل» و«عين» و«أذن» و«بطن» و«رأس» و«زرع» و«حقل» والأفعال «ولد» و«أكل» و«مات» و«كتب» و«قرأ» مشتركة في أكثر اللغات السامية التي منها العربية والعبرية والسريانية... إلخ.

٣ - التشابه في الصرف؛ فالفعل يأتي المجرد منه على ثلاثة أحرف، وكثير من الصيغ المزيدة يشيع وجوده في هذه اللغات بنفس الصورة، أو باختلاف قليل، وكذلك طريقة التأنيث والتذكير وأسماء المكان والزمان والآلة... إلخ.

٤ - التشابه في تركيب الجملة؛ فهي تكون اسمية من مبتدأ وخبر أو فعلية؛ وكذلك تبدو وجوه شبه قوية جداً في الضمائر وأسماء الإشارة والحروف التي تستعمل في العطف والجر ونحوهما.

وانطلاقاً من هذه الفكرة، ومما لوحظ من نشوء هذه اللغات وتطورها في منطقة واحدة، تعقب الباحثون المحدثون نفس الظاهرة فاکتشفوا تشابهاً مقارباً لذلك في مجموعة اللغات المنحدرة من أصل لاتيني أو سلافي أو جرمانى، وبدأ علم اللغة التاريخي والمقارن يخطو خطواته الأولى.

والآن لا بد من السؤال عن الأساس الذي قسم به العلماء المحدثون

اللغات إلى عائلات: أهو تقسيم «عنصري»، بمعنى أن مجموعة الشعوب التي تنتمي إلى أصل واحد تكلمت بهذه اللغات؟ أم أنه تقسيم فني تكنولوجي يراعي ظاهرة اللغة في المجتمع دون أن يتقيد بنسب أو عنصر بين المتكلمين باللغات المتشابهة؛ مكتفياً بالتشابه القائم بين اللغات نفسها فقط؟ الواقع هو أن الطريقتين قد استعملتا لدى الباحثين، وربما كانت الطريقة الإثنولوجية العنصرية التي تراعي صلة النسب بين الشعوب أقدم ظهوراً لدى الباحثين، الأوروبيين. فمثلاً تذكر الأستاذة همبورجر في كتابها «الكلام واللغات»^(١) أن هذه الطريقة هي المتبعة لدى اللغوي فريدريك مولر. كذلك حاول الأستاذان الفرنسيان أنطوان ميه ومارسيل كوهين في كتابهما المشهور «لغات العالم» ربط العائلات اللغوية، وترتيب اللغات في داخل كل عائلة باعتبارات عنصرية، وإن لم يظهر بوضوح الأساس العلمي لهذا التصنيف العنصري، ولا حرص المؤلفين على جعله شيئاً نهائياً. وتقول الأستاذة همبورجر: إنه لا يمكن الاطمئنان إلى أي تقسيم من التقسيمات القائمة حالياً، إلا في مجاميع راسخة مستقرة تاريخياً وحضارياً، كالمجموعة الهندية الأوروبية والمجموعة السامية مثلاً. أما الرابطة بين المجموعة السامية والمجموعة الحامية الإفريقية فما تزال موضع جدل بين مؤيدي هذه الوحدة ومعارضيه من العلماء. وتضرب هذه الأستاذة - وهي متخصصة في اللغات الإفريقية - مثلاً من كتاب «لغات العالم» الذي يضع لغة «الزنج»، «البوشيمان»، «والهوتنتوت» في مجموعة واحدة أو مجموعتين على الأكثر، مع أن نفس هذا التردد يوحى بأن أساس التقسيم غير متين. وتذكر أيضاً أن اللغوي الفرنسي سوفاجو (Sauvageot) كتب فصلاً في كتاب «لغات العالم» المشار إليه عن لغة الباسك، وهم عنصر مميز من الفرنسيين يسكنون جنوب غربي البلاد في الأقاليم المتاخمة لجبال البرانس، ويمتد مجتمعهم إلى شمال إسبانيا، يقول فيه إن لغتهم تنتمي إلى المجموعة الفنلندية المجرية التي تضم إلى جانب لغة الشعبين الفنلندي والمجري لغة

إسكيمو شمال أوروبا وبعض لهجات منتشرة في شمال شرق أوروبا، من المجر وفنلندا إلى روسيا، منها لهجات عشائر «الساموئد» وهم من بدو المناطق الباردة، يعيشون متنقلين من جبال الأورال إلى المحيط المتجمد الشمالي. أما اللغوي جورج لاقومب (Georges Lacombe) فيرجح أن تكون لغة الباسك هي بقية من بقايا اللغة القديمة في إيبيريا وإسبانيا والبرتغال قبل الغزو الروماني. وهناك من يدعي أن الباسك هم البقية الباقية من الشوميريين، الذين سكنوا العراق القديم قبل نزوح الساميين إليه.

ونحن كلما نظرنا إلى هذه الخلافات تأكد لنا أن الحضارة الإنسانية ما تزال فيها ميادين شاسعة جداً تعوزنا عنها المعرفة التاريخية والاجتماعية واللغوية الكافية. ولا يستطيع مصنف اللغات في عائلات، وهو يرسم الأطلس اللغوي للعالم، إلا أن يتحفظ كما تتحفظ الأطالس الجغرافية في مناطق من أرجاء العالم ما تزال غير مدروسة.

ونعود إلى نفس المؤلفة السابقة فنجدها تلاحظ ملاحظة قيمة عندما تقول: إن اللغويين ظلوا رديحاً من الزمن يتكلمون عن مجموعة اللغات الطورانية التي كانوا يسمونها أحياناً الأورالو-الطائية، ويضعون تحتها الفنلندية - المجرية، كما يضعون لغات الترك والمغول والتنجوز. ومع ذلك فإن أحد العلماء المتخصصين في هذه اللغات وهو الفرنسي ج. دني (J. Deny) يعالج كل لغة من الثلاث الأخيرة مستقلة عن الأخرى في الفصل الذي كتبه في «لغات العالم»، ولا يعترف بصلة انتمائية بينها، ولا بما يسمى بالمجموعة الأورالو-الطائية.

ثم إنها تشير إلى رأي اللغوي الروسي سيرج أليسييف (Serge Elisséev) الذي ورد في فصل في كتاب «لغات العالم» أيضاً، وخلاصته أنه في الشرق الأقصى حيث تزدهر اللغات اليابانية والكورية ولغات الآينو (حول جزيرة سخالين وجزيرة ييسو) ولغة أقصى شمال شرق آسيا القطبية، ما تزال هذه اللغات مجهولة التطور والتاريخ إلى حد كبير بحيث لا نستطيع أن نؤكد اتحادها في مجموعة واحدة، والبحوث التي نشرت في هذا لا تعدو أن تكون افتراضات.

أما لماذا كانت نظرية تقسيم اللغات إلى عائلات مرتبطة لأول وهلة بالتقسيم الأنثروبولوجي للأجناس البشرية، فمن المرجح أن مرد ذلك عند العلماء الأوروبيين إلى تأثيرهم بنصوص في الكتاب المقدس نفسه أشهرها ما جاء في الإصحاح العاشر من سفر التكوين، من تقسيم لتفرعات البشر بعد الطوفان، ومن ارتباط ذلك بالتوزيع الجغرافي من ناحية، والقبلي من ناحية أخرى. ثم ربط ذلك كله في بداية الإصحاح التالي بفكرة تشعب اللغات. يقول هذا الإصحاح العاشر: «وهؤلاء مواليد بني نوح: سام وحام ويافت، ومن ولد لهم من البنين بعد الطوفان.

بنو يافت: جومر ومأجوج وماداي وياوان وتوبل وماشك وتيراس. وبنو جومر: أشكناز وريفات وتوجرمه. وبنو ياوان: أليشة وترشيش وكسيم ودودانيم. من هؤلاء تفرق أهل جزائر الأمم في بلدانهم كل بحسب لغته وعشائره بأممهم.

وبنو حام: كوش ومصريايم وفوط وكنعان. وبنو كوش: سبأ وحويلة وسبته ورعمة وسبتكا، وبنو رعمة: شبا وددان. وكوش ولد غرود، وهو أول جبار في الأرض. وكان جبار صيد أمام الرب. وكان أول مملكته بابل وأرك وأكاد وكلنة، في أرض شنعار. ومن تلك الأرض خرج آشور فبنى نينوى، وساحات المدينة، وكالح وراسن، بين نينوى وكالح، وهي المدينة العظيمة. ومصريايم ولد لوديم وعناميم والهابيم وفتروسيم وكسلوحيم الذين خرج منهم الفلسطينيون وكفتوريم. وكنعان ولد صيدون، بكره، وحيث، واليبوسيين والأموريين والجرجاشيين. والحريين والعرقيين والسينيين والأرواديين والسماريين والحمويين، وبعد ذلك تفرقت عشائر الكنعانيين. وكانت تحوم الكنعانيين من صيدون وأنت آتٍ نحو جرار إلى غزة وأنت آتٍ نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم إلى لاشع. هؤلاء بنو حام بعشائره ولغاتهم في بلدانهم بأممهم.

وولد لسام أيضاً بنون، وهو أبو جميع بني عابر، أخو يافت الأكبر.

بنو سام: عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وآرام. وبنو آرام: عوص وحول وجاثر وماش. وأرفكشاد ولد شالح. وشالح ولد عابر. وولد لعابر ابنان: اسم أحدهما فالج لأنه في أيامه انقسمت الأرض، واسم أخيه يقطان ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت ويارج وهدورام وأوزال ودفلة وعوبال وأبي مائيل وشبا وأوفير وحويلة ويوباب، كل هؤلاء بنو يقطان. وكان مسكنهم من ميثا وأنت آتٍ نحو سفار جبل المشرق، هؤلاء بنو سام بعشائره ولغاتهم في بلدانهم بأسمهم.

هؤلاء عشائر بني نوح بمواليدهم وأسمهم، ومنهم تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان».

ومن أخذ بالتقسيم العنصري للعائلات اللغوية من علمائنا المعاصرين المرحوم الأستاذ الدكتور علي العناني حيث يقول في الباب الأول من كتاب «الأساس»:

«قسم المستشرقون اللغات الإنسانية، لسهولة البحث فيها، إلى عدة مجاميع تشتمل كل واحدة منها على طائفة من اللغات التي بين بعضها والبعض الآخر قرابة في الألفاظ والتراكيب، والقواعد والتفكير. والقاعدة الأساسية في هذا التقسيم جعله تابعاً إلى تقسيم النوع الإنساني إلى أجناس بشرية.

«وبناءً على وضع هذه القاعدة الأساسية اختلف الباحثون في عدد المجاميع اللغوية، وكيفية تقسيمها تبعاً للاختلاف في عدد الأجناس البشرية، والأسس التي استندت إليها طرق التقسيم.

«وأول تقسيم للأجناس البشرية هو تقسيم التوراة التي أرجعت النوع الإنساني، على تعدد قبائله وشعوبه وأمه، إلى أبناء نوح الثلاثة: وهم سام وحام ويافت، فجعلت الأجناس البشرية لذلك ثلاثة فقط، يرجع كل واحد منها إلى جد أعلى من أبناء نوح الثلاثة.

«وهناك تقسيمات طبيعية أخرى ترجع في تكوينها إلى طبيعة الإنسان من حيث الألوان والمشخصات الفكرية، والأماكن والأوساط.

«وعلى أي تقسيم من هذه التقاسيم سواء أكان مبنياً على رواية الكتاب المقدس أم النظر الطبيعي، فإنه توجد جماعة متحدة النشأة والمكان واللون كَوْنَتْ جنساً بشرياً عظيماً، قد اتصلت شعوبه اتصالاً وثيقاً، وارتبطت بكل الروابط الطبيعية التي تجعلها حقيقة جنساً بشرياً ممتازاً على مبدأ أي تقسيم.

«ويعرف هذا الجنس الممتاز في رواية التوراة بالجنس السامي، كما يعرف أيضاً بهذا الاسم وبوحدته الجنسية الطبيعية بين جميع الأجناس البشرية الأخرى التي حددها النظر الطبيعي، والعلم التجريبي الدقيق، ووضع أسماءها على ما هو معروف.

«وكذلك الجنس الحامي قد أخذ وضعاً مثل هذا الوضع المتقدم للجنس السامي، فإنه استمد اسمه ووحدته في التقسيمين الديني والطبيعي مثل الجنس السامي جنساً لجنب. ومعنى ذلك بالاختصار أن هذين الجنسيتين المتقدمين قد بقيت لهما التسمية والوحدة الجنسية في رأي أي تقسيم، حتى إنك لتجد في بعض المراجع عدهما جنساً واحداً يعرف بالجنس السامي الحامي، لما وجد من الامتزاج بين أهم هذين الجنسيتين في اللغات وفي تطور الجماعات.

«أما الجنس اليافثي بتعبير التوراة فإنه ليس معروفاً بهذه التسمية وبوحدة شعوبه وأمه التي أحصاها هذا الكتاب المقدس إلا في التقسيم الديني. أما النظر الطبيعي فإنه وضع له اسماً آخر وهو: الجنس الآري، أو الهندو جرمانى. وعد له أمماً في آسيا وفي أوروبا لم يروها الكتاب المقدس، وأهمل من هذا الجنس أمماً ذكرها له هذا الكتاب^(١).

«أضاف التقسيم الطبيعي إلى هذه الأجناس البشرية الثلاثة، وهي السامي والحامي واليافثي أو الآري، بعد التحوير الكبير في ثالثها الأخير،

(١) كتاب الأساس في الأمم السامية ولغاتها، وقواعد اللغة العبرية وآدابها: تأليف الدكتور علي العناني - ليون محرز - محمد عطية الأبراشي. طبع المطبعة الأميرية ببولاق، ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م، ص ١٥ وما بعدها.

أجناساً كثيرة أخرى. كما أضاف إلى مجموعات لغات الأجناس الثلاثة مجموعات لغات تلك الأجناس بعد التعديل الكبير في مجموعة اللغات الآرية، بناءً على التعديل في أمم هذا الجنس»^(١).

والواقع أن المؤلف مشكور بمحاولته نقل صورة، حتى بهذا الإيجاز المخل والاضطراب الشديد، لما كان يجري في أوروبا في بداية القرن العشرين من كلام في علم اللغة، وبخاصة في تقسيم المجموعات اللغوية. وما دنا منذ الجملة الأولى قد لاحظنا عليه هاتين الملاحظتين اللاذعتين، فإنه يجب علينا احتراماً لذكرى الرجل أن نسوق ما يبررها. وبداية ذلك هو الإشارة إلى أن جميع التقسيمات الخاصة بالأجناس البشرية قد أثير من حولها الشك على ضوء علم السلالات ومقارنة الحضارات.

فالعالم السويسري «يوجين بيتار» يؤلف كتابه «الأجناس البشرية والتاريخ» ليثبت أولاً وقبل كل شيء فساد فكرة وجود الجنس النقي إلا في مجتمعات نادرة الوجود منعزلة عن التيارات الحضارية المختلفة. وفي الباب الأول - الفصل الثالث، من هذا الكتاب، الذي خصصه لدراسة العلاقة بين «الأجناس البشرية واللغات» يقول: سبق أن بينا أنه وقع خلط بين الأجناس البشرية واللغات. وما يزال بكل أسف الحديث عن «الأجناس اللاتينية»، «الأجناس الجرمانية»، «الأجناس السلافية»،... إلخ مستمراً إلى يومنا هذا في الحديث العادي، وبعض الكتب المدرسية، وكتابات الصحفيين. وأكد أعتقد رغم ذلك أن من يستعملون هذه المصطلحات يعلمون تمام العلم أن تلك الأجناس لا وجود لها، ولكنهم يقولون إن هذا منهج يقصد به تيسير الدراسة على التلاميذ عند توزيع شعوب معينة تتكلم لغات ترجع إلى أصل واحد. وأنا لا أعارض في ذلك، ولكن، ألا يتضمن هذا المنهج عيباً آخر خطيراً، وهو إدخال فكرة خاطئة في عقول كثير من الناس؟ أليس من الأفضل والحالة هذه

(١) نفس الموضع.

تركه والتخلي عنه؟ أما نرى كل يوم كتاباً سياسيين، ومحررين في الصحف، يتحدثون بثقة ساذجة، ولكنها خطيرة، عن تلك الأجناس المزعومة، كما لو كان من المسموح به أن نسّم كل المتحدثين بلغة من اللغات بالانتماء إلى سلالة بشرية واحدة محددة القسمات؟ وحتى المؤرخون أنفسهم انزلقوا أحياناً في استعمالات مشابهة دون تمحيص، وهم بذلك أكبر ذنباً^(١).

وأكثر أرباب علم اللغة المحدثين يتفوقون مع علماء السلالات البشرية في استنكار مثل هذه الغلطات، ولكنها غلطات طويلة الروح، ويلزمها كل القوى المتضافرة حتى تمحوها من الاستعمال.

والدراسة المنهجية للسلالات، وهي دراسة أصبحت الآن متقدمة جداً، تمكننا من أن نكون فكرة عامة - وفكرة عامة فقط - عن الأجناس الرئيسية للبشر على هذه الأرض. فلو أننا أعطينا لأحد علماء الشعوب البشرية خريطة التوزيع اللغوي للعالم، وسألناه إذا كان ممكناً أن تنطبق تمام الانطباق على خريطة توزيع الأجناس، لكانت النتيجة سلبية.

فعلى سطح الكرة الأرضية أجناس مختلفة - ومختلفة جداً - تتكلم لغة واحدة. وهناك أناس ينتمون إلى نفس الجنس ويتكلمون لغات مختلفة. ولست أريد أن أعطي أسهل الأمثلة وأقربها وهو مثل الزوج الذين عاشوا أو يعيشون تحت الاستعمار الفرنسي أو الإنجليزي، ويتحدثون الفرنسية والإنجليزية. فلو أننا طبقنا عليهم قاعدة ارتباط اللغة بالجنس لكان معنى ذلك أن الزوج المتكلمين بالفرنسية ينتمون إلى السلالة اللاتينية، وأن المتكلمين منهم بالإنجليزية ينتمون إلى أرومة جرمانية، وهو استنتاج غليظ. لكن لنأخذ كثيراً من الشعوب من بين السكان الأصليين لأميركا الجنوبية: لقد نسوا شيئاً فشيئاً لغتهم الأم، وعبروا بالإسبانية بدلاً منها. وفي الشمال الشرقي لروسيا نجد «الفونيك» و«البرميالك» وهما من سلالة مجرية قد أصبحوا لغوياً من صميم الروس.

وفي إيران وشمال آسيا الوسطى تعيش مجموعات بشرية من جنس واحد من حيث السلالة والأرومة، وهم مع ذلك يتكلمون لغات مختلفة، ونفس هذه الظاهرة تتكرر في البلقان وفي كثير غيرها من أصقاع الأرض.

ولو أننا توغلنا قليلاً في الماضي لانفتحت عيوننا على كثير من الحقائق، ولو أننا فتحنا الأطلس، وفكرنا قليلاً في التاريخ للاحظنا مثلاً: أن النورماندين في فرنسا عندما وطئت أقدامهم لأول مرة هذه البلاد، وكانت تحت حكم الفرنجة، كان النورمانديون يتكلمون بدون شك لغة إقليمهم الأصلي وهو البلاد الشمالية «الإسكندينية». أما الفرنجة أنفسهم فكانوا يتكلمون بلهجة ألمانية.

وعندنا في التاريخ الحديث مثل صارخ في وضوحه هو الولايات المتحدة، التي يعيش في ربوعها مهاجرون منهم من ينتمي إلى أصول شمالية: إسكندينية، جرمانية، بريطانية... إلخ. ومنهم اللاتين: فرنسيون، إسبان، إيطاليون،... إلخ ومنهم البلقانيون والصقالبة واليهود والزنج والعرب والهنود والهنود الحمر والصينيون والماليزيون... إلخ. وكل هؤلاء غلبت عليهم لغة واحدة هي الإنجليزية المتأركة. إننا نجد أنفسنا أمام خليط لا يكاد يكون له حصر من حيث السلالات البشرية والأجناس، ومع ذلك فاللغة واحدة.

وأفكار مثل الوحدة الجرمانية أو الوحدة السلافية، أو الوحدة الطورانية، إنما هي صيغ ولدت في عقول بعض المثقفين، أو رجال السياسة، ولكنها ليست على الإطلاق حقائق واقعة ولدت تلقائياً في ضمير مجموعة بشرية معينة. وكم من مرة اختلفت خريطة أوروبا بل خريطة العالم لكثرة ما طرأ عليها من توحيد، أو إعادة تجميع، أو تفريق، أو اختلاف عناصر وأجناس حسب هوى الضرورات أو الفرص السياسية.

والتاريخ على الخصوص يتأثر بهذه الاعتبارات. فكم من مرة اختلق عداء عنصري وزرع في النفوس على أنه حقيقة عرقية جنسية، عداء أعدت عدته وأشعل لهيبه على يد مثقفين يعرف كثير منهم أن أساس النظرية كلها

هراء. ومع ذلك فقد اندلعت بسبب هذا الهراء، وعلى مدى قرون من الزمن حروب كثيرة. وكم من مرة ظهرت دراسات تحت هذا العنوان المخيف «صراع الأجناس البشرية».

ويختتم العالم السويسري جولته عن عدم ارتباط اللغات بالأجناس، بمقولة ينقلها عن اللغوي الفرنسي فاندرييس حيث يقول: «مهما كان الدور الذي لعبه التغيير الطارئ على الأجناس في تغير اللغات فإننا لا نستطيع أن نقول بارتباط ضروري بين الأمرين. بل يجب ألا نخلط بين المميزات السلالية التي لا يمكن توفرها إلا عن طريق الدم، والظواهر الوضعية كاللغة والدين والثقافة التي يمكن نقلها من أناس إلى آخرين وتبادلها بين البشر».

ونعود إلى ما بدأنا به من الإشارة إلى أن التوزيع اللغوي الذي رُبط بالسلالات إنما كان في معظمه خرافة يهودية بنيت على تأويل متعسف للإصحاح العاشر من سفر التكوين الذي سردنا ترجمته آنفاً. والواقع أن التوزيع في هذا الإصحاح إنما كان يخضع لموقف وجداني، تظاهره عقلية بدائية قَسَّمت شعوب العالم إلى ثلاث فئات: إحداها خيرة، والأخرى شريرة، والثالثة بعيدة وغير معروفة، ثم نسب اليهود أنفسهم إلى الفئة الخيرة طبعاً. وأما الفئة الشريرة فجعلوها من أبناء سام بن نوح الذي لعنه أبوه ولعن سلالته من بعده. جاء في الإصحاح التاسع من هذا السفر: «ابتدأ نوح يحرث الأرض، وغرس كرماً، وشرب من الخمر، فسكر وتكشف وهو في خبائه. فرأى حام أبو كنعان سوءاً أبيه، فأخبر أخويه اللذين كانا في الخارج. فأخذ سام وياث رداء وجعلاه على منكبيهما، ومشيا مستديرين، فغطيا سوءاً أبيهما وأوجههما إلى الوراء فلم يريا سوءاً أبيهما. فلما أفاق نوح من خمره علم ما صنع به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان، عبداً يكون لعبيد أخوته وقال، تبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبداً له. ليفسح الله لياث فيسكن في أخبية سام، ويكون كنعان عبداً له».

وظن آباء الدين اليهودي الأولون أن اللعنة تظهر مادياً في سواد البشرية، فجعلوا كل الزنج والعبيد من نسل حام، ولم يتنبأوا لهم بخلاص إلى

الأبد، وقد لعن أبوهم منذ الأيام الأولى بعد الطوفان. وانطلاقاً من هذه الفكرة العنصرية البدائية ألحق اليهود كل من لا يحبون من الناس بهذه السلالة الملعونة: ألحقوا بها المصريين، وهم ليسوا بالسلالة النقية، بل كانوا منذ القدم مزيج سلالات، وألحقوا بها الكنعانيين مع أن لغتهم أقرب اللغات إلى العبرية وهم أصحاب فلسطين الأصليين، وأقرب من اليهود إلى السلالة السامية الخالصة، ولكنهم كانوا أعداءهم سياسياً، فوصموهم بالنسب اللعين، كما فعلوا بالمصريين. لثأر كان لهم عند فرعون، وكما فعلوا بنمرود الذي جعلوه رأساً لفرع من السلالة الحامية، هو الفرع الأكادي في بابل وآشور، وبالمطبع كان هذا أيضاً بسبب الغنت والعداء والتخريب الذي جرّه عليهم أباطرة بابل وآشور، مع العلم بأن الأكاديين ساميون نازحون من جزيرة العرب منذ الألف الرابع قبل الميلاد، ولغتهم لغة سامية أقرب إلى الأصالة، وأشدّ شبهاً باللغة العربية من لغة التوراة.

وإذن فالدكتور علي العناني أوجز بإخلال كما قلنا، وانساق وراء هذا القولكلور اليهودي، تبعاً لمستشريقي وقته؛ ومع ذلك فإنه قد عاد وبدون بناء منهجي واضح فنقل تقسيماً أقرب إلى النزاهة العلمية، أو على الأصح أقرب إلى الاحتياط لمستقبل المعرفة في هذه الدراسات، إذ ترك الرابط بين اللغات والسلالات البشرية، واقتصر على الكلام عن المجاميع اللغوية نفسها حيث يقول: «ولم يقف علم اللغات عند هذا العدد المتقدم للمجاميع اللغوية، بل أوصلها إلى عشر مجاميع وهي: السامية، الحامية، الآرية، الهندية الصينية، الملايوبولونيزية، الادرويدية، الأورطائية، الاستورالية، الأمريكية، الباتنوية.

«ويلتحق بهذه المجموعات العشر قسم من اللغات يعرف باسم اللغات المنعزلة»^(١). أما الأستاذة همبورجر فلها تقسيم يختلف في بعض التفاصيل، فهي تبقي على مجموعة اللغات السامية، واللغات الأدرويدية، واللغات المنعزلة،

(١) الأساس ص ١٦ - ١٧.

ولكنها تفصل عن المجموعة الحامية ما تسميه اللغات الزنجية الإفريقية. وتتكلم عن مجموعة تسميها باللغات الآسيانية، وكذلك تبدأ ترتيبها بلغات جنوب شرق آسيا وأستراليا وأمريكا، دون أن يبدو أنها توافق على تقسيمها أو إلحاقها بمجاميع أو عائلات لها حدود واضحة. وعلى كل حال فإن تقسيمها. إن لم يكن قاطعاً مثل تقسيم قدامى المستشرقين، المتمثل فيما أخذ به الدكتور علي العناني، فإنه يعبر بصورة واضحة عن النقص الكبير في معلومات الإنسان عن أصول عدد كبير من لغات العالم. وهي تبدأ أولاً بالحديث عن الخلاف حول لغة «الباسك»، هذا الخلاف الذي فرغنا من تلخيصه آنفاً. بعد ذلك يبدأ حديثها عن المجاميع على النحو التالي:

١ - مجموع اللغات الأورالو - ألتائية أو الطورانية، وترجح أن تنتمي إليها اللغات الفنلندية المجرية، وكذلك اللغات التركية والمنغولية التجوزية.

٢ - مجموعة اللغات اليابانية والكورية والأينو ولغات جزائر شمال شرق آسيا، وهي أيضاً تثير الشك حول إنتهاء هذه المجموعة إلى أصل واحد، ولاسيما لغة الأينو في جزيرة سخالين، التي تصفها بأنها منحدره من لغة مندثرة لا علاقة بينها وبين اليابانية مثلاً.

٣ - مجموعة اللغات الصينية ولغات ألتاي ولغات التبت ولغات برمانيا، وتذكر أن الباحث اللغوي برزيلوسكي (J. Przyluski) وصلها بأصل واحد، وسماها مجموعة اللغات الصينية التبتية، وإن كان يحتاط للأمر فيقول: إن اللغات تستهلك من كثرة الاستعمال كلما كان لأهلها دور فعال ومتشعب في الحضارة الإنسانية. ولذا فإن التشابه الحالي غير موجود بين اللغة الصينية الحديثة التي أصابها هذا اللون من الاستهلاك وبعض لغات الهملايا والتبت، التي بقي أهلها بمعزل عن عوامل الاستهلاك المذكورة. أما لغة ألتاي فتذكر المؤلفة أن من أجود أمثلتها اللغة السيامية.

٤ - مجموعة اللغات الأسترالية الآسيوية، وتقول إن هذه التسمية من اختراع اللغوي شميدت (P. Schmidt)، وهي تضم لغات ولهجات يستعملها

الناس ابتداء من إقليم «أنام» إلى هضبة «شوتا ناجبور» غرباً. وتعتقد هي أن هذه المجموعة فرع من عائلة كبيرة هي العائلة اللغوية الملايوبولينيزية، وإن كانت تنص على أن هذا الانتهاء ما تزال تنقصه الدراسة الدقيقة، ولذلك فإن اللغوي برزيلوسكي (J. Przyluski) يفضل أن يسميها فروعاً من عائلة، ويذكر من هذه الفروع لغات «الموندا» أو «الكول» غرباً، و«الأنامية» شرقاً، ولغات «المونخيم» في الوسط.

ولغات الموندا مستعملة بين نحو ثلاثة ملايين من السكان على سفوح الهملايا، ثم عدد أكبر من البشر في هضبة شوتانا ناجبور جنوبي نهر الكنج؛ ولغات الموندا لا تكاد تكون معروفة الأصل إذ لا توجد منها نقوش قديمة. أما اللغة الأنامية فقد كتبت نصوص منها بكتابة مشتقة من الكتابة الصينية منذ القرن الرابع عشر الميلادي، ولكن شاعت كتابتها بالحروف اللاتينية منذ القرن السابع عشر بفضل المبشرين الأوروبيين. ويقترب من اللغة الأنامية كلام «المونج» في إقليم تونكين. وقد تردد اللغويون في ربط الأنامية بالصينية من ناحية، وبلغات المونخيم من ناحية أخرى. وهذه الأخيرة تضم ثلاث لغات وحضارات هي: (أ) المون (ب) الخمير (ج) التشام. وأقدم نقوش هذه الطائفة من اللغات يرجع إلى القرن السابع الميلادي وهو بلغة الخمير. ومهد هذه اللغات هو إقليم كمبوديا الحالي ويضم لغة أخرى هي «الموي». وهناك فرع في شبه جزيرة مالكا هو «النيكوباري» ومن لغاته السيمانج والساكي.

٥ - مجموعة لغات الملايوبولينيزية: وهذه المجموعة أوثق ارتباطاً، ولغاتها أوضح قرابة من حيث الأصوات وتصريف الألفاظ والتركيب، وهي تمتد من جزيرة مدغشقر إلى أقصى الملايو وأندونيسيا وماليزيا وبولينيزيا، ويتضمن ذلك جزر الفلبين وسلبيس وبورنيو وجاوه وبالي وسومطره. ومعروف أن لغات مدغشقر ولهجاتها، بالرغم من انتمائها إلى هذه المجموعة، قد تأثرت تأثراً عميقاً باللغة السنسكريتية منذ القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد. وتشير الأستاذة همبورجر إلى أنه من العبث محاولة تعداد اللغات واللهجات التي تندرج تحت

هذه المجموعة، إذ إن دراستها وتصنيفها اللغوي وتحديد انتهائها لم تتم بعد. كما تشير إلى أن اللغات واللهجات المستعملة في كاليدونيا الجديدة والتي تسمى لغات «البابو» وفي غينيا الجديدة والجزر المحيطة بها، ما تزال مجهولة التصنيف. وكذلك الحال في:

٦ - مجموعة اللغات الأسترالية الأصلية: ونرتطم بنفس الصعوبة عندما نحاول دراسة مجموعة أخرى مماثلة هي:

٧ - مجموعة اللغات الأمريكية الأصلية: وأقدم ما بين أيدينا من وصف لبعض أفراد هذه المجموعة كتبه أوروبيون في القرن السادس عشر. وعلى أية حال فمن الملاحظ أن قبائل «الأزتيك» أو «الناهوا» في أمريكا الوسطى قد استعملوا كتابة تصويرية (هيروغليفية) وصلنا منها بعض رقاع من الجلد مكتوبة بهذه الكتابة، وعليها شروح أو ترجمات باللغة الأسبانية. كما وصلتنا نقوش مكتوبة بحروف لاتينية ولكنها بلغة الأزتيك ويدون ترجمة. وواضح أن هيروغليفية الأزتيك تبدو مختلفة إذا قيس بالكتابة المصرية الفرعونية. وفي نفس المنطقة عثر على نقوش من لغة «المايا» وهي تصويرية أيضاً، ولكن لم ترد أية شروح أو تراجم مع نقوشها المذكورة. وقد ذكرت الأستاذة همبورجر نقلاً عن الدكتور بول ريفيه الذي حرر الفصل الخاص باللغات الأمريكية في موسوعة أنطوان ميه «لغات العالم» أن القارة الأمريكية كانت تحتوي في القديم على ١٢٣ لغة على الأقل، لا يبدو بينها انتهاء عائلي أو وجوه شبه يعتد بها، فيما عدا الألفاظ التي تتبادلها القبائل بعضها مع بعض.

أما الأسكيمو في جرينلاند فربما كانت لغتهم ترتبط بلغة جزر «اليوت» وكذلك بلغة سكان ألاسكا. وقد ربطها بعضهم بمجموعة لغات الأورال.

وأما اللغات الأمريكية الأصلية فقد ذكر الباحثون أن كثيراً منها قد اندثر الآن. وفي أمريكا الجنوبية ذكر الدكتور ريفيه أنه كانت توجد ٧٧ عائلة لغوية من أهمها مجموعة «التوبيجواراني» المنتشرة من غيانا شمالاً وسفوح الأنديز غرباً، إلى سهول جران شاكو في بوليفيا. وكذلك في بارجواي جنوباً وعلى ساحل البرازيل

جنوب الأمزون وحتى الشرق. كذلك من المجاميع اللغوية الغامضة مجموعة اللغات المستعملة في إقليم القوقاز والتي تسمى :

٨ - مجموعة اللغات القوقازية، وهي ليست هندية أوروبية ولا سامية ولا أورالية ولا ألتائية ولا تتصل بقراءة ما باللغة التركية. وتمتاز هذه المجموعة بالغنى في الحروف الساكنة. وأكثر المتكلمين بلغات هذه المجموعة ولهجاتها لاسيما في القوقاز الشمالي من المسلمين، وكانوا وما يزال الكثير منهم يكتبون لغاتهم بحروف عربية وإن كان انتماؤهم سياسياً للاتحاد السوفياتي قد أدخل الأبجدية الروسية في بعض الجهات. أما القوقاز الجنوبي فأكثر اللغات القوقازية شيوعاً هي لغة جورجيا. ومن اللهجات الجديدة بالذكر «المنجريلية» و«السفانية» و«اللازية». ولغة جورجيا هي اللغة الوحيدة التي لها كتابة منذ القرن العاشر الميلادي على الأقل، وحروفها متطورة عن اليونانية.

٩ - مجموعة اللغات الآسيانية، وتندرج في هذه المجموعة لغات ميتة كانوا يعدّون منها قديماً اللغة الحيثية، ولكن أحدث الدراسات اللغوية المقارنة تجعل الحيثية - وهي اللغة القديمة لآسيا الصغرى - من صميم المجموعة الهندية الأوروبية.

أما اللغة الميتانية التي كانت مستعملة على الضفة الشرقية لنهر الفرات في أقصى الشمال فإنها ما تزال في حاجة إلى دراسة، وبعض الباحثين يردها إلى المجموعة القوقازية.

ولغة الليديين القدماء (من شعوب بحر إيجه) كانت تكتب بحروف متطورة عن الأبجدية اليونانية ولكنها، فيما عدا بعض الألفاظ المستعارة من الجيران الفريجيين، لا ترتبط بالمجموعة الهندية الأوروبية.

وفي جنوب الغربي من هضبة آسيا الصغرى كان يسكن قديماً الليقيون، وقد كتبوا باليونانية ولكن لغتهم ليست شبيهة باليونانية أو غيرها من مجموعة اللغات الهندو أوروبية. وقد ذكر القدامى من مؤرخي اليونان أن سكان

«ليقيا» مهاجرون من جزيرة كريت. وهناك مجموعة بشرية قريبة من الليقيين هي التي تسمى الكاريين، وقد وردتنا منهم وثائق مكتوبة حملها جنود المصريين القدماء معهم إلى مصر، أو كتبها مرتزقة من الكاريين عملوا في الجيش المصري، وشاعت كتاباتهم حتى بلاد النوبة.

وحضارة جزيرة كريت القديمة تمثل، أثرياً ولغوياً، شعباً ليس سامياً ولا آرياً اصطلاح على تسميته «الإيجي» أو على نسبته على وجه العموم إلى البحر الأبيض المتوسط.

وترجع أقدم الكتابات الكريتية إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ولكنها ما تزال طلاس لم تحمل رموزها بعد.

واللغة الشوميرية في العراق تعتبر بدورها مشكلة من ناحية ارتباطها بمجموعة ما. اعتبرها بعضهم من المجموعة القوقازية، وعَدَّها آخرون من المجموعة الصينية التبتية، وواضح أن هذا الانتماء غير موثوق به، لأننا على الأقل ذكرنا هاتين المجموعتين بين المجاميع الغامضة الأصل التي لا نعرف عن تطورها معلومات كافية. أما الكتابة الشوميرية فقد تطورت من تصويرية (هيروغليفية) إلى مقطعية (مسمارية). وهذه الكتابة المسمارية نفسها انتشرت من شومر إلى حدود الهند شرقاً وإلى ساحل الشام غرباً، وإلى أفغانستان وإيران وجنوب روسيا وآسيا الصغرى شمالاً، وإلى صعيد مصر جنوباً، وكتبت بها لغات قديمة كثيرة غير الشوميرية. وتعتبر النقوش الشوميرية من أقدم الكتابات في العالم إذ ترجع إلى الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل.

وواضح من هذا أن ما يسمى بالمجموعة الآسيانية عند اللغويين المعاصرين ليس إلا وعاء ضخماً توضع فيه كل اللغات القائمة في غرب آسيا حتى الأرخبيل اليوناني قبل ظهور العائلتين اللغويتين الواضحتين: السامية، والهندوأوروبية. لذلك ليس عجيباً إذا وضع في نفس الوعاء اللغة الإترورية أحياناً (ألقها بها اللغوي الإيطالي ترومبتي Trombetti).

واللغة الأيبيرية التي وجدت في آسيا قديماً ووصلتنا بعض نقوشها التي يرجع أقدمها إلى القرن الرابع قبل الميلاد بالأبجدية الفينيقية، قد ألحقها بعضهم بهذه المجموعة أيضاً، بينما ذهب آخرون إلى أنها من أصول إفريقية حامية، وربطها غيرهم بلغة الباسك التي قلنا إنها ليست واضحة الأصل.

وفي عداد اللغات المجهولة الأصل لغات أفريقية بين أقزام الغابة الإستوائية، كلغة البوشيمان وأقزام الكونغو، وليست لهم نقوش قديمة مكتوبة ولكن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن التصاوير التي عثر عليها في جهات مختلفة من شمال إفريقيا وجنوبها تؤكد شبيهاً حضارياً بهؤلاء الأقزام من سكان أفريقيا السوداء.

وهناك لهجات مستعملة إلى الآن تعتبر مشكلة من حيث ارتباطاتها التاريخية بمجاميع لغوية معروفة، وفي مقدمة ذلك النور في بوهيميا، الذين يسمون «التزيجان»، وهم كما يظن بوب سربويانو (Popp Serboianu) ينحدرون من أصول هندية قديمة، وإن كان ذلك لم يتأكد علمياً. وشبيه هؤلاء بعض طوائف النور في شمال أفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط.

وفي الصومال توجد عشائر من الرعاة تسمى الميدجان، وجماعات تحترف التسول تسمى اليبير وكلامهما مجهول الأصل كذلك.

وفي جنوب غرب أفريقيا سجلت لهجات الهوتنتوت وقد ألحقها العلماء الألمان باللغات الحامية. والظاهر أن الهوتنتوت كانوا يسكنون في الأصل عند منابع النيل، ولكن المد الزنجي دفع بهم ابتداء القرن الثاني عشر نحو الجنوب الغربي حتى وصلوا إلى جنوبي موزمبيق. ولغتهم ما تزال إلى الآن مجهولة الأصل أيضاً.

* * *

عائلة اللغات الحامية

وأصل هذه العائلة لغات قديمة ازدهرت في أواسط القارة الإفريقية، اندثر بعضها وظل البعض الآخر ينتقل من مكانٍ إلى مكانٍ ويتفاعل مع غيره من اللغات، لا سيما تلك التي تنتمي إلى العائلة السامية والتي تعتبر اللغة العربية أهم أمثلتها. ويرجع تفاعل اللغات السامية والحامية إلى اتصال آسيا بإفريقيا عن طريق سيناء شمالاً، ومضيق باب المندب الذي يتصل عند البحر الأحمر الجنوبي بالمحيط الهندي. أما تاريخ هذا التفاعل فقد قديم جداً لا يستطيع اللغويون تحديده. والراجع أن بداياته موعلة في مجاهل ما قبل التاريخ، بل لقد ظن كثير من الباحثين أن اللغات السامية والحامية كانت في البداية ترجح إلى أصل واحد، كما أن هناك نقاشاً حول اللغة المصرية الفرعونية، أهى سامية أم حامية؟ وقد خرج أشد الباحثين حذراً وحيطة من هذا المأزق بافتراض وجود ما يسمونه «اللغات السامية - الحامية»، دون أن يحددوا أهى عائلة واحدة انشطرت شطرين أم عائلتان اختلطتا في مزيج واحد.

وهذه العائلة الحامية عليها خلافات كثيرة ترجع في معظمها إلى ندرة العلماء بلغاتها ولهجاتها لا سيما الحية المستعملة الآن، نظراً لأن هذه الشعوب الإفريقية كانت قد تخلفت عن ركب الحضارة فلم يبق فيها تعليم، ولا سجلت لغاتها بالكتابة، فيما عدا القليل، ولا وصلتنا عن تاريخها وثائق متصلة دقيقة، فيما عدا مصر وحدها تقريباً.

وقد بلغ من صعوبة التصنيف في داخل تلك المجموعة أن العلماء يحارون

كثيراً في تسمية بعض فروعها لغات أو لهجات، ويكثر فيهم من يتهرب من ذلك باستعمال ألفاظ أعم في دلالتها، مثل «الكلام» أو «التفاهم» أو «التعبير»... إلخ.

فمن ذلك اللهجات البربرية والقبائلية والطوارقية المستعملة في شمال إفريقيا. ونظراً لانتشار الإسلام في هذه الأصقاع، ولوجود مستعمرات فينيقية للتجارة والنقل البحري على هذه السواحل، تستعمل هي أيضاً لغة سامية قبل مجيء العرب بألفي سنة، فإن الامتزاج السامي الحامي من الناحية اللغوية يبدو واضحاً جداً، وهذا هو ما حدا باللغوي (ليورائينش Léo Reinisch)، إلى أن يقول في سنة ١٩٠٨م بعائلة واحدة سامية حامية، بل إلى أن يلحق بها مجموعة لغات إفريقية السوداء. وهذه اللهجات البربرية تبدأ من الصحراء الغربية المصرية، من واحة سيوة على وجه التحديد، حتى المحيط الأطلسي في أقصى الساحل المغربي، وتستمر جنوباً حتى الضفة الغربية من السنغال، والضفة الغربية للنيجر، وحوض بحيرة تشاد في جمهورية مالي. ويظن الباحثون أن (الجوانش Guanches)، وهم السكان القدماء لجزر كناري، كانوا يتكلمون أيضاً لهجة حامية شبيهة بلهجة البربر في الشمال الإفريقي. ولعل اتساع رقعة الأرض التي انتشرت فيها لهجات البربر، وكثرة الجبال والقفار التي تقطعها، قد انتهت بتفتت البربرية إلى لهجات واضحة أنها ترجع لغوياً إلى أصل واحد، ولكن أبناءها من مختلف الشُعَب والعشائر لا يستطيعون أن يتفاهموا فيما بينهم لشدة ما حدث من تطورات صوتية وصرفية في طرائقهم في الكلام.

وأهم لهجات هذه المجموعة هي الزواوة في الجزائر، والشاوية والشلحة في المغرب الأقصى، والزناقة في موريتانيا، والتاماشيك في قلب الصحراء الكبرى، هذا إلى جانب لهجة الأوجيلة، التي كانت أولى اللهجات البربرية دخولاً إلى ميدان البحث العلمي الأوروبي عندما نشر اللغوي (ميلر Miller) وصفاً شاملاً لها نشره في باريس بين عامي ١٨٢٧م و ١٨٢٩م. وهو بعمله هذا قد افتتح الدراسات الحامية الحديثة إذ جاء بعده (رينيه باسيه René Basset)، فاشتغل

بهذه الأبحاث منذ عام ١٩٢٤م. وقد اهتم الباحثون المعاصرون له بلغات إفريقية جميعاً، خصوصاً بتشجيع السياسة الاستعمارية الأوروبية في القارة المظلمة، فظهر البحث المقارن والاهتمام باللغة الحبشية ولهجات بلاد النوبة ومقارنة ذلك كله بعضه ببعض. ومن يجدر ذكره من هؤلاء الباحثين (ماينهوف C. Meinhof) الذي نشر عام ١٩١١م دراسة مقارنة للمجموعة الحامية، ولكنه أدرج فيها لغات إفريقية ما يزال الشك يحوم حول أصلها مثل الهاوسا والهورتوت التي سبقت الإشارة إليهما.

هناك أيضاً مجموعة من النقوش الليبية القديمة التي ما يزال حل طلاسمها يعتمد على الافتراض وتعوزه القواعد اليقينية، ومع ذلك فإن العلماء يذهبون مبدئياً إلى أن أصل الكتلة البربرية في شمال إفريقيا ربما يكون كامناً في تلك النقوش الليبية.

أما لغة المصريين القدماء فإنها معروفة لنا الآن، والأثر السامي القوي فيها لا يسمح بتصنيفها حاميةً بحتةً ويرجع أقدم ما عندنا من نقوشها إلى الألف الرابع قبل الميلاد، ومنذ ذلك الحين والتطور يطرأ عليها بحيث أصبحت تنقسم إلى:

(أ) لغة الدولة القديمة من الألف الرابع إلى حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد.

(ب) لغة الدولة الوسطى من ٣٠٠٠ قبل الميلاد إلى ١٣٧٠ قبل الميلاد تقريباً، وهذه الفترة تعتبر العصر الذهبي للغة الفراعنة، والمقياس الكلاسيكي في الفصاحة.

(ج) لغة الدولة الحديثة التي تزدهر ابتداءً من سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد تقريباً.

أما من حيث الكتابة فإنها بدأت تصويرية هيروغليفية، ثم نشأت بجانبها الكتابة الهيراطيقية، وهي صورة مبسطة من الهيروغليفية، كان يستعملها الكهنة. وأما الكتابة الشعبية، الديموطيقية، فقد ظهرت في خلال الألف الأول

قبل الميلاد، منذ حوالي سنة ٦٦٠ قبل الميلاد. وقد قاومت الكتابة المصرية القديمة الغزو الفارسي ثم اليوناني والروماني، إلى أن دخلت مصر في العصر المسيحي، حيث غيّر المصريون كتابتهم القديمة واصطنعوا لهم أبجدية متطورة عن اليونانية كتبوا بها لغتهم. وهكذا يتميز العصر القبطي في مصر، وإن كانت الكتابة الديموطيقية القديمة قد ظلت تصارع الزمن إلى حوالي سنة ٤٧٠ بعد الميلاد. وظهرت في اللغة القبطية لهجات كُرستها طقوس الكنيسة أهمها القبطي البحيري ثم القبطي الصعيدي ويسمى أيضاً الإخيمي، ثم القبطي الفيومي ويسمى أيضاً البشموري. وقد استمرت القبطية لغة المصريين إلى أن حُلَّت العربية محلها مع دخول الإسلام وانتشاره. ويذكر بعض الباحثين الأوروبيين أن القبطية ظلت مستعملة بين أقباط الصعيد حتى القرن السابع عشر، بل تقول الأستاذة همبورجر^(١): إن اللغة القبطية ربما ظلت منتشرة حتى القرن التاسع عشر في قوص ونقادة بالصعيد.

ويعتبر اللغويون الأوروبيون أن أهم كتلة لغوية حامية تأتي بعد الكتلة الإفريقية الشمالية هي اللغات الكوشية، نسبة إلى كوش بن حام بن نوح، المذكور في سفر التكوين من التوراة، والذي ورد ذكره أيضاً في النصوص المصرية القديمة أحياناً باسم كاش، ويعتقد أن موطن الكوشيين الأصلي هو الضفة الشرقية للنيل الجنوبي، ومن أهم اللهجات الكوشية:

١ - البجة التي تمتد من بلاد بني عامر في النوبة إلى الهاذندوة والبقاوية في إقليم إرتريا الشمالي. ويظن بعض الباحثين أن هؤلاء البجة هم أول من استوطن الدلتا المصرية في التاريخ.

٢ - البشارية وهي قريبة من البجة.

٣ - الأجاو في الحبشة.

٤ - الساهو ويلحق به الدنكلي أو الأفار في منطقة جيبوتي.

٥ - الصومالي وهو لهجة منتشرة من خليج عدن حتى جوبة في أعالي النيل.

٦ - الجَلَا في جنوب غرب الصومال.

٧ - السيدامو والكفأ والداورو والولامو في إفريقيا الاستوائية.

تلي هذه الكتلة فصيلة أخرى تسمى اللغات الزنجية - الإفريقية، أولغات إفريقيا السوداء. وكانت الأستاذة همبورجر^(١) أول من صنف هذه الفصيلة وكتب عنها، إذ ترجع أبحاثها فيها إلى سنة ١٩١٢م وأطلقت عليها اسم اللغات النجرو - أفريقية وفي ذاك الوقت أدخلت في هذه الفصيلة لغات السنغال والبانو ولهجات السودان. وأقرها على هذا التصنيف اللغوي الفرنسي مورييس ديلافوس (Maurice Delafosse) منذ سنة ١٩١٦م، ثم أكد تأييده لتصنيفها في الفصل الذي كتبه في موسوعة «لغات العالم» سنة ١٩٢٥م وتذكر هذه الباحثة أن الأستاذ وسترمان (Westermann) قد اعترف في عام ١٩٢٧م بالقرابة اللغوية بين البانتو وما سماه باللغات السودانية في إفريقيا الغربية. ذلك أنه كان يفرق بين لغات في شرق النيل يسميها اللغات النيلية الحامية، ولغات أخرى يسميها اللغات النيلية السودانية في غرب النيل، ويكمن الفرق عنده في أن المجموعة الأولى تفرق بين المذكر والمؤنث والثانية لا تفرق بينهما في الكلام ولكنه عدل عن هذا التقسيم فيما بعد، وعاد إلى تفرعات أخرى هي النيلية، والبانو، والسودانية.

والمشكلة التي تعترض الباحث ترجع إلى الظروف المناخية والاجتماعية التي تجعل تسجيل معظم هذه اللغات واللهجات محفوفاً بالصعوبات، كذلك كثيراً ما تعدد أسماء مختلفة تدل على لغة أو لهجة واحدة، وقد ذكرت الأستاذة همبورجر أن مجموعة اللغات واللهجات النجرو - إفريقية ذكرت تحت ١٧٠٠ اسم. ومهما يكن من تعدد الأسماء للهِجَة أو لغةٍ واحدةٍ فإنه يبقى بعد

(١) المرجع السابق، ص ٦٧ - ٦٨.

وبدون أدنى شك أن عدد اللغات واللهجات نفسه كبير جداً، وذلك مما يزيد مهمة الباحث تعقيداً.

ولغة البانتو تشمل لهجات مستعملة في الشواطئ الشرقية لإفريقيا الوسطى حتى رأس الرجاء الصالح جنوباً وجبل الكاميرون غرباً. أما من الشمال فحدود البانتو مائة لا يمكن وضع خط نهائي لها، نظراً لتحركات سكانية مختلفة وفي اتجاهات عدة في هذا الجزء من إفريقية الوسطى. وأشهر لهجات البانتو هي لهجة الزولو والتشوانا والتنجا، المنتشرة من الكونغو وجابون إلى جنوب إفريقية. وفي أوغندا نجد من لهجات البانتو: الجاندا، والنيورو، والزيبا. وفي حوض الزمبيزي الأعلى تنتشر لهجة اللوزي، وهي عامية من لغة اللوثي القديمة التي كانت مستعملة بين حكام هذا الإقليم حتى القرن التاسع عشر، حيث اكتسحه غزو من التشوانا الذين كانوا يتكلمون لهجة أخرى هي الكولولو.

ومن اللهجات المعروفة اللهجة النوبية بفروعها التي أشهرها: لهجة دنقلة، لهجة الكنوز، لهجة الماهاس، لهجة الفديجة، لهجة الدلنج، لهجة كردفان ويلحق بها الكانوري والكايدي كانمو وهما تمتدان حتى بحيرة تشاد.

ومن اللهجات الإفريقية التي انتشرت على ضفاف النيل الجنوبي الشلوك والنوير والانيواك والدينكا واللوو والماساي.

ومن اللهجات التي درست دراسة كافية في هذه الكتلة الدوالا، والموزوك، والنجومبا، والداهومي، والسنغاي، والداجومبا، هذا إلى ما ذكرناه سابقاً من لغة البوشيمان والمالوماو التي تقترب لغوياً من البوشيمان.

مما سبق يتبين لنا أن هذه المجموعات الإفريقية ما تزال أرضاً بكرًا للباحثين، وليس من شك في أن جزءاً كبيراً من مسؤولية إحصاء هذه اللغات واللهجات، والتعرف على آدابها وتاريخها، يقع في مسؤولية البحث اللغوي في مصر، البلد الأعرق في الدراسات اللغوية، والأكثر تطلعاً إلى توثيق أواصر المعرفة الإنسانية والثقافية، والأحوج إلى ذلك كله، في كل القارة الإفريقية.

* * *

مجموعة اللغات الهندية الأوروبية

اللغة الهندية الأوروبية الأم: لغة مفقودة مندثرة حسب أحدث آراء اللغويين. ذلك أن الأرومة الأصلية لهذه الكتلة الكبيرة من الشعوب عاشت وماتت وتفرقت ذريتها في الأرض من قبل أن تعرف الكتابة، مثلها في ذلك مثل اللغة السامية الأم التي سيرد ذكرها فيما بعد. والموطن الأصلي لهذه الأرومة مجهول كذلك، وكل ما نعرفه هو فروع من هذه الأم كالحيثية أو الطخارية، والمجموعة الهندية الإيرانية، واللغات الأرمنية، البلطية، والصقلية أو السلافية، والألبانية، والإغريقية أو اليونانية، والجرمانية، والإيطالية بفرعيها اللاتينية والإسكوميرية، والكلتية.

أما الحيثية، فهي لغة إمبراطورية قامت في آسيا الصغرى بين سنة ١٩٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد، وكانت عاصمتها في الموضع الذي يعرف الآن «ببوغاز كوي» في إقليم «كابادوسيا» في شرق الأناضول. والنصوص التي عثر عليها من هذه اللغة تثبت بوضوح أنها هندية أوروبية في كل بنائها النحوي، إلا أن فيها كلمات دخيلة من لغة أولغات لم تعرف بعد. وهذه النصوص مكتوبة بالخط التصويري (الهيروغليفي) ثم بالخط المسماري بعد ذلك.

أما الطخارية، فهي اللغة القديمة للتركستان الصيني في وسط آسيا، وأقدم ما وصلنا من نصوصها يرجع تاريخه إلى ما بعد ميلاد المسيح، وهي مكتوبة بأبجدية مقتبسة من الخط الهندي، وقد ميز العلماء لهجتين (أولغتين) مختلفتين ومستعملتين كل منهما في أماكن نائية عن الأخرى.

وتعتبر كتلة اللغات الهندية الإيرانية من أهم فروع هذه العائلة، حتى إن كثيراً من الباحثين يظنون أنها العائلة كلها، والذي لا شك فيه هو أن مجموعة القبائل التي تستعمل الهندية الإيرانية الأم تشعبت فيما بين القرن الثامن عشر والقرن العاشر قبل الميلاد إلى شعبتين:

* الشعبة الغربية، وهي التي تفرعت منها اللغات الإيرانية، وفي مقدمتها من حيث الأهمية والقدم لغة الأفستا أو الزند، ثم الفارسية القديمة التي ترجع نقوشها إلى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، ومنها ولد اللسان البهلوي ثم الفارسية الحديثة.

* الشعبة الشرقية، وقد عاش أهلها زمناً طويلاً في بلاد السند التي تسمى حالياً البنجاب، وفيها تطورت هذه اللغة التي كانت تسمى السنسكريتية والتي تربطها وشائج أخوة لغوية باليونانية واللاتينية والحيثية. وترجع أقدم نصوصها التي عندنا إلى فترة سابقة على الإغريق والرومان ولكنها متأخرة عن الحيثيين. ومن السنسكريتية ولدت الهندية القديمة ثم لغات الهند الحديثة ولهجاتها، وهي حوالى ٢٧ لغة ولهجة يستعملها أكثر من ٢٦٠ مليوناً من السكان، وترجع جميعها إلى أصول هندية أوروبية أو آرية كما يسمونها. ومن أهم لغات هذه الشعبة «الهندي» وهو اللغة السائدة بين سكان حوض نهر الكنج، وتعتبر من أوسع اللغات انتشاراً من حيث عدد المتكلمين بها في العالم كله، وهي تطمح الآن في أن تصبح لغة الحضارة ولغة الوحدة الوطنية للهند، ولها لهجات متعددة وشديدة الشبه بعضها ببعض.

هناك لغات ولهجات أخرى جديدة بالذكر في هذا الفرع من اللغات الآرية في الهند، أهمها الأردو وهي لغة باكستان الرسمية، والجوجراتي، والبنجابي، والبهارى (وهي لهجات مستعملة في إقليم الهملايا من كشمير إلى نيبال)، والسندي في إقليم الهندوس الجنوبي، والمراثي، والأوريا، والبنغالي وغيرها.

ومن لغات هذه المجموعة ايضاً الباشتو وهي لهجة إيرانية انتشرت في أفغانستان وأصبحت لغة رسمية لهذه المملكة.

وإذا كانت الإيرانية القديمة، الزندية أو الأفستية، هي اللغة الدينية المقدسة في إيران القديمة، لغة العبادات على دين زرادشت (المجوسية)، فإن السنسكريتية هي اللغة المقدسة للهند القديمة. وأقدم صورها لغة كتاب الهند المقدس «الفيدا» وقد تطورت مع الزمن وتقلصت عنه السنة المتكلمين حتى أصبحت لغة تستعمل في الطقوس الكهنوتية وفي بعض فنون السحر، إذ ورد فيها كثير من الرقي والعزائم. وحلت محلها في حلقات العلم بمدارس البراهمة والسوترا لغة يسمونها السنسكريتية الكلاسيكية أو «البهاسا» وهي لغة الأئمة والعلماء والصفوة من مفكري الهند.

أما الهندية المتوسطة، فهي ايضاً من لغات الهند القديمة ومن أهم صورها: (البراكريت Prakrit)، الذي عثر على نصوص منه ترجع إلى القرن الثالث الميلادي، واللغة المسماة (البالي Pali)، وهي قريبة من البراكريت، وتمتاز بأنها كانت اللغة الفصحى لائمة الدعوة البوذية، وللقدامى من أدباء الهند وفلاسفتها.

اللغة الأرمنية: من فروع الهندية الأوروبية وكانت مستعملة منذ القرن السادس قبل الميلاد في إقليم الجبال الواقعة بين البحر الأسود والسهول الجنوبية للقوقاز وشمال العراق. وكان المتكلمون بها يسمون أنفسهم «هاي» وجمعه في لغتهم «هايچ»، أما جيرانهم فكانوا يسمونهم «أرمينيا»، وقد عرفوا عالمياً بهذا الاسم الأخير. ويقولون إن أبجديتهم—وهي أبجدية عجيبة لا تشبه الأبجديات المجاورة— قد اخترعها في القرن الرابع الميلادي حكيم من أسلافهم اسمه (مسروب Mesrope)، ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي بدأت الأرمنية تتطور حتى انقسمت إلى أرمنية فصحى وأرمنية عامية. أما الأرمنية الحديثة ففيها لهجات غربية وشرقية. والأرمن يدينون بالمسيحية، وقد ترجم الكتاب المقدس

إلى لغتهم منذ القرن الخامس بعد الميلاد، كما ترجموا كتباً دينية أخرى عن السريانية واليونانية، بالإضافة إلى ما كتبه بالأرمنية آباء هذه الكنيسة وما خلفه أسلاف الأرمن من تراث في الأدب والفنون والصناعات والعلوم. وقد حاول بعض المؤلفين في علم اللغة الحديثة أن يلحقوا لغات قديمة ميتة في المنطقة ومجهولة الأصل بالأرمنية، ولكن الدليل على دعواهم ما يزال ضعيفاً، من ذلك الشومرية والتراقية والمقدونية والفريجية.

الكتلة اللغوية البلطية: وهي طائفة من اللغات نشأت حول بحر البلطيق، مات بعضها مثل (الكور Kour) و (البروسي القديم). وهذه اللغة الأخيرة انقرضت من الألسنة منذ القرن السابع عشر، ولدينا منها كتابات دينية مترجمة من عصر الزعيم البروتستانتي «مارتن لوتر»، نستطيع من خلالها معرفة هذه اللغة معرفة كافية في الحالة التي كانت عليها في القرن السادس عشر. أما لغة «الكور» فالمرجح أنها تقترب من لغة شبيهة باللتيوانية هي لغة «اللت» وقد حلت محلها هذه الأخيرة منذ القرن الثامن عشر الميلادي.

الكتلة اللغوية السلافية أو الصقلبية: وأشهر لغاتها ولهجاتها في الوقت الحاضر هي اللغة البلغارية، واللهجات الصربية، والكرواتية، والبوسنية، ولهجة الجبل الأسود، واللهجة الدلماسية، وكل هذا مستعمل في يوغوسلافيا وبعض الأقاليم الملاصقة لها. وتستمر هذه الكتلة في لغات السلوفين والروسية والتشيكية والسلوفاكية ولغة السوراب (Sorabe) أو الوندية (Wende) واللغة البولندية ولغة الكاشوب (Kachoube) وكانت هناك حتى القرن الثامن عشر لغة سلافية يتكلم بها سكان الأقاليم المتاخمة لمصب نهر الألب وكانت تسمى لغة (البولاب Polabe). وقد حاول بعض الباحثين أن يجمعوا اللغات البلطية والسلافية في وحدة واحدة، ولكن ما يزال هذا الاعتقاد محتاجاً إلى براهين أوضح. والذي لا شك فيه هو أنه كانت هناك لغة سلافية قديمة تفرعت عنها الكتلة السلافية بعد ذلك في حوالى القرن السابع أو الثامن بعد الميلاد وهو العصر التاريخي للشعوب السلافية. وليس عندنا مثال واحد من هذه اللغة

السلافية القديمة، ولكن عندنا نصوص ترجع إلى العصور الوسطى مكتوبة بلغة يسمونها السلافية القديمة وهي نصوص دينية تنتمي إلى الكنيسة الأرثوذكسية، يصفها اللغوي الفرنسي أنطوان ميه بأنها متطورة، وليست هي السلافية الأم. أما من حيث الكتابة فإن الصقالبه الذين اعتنقوا مذهب الكنيسة الشرقية، الأرثوذكسية، قد استعملوا أبجدية مشتقة من اليونانية هي التي يسمونها الأبجدية الجلاجوليتية (Glagolitique) أو الأبجدية السيريلية التي ينسب استخدامها إلى القديس سيريل (٨٢٧ - ٨٦٩) الذي أدخل المسيحية في روسيا. أما حيث اعتنق السلاف مذهب الكنيسة الغربية (الكاثوليكية) فإنهم كتبوا لغاتهم بالأبجدية اللاتينية.

اللغة البولونية: من أهم لغات الشعبة الغربية للكتلة السلافية. ومن أقدم صورها لهجة الكاشوب، التي ترجع إلى ما قبل العصور الوسطى. وكانت اللغة البولونية تتضمن لهجات كثيرة تختلف في النطق وفي الإملاء، ولكنها مالت إلى لغة عامة مع الوعي القومي والوحدة الوطنية.

اللغة التشيكية: كانت هذه اللغة كما سبق أن أشرنا لهجة عامية غير معترف بها في عهد إمبراطورية النمسا والمجر وتشيكوسلوفاكيا، ولكنها ازدهرت مع الاستقلال فأصبحت لغة علم وأدب منذ القرن التاسع عشر، وقام العلماء فيها بعملية تطهير، فأبعدوا الدخيل الألماني وأحلوا محله ألفاظاً سلافية، مع ذلك فما تزال لهجات عامية تحيا إلى جانب التشيكية الفصحى، أهمها لهجات بوهيميا ومورافيا وسيليزيا.

لغة السوراب: وهي لغة سكان إقليم (لوزاس Lusace) المتاخم للسوديت في النمسا، ويسمون أحياناً الوند (Wende)، وهي لغة سلافية أشبه بالبولونية منها بالتشيكية. وقد ظهرت فيهم نهضة أدبية خلال القرن التاسع عشر والعشرين بلغتهم الوطنية.

اللغة الروسية: وهي أهم لغات تلك المجموعة من حيث الثروة الثقافية،

واتساع الرقعة الجغرافية المستعملة لها، وعدد الناطقين بها. فهي منتشرة في كل روسيا الأوروبية تقريباً وفي معظم مدن روسيا الآسيوية مع اختلافات خفيفة في النطق بين الشمال والجنوب، فمثلاً، الفتحة الممدودة على لسان ساكن أركانجل في أقصى الشمال من سيبيريا تصبح ضمة عمالة عند ساكن أستراخان جنوباً. وقد كان لإصرار الكنيسة على استعمال السلافية القديمة أثره في الحيلولة دون ظهور الروسية كلغة أدبية للشعب حتى القرن الثامن عشر. ومعروف أن القيصر بطرس الأكبر قد بذل جهوداً كبيرة في تشجيع روسية حديثة أدبية متطورة.

اللغة الأوكرانية: وهي اللغة المنتشرة في إقليم أوكرانيا في أقصى الغرب من روسيا الأوروبية. وقد دخلتها المسيحية على يد أحد الآباء الكاثوليك في العصور الوسطى. ولهذا الاعتبار، ثم لمجاورتها لبولونيا ولتوانيا كان تطور اللغة الأوكرانية مختلفاً ومستقلاً عن تطور الروسية، إذ يبدو فيها أثر الغرب أشد وضوحاً، وفي المقاطعة المسماة روثين من أوكرانيا يظهر الأثر البولوني بقوة بالرغم من أن بولونيا كاثوليكية وهذه المقاطعة أرثوذكسية. وفي القرن السادس عشر قامت بين المثقفين الأوكرانيين حركة أدبية تهدف إلى الارتقاء بمستوى اللهجة الأوكرانية إلى اللغة الفصحى، ونجحت الحركة إلى حد كبير، حتى إن القيصر بطرس الأكبر توجس خيفة من تحول الحركة الأدبية في أوكرانيا، وتطور لغتها على نحو يزيد من بُعدها عن الروسية إلى أن تصبح حركة انفصالية سياسياً، فأمر سنة ١٧٢٠ بمحاربة الأوكرانية وبحظر طبع الكتب بهذه اللغة على الإطلاق، ولكن في نهاية هذا القرن الثامن عشر عادت المطابع في سان بطرسبرج إلى طباعة الكتب الأوكرانية وإن كان معظم ذلك باللغة العامية الدارجة.

اللغة الصربية الكرواتية: وهي منتشرة في يوغسلافيا والأقاليم المتاخمة لها، وهي مقاطعات الصرب والكروات ودالماسيا والبوسنة والهرسك والجبل الأسود وجزء من أستريا وهي شبه جزيرة في بحر الأدرياتيك متاخمة لإيطاليا وجزء من مقاطعة بانات الواقع بين رومانيا والمجر، كان يسمى قديماً تيميشوارا.

وعندما اعتنق أهل هذه البلاد الديانة المسيحية قامت بينهم ازدواجية لغوية فكانوا يتعبدون باللاتينية، ويكتبون في غير أمور الدين بلغتهم الوطنية وبحروف جلاجوليتية حتى سنة ١٠٥٩ ميلادية، ففي هذه السنة أصدر المجلس الملى الإقليمي أمراً بتحريم استعمال السلافية . ولكن ذلك قد عفا عليه الزمن مع ظهور البروتستنتية وإنتشار الكتاب المقدس مترجماً إلى اللهجة السلافية المستعملة ومطبوعاً بالحروف اللاتينية . ولعوامل سياسية أهمها انتصارات الروس على الدولة العثمانية الحاكمة إذ ذاك في تلك المناطق تحمّس المثقفون الصرب للتأليف بالروسية ونشرها في بلادهم، ولكن عادت اللهجة الصربية فاعتمدت كلغة رسمية لهذه الأقاليم منذ عام ١٨١٤ م .

اللغة السلوفينية: وهي منتشرة في إقليم الكارنيول في جنوب النمسا وفي أجزاء من مقاطعة أستريا وماجاورها . وأهمية هذه اللغة تكمن في احتفاظها دون سائر اللغات السلافية بخصائص كثيرة من السلافية القديمة . وقد وصلتنا منها نصوص دينية ترجع إلى القرن العاشر الميلادي . وما جاء القرن السادس الميلادي حتى استفادت هذه اللهجة من تسرب المبشرين بالبروتستنتية الذين كانوا يستعملونها طمعاً في كسب عطف هذا الشعب الصغير، حتى اضطّر الإيطاليون الذين أرسلهم الفاتيكان من روما لمكافحة البرتستنتية إلى استعمال هذه اللغة أيضاً، فظهر فيها من بعد مؤلفون يتابعون الحركات الأدبية في أوروبا ويلحقون ركب الفكر فيها .

اللغة البلغارية: كان البلغار قبائل متبربرة أخضعت السلافيين في شرق مقدونيا وتساليا وغيرهما في القرن التاسع الميلادي . ومع ذلك فإنهم لضعفهم حضارياً قد أخذوا لغة المغلوين وديانتهم المسيحية، ولكن لأنهم انتصروا عسكرياً فقد أرادوا أن تكون لهم كنيسة وطنية خاصة بهم هي الكنيسة السلافية البلغارية . واليوم أصبحت اللغة البلغارية لغة رسمية لهذه الدولة الشيوعية كما كانت على أيام الملكية . ومن الناحية اللغوية لا تقف اللغة البلغارية عند حدود الجمهورية الحالية بل تتعداها شمالي الدانوب وكذلك تستعمل في بسارابيا وبانات وغيرهما .

ومن الجدير بالذكر أن التبعية السياسية الطويلة الأمد، الثقافية من جانب البلغار للفكر السلافي، والتبعية الدينية للكنيسة البيزنطية، والتبعية السياسية الطويلة الأمد للخلافة التركية العثمانية، قد ملأت اللغة البلغارية بكثير من الدخيل من هذه الجهات جميعاً. ويرجع اهتمام اللغويين المحدثين بالبلغارية الحديثة إلى عهد قريب هو عام ١٨٢٢م حيث قام اللغوي الصربي فوك بدراستها ودعا إلى الاهتمام بهذه الدراسة.

* الكتلة الجرمانية: وهذه الكتلة من اللغات الهندو أوروبية تقترب من السلافية والبلطية من وجهة نظر فقه اللغة أكثر من اقترابها من الفروع الجنوبية من إيطالية وكتلية. وتتفرع هذه الكتلة الجرمانية إلى:

(أ) الفرع القوطي.

(ب) الفرع الإسكنديناوي.

(ج) الفرع الجرمانى الغربى.

(أ) الفرع القوطي: وينسب إلى القوط، أو بمعنى أدق القوط الشرقيين «الفيزيجوت»، تمييزاً لهم عن شعبة من القوط غزت غرب أوروبا واستقر جزء كبير منها في أسبانيا وهم القوط الغربيون «الأوستر وجوت». ونجد هؤلاء القوط الشرقيين منذ القرون الأولى للمسيحية وما وراءها، كما نجد القوط الغربيين في أسبانيا وشمال أفريقية، ومع ذلك فقد ضاعت لغتهم جميعاً، فيما عدا مجموعة صغيرة من البشر كانت في القرن السادس عشر الميلادي تسكن شبه جزيرة القرم في روسيا على البحر الأسود، وقال الرحالة والمؤرخون إن لغتهم كانت قوطية. وقد وصلتنا بعض كتابات من اللغة القوطية القديمة هي قطع من ترجمة الأسقف فولفيلاس للأناجيل الأربعة، وأجزاء أخرى من الكتاب المقدس، العهد الجديد والعهد القديم، وكلها ترجع إلى القرن الرابع الميلادي.

(ب) الفرع الإسكنديناوي: وهو الفرع الشمالي من هذه الكتلة ويشمل لغات الدانمارك والسويد والنرويج وأيسلاند وجزر الأرخبيل الفروي الواقعة في المحيط الأطلسي بين جزيرتي أيسلاند وشتلاند. وقد انتقلت لهجات من هذا الفرع في

غضون الألف الأول بعد الميلاد إلى جرينلاد والجزر البريطانية وإقليم النورماندي في شمال غرب فرنسا بل وصلت إلى جزيرة صقلية. ومن اللغات الجديرة بالذكر في هذا الفرع:

١ - النورماندية القديمة، ولا نعرفها إلا من بعض نقوش رونية (أي شمالية قديمة) يرجع أقدمها إلى القرن الثالث بعد الميلاد، كما وردت بعض مآثورات من هذه اللغة متفرقة في كتابات المؤرخ اليوناني «بوليب» - المولود حوالي سنة ٢٠٦ قبل الميلاد - وكذلك في بعض كتابات الأمبراطور الروماني يوليوس قيصر - المولود سنة ١٠١ قبل الميلاد.

وهذه النورماندية القديمة تتشعب بدورها إلى ثلاث لهجات نعرفها معرفة جيدة منذ غزوات النورمانديين أو الفيكيج كما يسمونهم أحياناً ابتداء من القرن التاسع الميلادي. وهذه اللهجات هي النرويجية القديمة، السويدية القديمة، والدنماركية القديمة التي تصنف معها الأيسلاندية لتتكون منها لهجة تسمى النوروائية، وقد قدر لها ابتداء من سنة ١١٥٠ ميلادية تقريباً أن تصبح لغة أدب لفترة ما. وقد أدى ذلك إلى ظهور عامية جديدة هي الأيسلندية المتوسطة بين ١٣٥٠ و ١٥٣٠ ميلادية ومنها تطورت الأيسلندية الحديثة. وأقدم المخطوطات الأيسلندية القديمة المكتوبة بحروف لاتينية يرجع إلى بداية القرن الثاني عشر. وهذه المخطوطات تحتوي على كتب دينية وتاريخية ومجاميع من القصص الخرافية والفولكلورية التي تسمى «ادا».

٢ - أما النرويجي القديم فقد اجتاحت موجة من التطور العنيف خلال القرن الرابع عشر عندما كونت النرويج وحدة سياسية مع السويد وتوسعت هذه الدولة نحو الغرب في كثير من جزر شمال الأطلنطي، مما أدى إلى تعدد اللغات المحلية في داخلها.

٣ - وأما السويدي القديم فقد كانت حدوده اللغوية أوسع من حدود مملكة السويد السياسية الحالية، إذ كان يمتد على سواحل البلطيق حتى السواحل

الشمالية لما نسميه حالياً روسيا. وقد وصلتنا نقوش رونية من تلك اللغة ترجع إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر، بل إن بعضها أقدم من ذلك، فقد يصل إلى حوالي سنة ٩٠٠ ميلادية. وابتداء من القرن الثالث عشر تترك الكتابة الرونية مكانها للأبجدية اللاتينية، ومن خلال هذه النصوص نستطيع أن نقدر أن مستوى الحضارة في أيسلاند كان أعلى منه في السويد، وإن كانت السويد قد بدأت تطورها الحضاري قبل أيسلاند بقرنين من الزمان.

٤ - وقد تأخر الدانماركي القديم في تطوره فلم يصبح لغة أدبية إلا في القرن الثالث عشر، وأقدم مخطوطات هذه اللغة كان بالكتابة الرونية، وهناك مخطوط قديم بالحروف اللاتينية تاريخه سنة ١٣٠٠ ميلادية، ومن خلاله نعلم أنه في هذا الوقت كانت الدانماركية ثلاث لهجات؛ اشتهرت منها منذ ظهور البروتستنتية لهجة زيلاند.

وكل هذه اللغات الشمالية تعرضت لتأثير الفرع الجرمانى منذ ظهور البروتستنتية وانتشارها في القرن السادس عشر، ثم اجتاحتها أثر اللغة الفرنسية على طول القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويظن أن تيار التأثير اللغوي لشعوب غرب أوروبا على هذه المناطق ولغاتها دائم لا ينقطع، بسبب الاختلاط الإجباري بين صيادي السمك في سفنهم في كل شمال غرب الأطلنطي.

(ج) الفرع الجرمانى الغربى: وهو يشمل لغات ولهجات استعملها السكسون والفرنجة والتوارنجيون (في ألمانيا الوسطى) والألمان (العشائر الجرمانية القاطنة على ضفتي نهر الراين) والبافارويون وغيرهم من القبائل الجرمانية القديمة.

وقد عرفت هذه القبائل فترة تسمى في تاريخها بعصر الغزوات، من القرن الرابع إلى القرن الثامن، حُلَّت فيها اللهجة الجرمانية محل الكلتيّة في الجزيرة البريطانية وهولندا وبلجيكا وفي سويسرا الألمانية. ثم أخذ الجرمان يستولون من السلافين والإسكندنافيين والمجريين على أراضٍ واسعة في شرقي موطنهم الأصلي، وأولئك الغزاة من الجنس الجرمانى كانوا إذا دخلوا أرضاً متحضرة تخلوا

عن لغتهم الأصلية وأخذوا لغة البلاد المفتوحة، ومثال ذلك ما حدث عندما استقر الفرنجة في بلاد الغالة (فرنسا) واللومبارديون في حوض نهر البو بإيطاليا، والقوط الغربيون في إسبانيا وشمال إفريقيا. فكل هذه العشائر الجرمانية تكلمت بلهجاتٍ لاتينيةٍ الأصل.

أما في الجزر البريطانية فإن قبائل الجوت والسكسون والأنجل قد طردوا قبائل الكلتيين الذين كانوا قد اضطبعوا بالحضارة الرومانية فألجأوهم إلى الجبال. وقد تعرضت قبائل الأنجل التي قطنت شمال الجزيرة البريطانية لغزوات الدنماركيين، بينما بقي السكسون في الجنوب الشرقي واعتنقوا المسيحية وتحضروا ودافعوا عن أنفسهم أمام الغزو الدنماركي، وأخذوا يتكلمون منذ القرن السابع بما يسميه علماء اللغات «الإنجليزية القديمة». وجاء الفتح النورماندي مع وليم الفاتح الذي هاجم الجزيرة البريطانية من فرنسا فانتشر الأثر الفرنسي بين السكان. وخلال قرن من الزمان (من سنة ١٠٥٠ إلى سنة ١١٥٠ ميلادية) انتشرت الكتابة بالحروف اللاتينية، الأمر الذي نتج عنه ظهور ما يسمى بالإنجليزية الوسطى وهي لغة تحمل بقوة أثر التعابير الفرنسية، وألفاظاً كثيرة من اللغات اللاتينية الأصل، ومع ذلك فقد بقي بناء اللغة إنجليزياً جرمانياً الصبغة. ومنذ القرن الرابع عشر بدأت اللغة الإنجليزية الحديثة تشق طريقها وتتطور في إطار الشخصية المعروفة للشعب البريطاني وتاريخه.

هذا ما كان من أمر القبائل الجرمانية التي خرجت من موطنها الأصلي واستقرت بعيداً، أما الذين بقوا في الأراضي الجرمانية فقد وصلتنا منهم نصوص ترجع إلى القرنين الثامن والتاسع، ومنها يتضح أنه كانت هناك لهجتان، بل لغتان متميزتان هما الألمانية القديمة والسكسونية القديمة، أو كما يسمونها الألماني العتيق الأعلى والألماني العتيق الأسفل. ومع القرن الثاني عشر يأخذ التطور في التقريب بين اللغتين ويظهر ما يسميه علماء اللغة بالألمانية المتوسطة، مع بقاء عدد كبير من اللغات واللهجات الفرعية المحلية التي تذكر بأيام الانقسام الأولى. وبظهور البروتستنتية ساعدت الترجمة الألمانية للكتاب المقدس التي كتبها

مارتن لوثر على تثبيت شكل فصيح وعام للغة الألمانية، بحيث تتمكن الجامعات المختلفة من الألمان من تعليم لغوي بقواعد موحدة وإن اختلفت طرقهم في النطق، وهكذا وجد ما يسمى بالألمانية الرفيعة ثم اللهجات التي اشتهرت منها خارج ألمانيا لهجة السويسريين الألمان.

من أهم لغات هذا الفرع اللغة الهولندية، واللغة الفلمنكية المستعملة في بلجيكا وبعض أجزاء من شمال فرنسا، وهي تكاد تكون لهجة من الهولندية لشدة قربها منها. ومن اللهجات الهولندية الجديرة بالذكر اللهجة الإفريقية «الإفريكانز» التي يستعملها المستعمرون البيض في جنوب إفريقيا حول منطقة رأس الرجاء الصالح. وكان هؤلاء البيض المعروفون باسم «البوير» يتكلمون الهولندية ثم لجأت إليهم في هذه البلاد جماعات فرنسية اللغة، بروتستنتية المذهب هم الهوجنوت، فحرم عليهم البيض في جنوب إفريقية استعمال اللغة الفرنسية مما أدى إلى تأثر الهولندية المستعملة هناك بالفرنسية التي ذابت فيها، والوصول بالهولندية الإفريقية إلى أن تكون لهجة لها مميزات المحلية.

اللغة اليونانية: من أهم وأعرق لغات المجموعة الهندوأوروبية، ولسنا نعرف شيئاً عن الحالة اللغوية لشبه جزيرة اليونان قبل وصول هذه العناصر الهندية الأوروبية، الهيلينية، في غضون الألف الثاني قبل الميلاد، وإن كنا قد عثرنا على نقوش سابقة على اليونان في بعض الجزر اليونانية وبخاصة جزيرة كريت، قاعدة الحضارة الإيجية أو المينوية، كما يسميها علماء الآثار.

أما اليونانية فقد بدأت في بداوة الشعب اليوناني على شكل مجموعة من اللهجات القبلية واللغات المحلية. ولكن حدث في القرن الرابع الميلادي أن حقق اليونان وحدة لغوية اختاروا لها أفصح اللهجات وهي لهجة أيونيا (الساحل الغربي لآسيا الصغرى) ولهجة أتيكا (أثينا وضواحيها).

إلى جانب اللغة الأيونية الأتيكية كانت في اللغة اليونانية لهجات كبرى أشهرها اللهجة الأركادية القبرصية واللهجة الأيولية ثم اللهجات الغربية. وقد

جاء في النصوص المصرية التي ترجع إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ذكر غزو قام به قوم يسمون في هذه النصوص «أكايروشي» ويظن كثير من الباحثين أنهم يونان ينتسبون إلى جزيرة «خيوس»، أو أنهم «آخيون» من المجموعة الأركادية القبرصية. ونشير هنا إلى أن يونان قبرص استعملوا أولاً في تسجيل لهجتهم كتابة مقطعية. ومن النصوص التي كتبت باللهجة الأيولية في القرن السابع قبل الميلاد كتابات «الكية» و«سافو». وأشهر النصوص اليونانية القديمة على الإطلاق الملحمتان الكبيرتان المنسوبتان إلى هوميروس: الإلياذة والأوديسة.

وقد انتشرت اللغة اليونانية مع فتوح الاسكندر في الشرق الأوسط فاستعملت في مصر والشام منذ أيام البطالسة والسلوقيين، كما انتشرت غرباً في الامبراطورية الرومانية كلغة علم وحضارة، ثم قضت عليها النهضة اللاتينية غرباً كما قضى عليها الإسلام شرقاً بفتح الإسكندرية ثم بيزنطة، وأخذت اللغة اليونانية من بعد طابعاً دينياً ثم ظهرت اليونانية الحديثة ونهضت بعد استقلال اليونان من حكم الأتراك، وأصبح لها أدب مرموق.

اللغة اللاتينية: وكان الأولى بنا لو أننا اتبعنا تصنيفاً صلباً لا يلين أمام أهمية أية لغة أن نبدأ هذه الفقرة بعنوان آخر هو: كتلة اللغات الإيطالية من العائلة الهندوأوروبية. إلا أن هذه الكتلة تفرعت في قديم الزمان إلى لهجتين صارتا لغتين مستقلتين، أولاهما اللغة الأسكوأمبرية بلهجاتها، وقد اندثرت كلها ولم تصلنا منها إلا نقوش نادرة، وثانيتهما هي اللغة اللاتينية التي تنتسب إلى إقليم لاتيوم الإيطالي والذي كان سكانه يسمون اللاتين. وفي بداوة اللاتين تعددت اللهجات في لغتهم ثم تقدمتها من حيث الفصاحة والإنتاج الأدبي والعلمي المكتوب لهجة مدينة روما، بالرغم من أن سكان هذه المدينة القدماء لم يكونوا من اللاتين الخالص، وإنما كانوا خليطاً من اللاتين والسابين وهم عشائر قديمة من سكان إيطاليا في الأقاليم المحيطة بروما. ويرجح الباحثون أن السابين كانوا أقدم وجوداً في المنطقة من اللاتين. وأن اللاتين هم عشائر هندية أوروبية عبرت جبال الألب واندفعت جنوباً في أفواج متعاقبة.

ويقسّم فقهاء اللغة اللاتينية مراحل تطور تلك اللغة إلى ثلاث: اللاتينية العتيقة واللاتينية الفصيحة (الكلاسيكية)، واللاتينية المتأخرة. ولكل مرحلة شواهد من الأدب وتراث من الفكر يميزها. فالمرحلة العتيقة تبدأ على الأرجح منذ إنشاء مدينة روما سنة ٧٥٣ قبل الميلاد، وقد وصلتنا من هذه المرحلة أجزاء من نقوش، منها مجموعة قوانين الملك نوما، ثاني ملوك روما القديمة بعد رومولوس، ثم الألواح الاثنا عشر التي ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد، كما روى الرواة من هذه المرحلة صلوات وثنية ومجموعات من الغناء الشعبي الإباحي وقصائد من شعر الهجاء والتجريح في الساسة والعسكريين. أما المرحلة الكلاسيكية فتبدأ بتأثير الأدب اليوناني منذ القرن الثاني قبل الميلاد، وتستمر إلى بداية التفكير المسيحي المستقر في القرن الرابع بعد الميلاد. ثم يدخل الأدب اللاتيني في دور التأخر كما تتخلّى اللغة اللاتينية عن مكانتها شيئاً فشيئاً أمام اللهجات الرومانية الفتية التي أخذت في الظهور منذ العصور الوسطى. وما تكاد هذه اللهجات تأخذ مكانتها في عالم الفكر الأوروبي وتصبح لغات منذ القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي حتى تنزوي اللاتينية في الكنائس الكاثوليكية لتصبح لغة عبادة فقط، وللكنيسة الكاثوليكية وحدها.

وفي عصر الإمبراطورية الرومانية في القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد عندما بلغت هذه الإمبراطورية قمة ازدهارها، كانت اللاتينية هي لغة العلم والإدارة والقضاء والدين والعسكرية في كل أنحاء هذه الإمبراطورية تقريباً، الأمر الذي يفسر لنا وجود دخیل من اللاتينية في كثير من اللغات الغربية على العائلة الهندية الأوروبية، كالعربية والسريانية والآرامية والعبرية، من اللغات السامية، وكالقبطية ولغات البربر في الشمال الإفريقي من المجموعة الحامية الإفريقية.

ولعل الحياة الطويلة المجيدة التي عاشتها اللاتينية، وهي حياة تزيد على ألفي سنة كانت السبب في أنها أصبحت أمماً لمجموعة من اللغات هي المجموعة الرومانية ومن أهم لغاتها: الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية

والبروفنسالية (لغة إقليم بروفانس في جنوب فرنسا)، والرومانية (لغة جمهورية رومانيا) يضاف إلى ذلك لهجات منها لهجة اللادينو في إسبانيا، وقد أصبحت خاصة بيهود هذه المنطقة، كما أن يهود الأقاليم الجرمانية نشأت لهم لهجة ألمانية في «الجيتو» تسمى «الليديش». كذلك نذكر من اللهجات اللاتينية الأصل اللهجة الرومانشية واللهجة الفريولية، الأولى في سويسرا والثانية في النمسا.

اللغة الإيطالية: كانت كما قلنا حتى القرن الثالث عشر عامية شعبية غير معترف بها، وكانت اللاتينية إذ ذاك هي اللغة الفصحى، ثم قُدِّر لها أن تحظى بثلة من العباقرة أمثال دانتي الليجيرى وفرانشسكو بتراركا وجيوفاني بوكاشيو ثم نيكولو ماكيافيلي، كتبوا بها فتبوأَت مكانها لغة قومية للشعب الإيطالي بدلاً من اللاتينية. وهناك ظاهرة طريفة في اللغة الإيطالية من وجهة نظر الدراسات اللغوية وهي أنها في أثناء تكونها تعددت لهجاتها بحسب العناصر اللغوية والبشرية التي مازجت اللاتينية في مختلف الأقاليم وأهم هذه العناصر الأربعة:

١ - **الإتروسك:** وظهر أثرهم اللغوي في توسكانا وجزيرة كورسيكا وأقاليم ميلانو وفيرونا وبولونيا. وقد ذكرنا أن لغة الإتروسك، اللغة الإتروسية من اللغات التي ما يزال حول أصلها جدل كثير.

٢ - **الليجوريون:** وهم عشائر لا تنتمي إلى الجنس الآري، كانت تسكن شمال غرب إيطاليا وجزءاً من جنوب شرق فرنسا.

٣ - **الكلت:** وهم عناصر هندية أوروبية أقرب إلى الفرع الجرمانى سكنوا في وسط إيطاليا.

٤ - **البنادقة أو الفينيت:** الذين تنسب إليهم مدينة البندقية (فينيسيا) ويظن أنهم من الإيليريين الذين يغلب عليهم الانتهاء إلى الصقالبة مع مزيج من دماء أخرى.

هذه الخلفية اللغوية والأنثروبولوجية كانت سبباً في تمكن ثلاث لهجات

إيطالية نهائية: واحدة في الوسط والجنوب وواحدة في الشمال والثالثة في إقليم توسكانا، ومن هذه الأخيرة تطوّرت الإيطالية الحديثة.

اللغة الفرنسية: ويرجع أقدم نصوصها إلى سنة ٨٤٢ ميلادية وهو ما يسمى «قَسَمَ ستراسبورج». وتنقسم فرنسا لغوياً إلى شطرين كبيرين أحدهما شمال نهر اللوار والثاني جنوبيه، ويميز كل منهما عن الآخر باللفظة الفرنسية التي معناها «نعم» والتي تنطق شمالاً «وي» وجنوباً «أوك». ففي منطقة «لانجدوي» يمكن تمييز ثلاث لهجات كبيرة هي لهجة بورجونيا ولهجة النورمادية ولهجة البيكارديّة. أما في الجنوب إقليم «لانجدوك» فتميز لهجات الليموزين والسنتون أو السنتونجية والأوفرنياتية والبيريجوردينية ولهجة أقصى الجنوب عند مصب الرون. . وإلى جانب هذه اللهجات الفرنسية توجد أساليب أخرى للتفاهم منها الكلتيّة الممثّلة في لهجة مقاطعة برتاني في أقصى الغرب، والجرمانية الممثّلة في لهجة اللورين والألزاس في أقصى الشرق. أما اللهجة الفرنسية التي قدر لها أن تصبح أساساً للفرنسية الفصحى فهي لهجة متوسطة يتكلم بها الفلاحون في إقليم التورين الواقع على نهر اللوار والذي اختاره ملوك فرنسا القدماء مقراً ريفياً لهم فكثرت فيه القصور والضياع والقلاع. وكما كانت الحال في اللغة الإيطالية وصلت الفرنسية إلى مستوى اللغة الفصحى على يد عباقرّة من الأدباء والمفكرين أمثال رابليه ومونتيني ورونسار في غضون القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

اللغة الإسبانية: كان سكان هذه البلاد يتكلمون قديماً لغة مجهولة الانتماء هي الإيبيرية، ثم تعرضوا لغزو الرومان وحلول الحضارة اللاتينية في إسبانيا ثم اجتاحتها القوط الغربيون والوندال والنورمانديون، وأخيراً افتتحها العرب على يد طارق بن زياد، وقامت فيها حضارة عربية إسلامية على مدى أكثر من خمسة قرون، دالت بعدها دولة العرب وطرّدوا من إسبانيا وتقلص عنها ظل الإسلام. كل ذلك أثر في اللغة الإسبانية فاحتوت على لهجات من أهمها: لهجة أراجون في الشمال الشرقي، ولهجة أستوريا، ولهجة الليونية في الشمال، ولهجة

الكستلانية (لهجة ما كان العرب يسمونه قشتالة) في الوسط؛ واللهجة الأندلسية في الجنوب، وقد وصلت اللغة الإسبانية إلى مرتبة اللغة القومية الفصحى عندما أتيح لها هي أيضاً أدباء كبار مثل سرفانتس في القرن السادس عشر، وكالديرون في القرن السابع عشر.

اللغة البرتغالية: كان سكان البرتغال الأقدمون «الجوانش» يتكلمون بإحدى لهجات البربر المعروفين في شمال أفريقيا. وبعد الاحتلال الروماني دخلتها اللاتينية من خلال مقاطعة غاليسيا الإسبانية المتاخمة للبرتغال وباستقرار اللهجة الغاليسية في هذه البلاد انقسمت بدورها إلى لهجتين، إحداهما إلى الشمال من لوزيتانيا وهو إقليم ظل بمعزل عن النفوذ العربي والإسلامي، والأخرى إلى الجنوب حيث عاصرت الحضارة العربية. ولكن ضيق هذه البلاد أدى إلى توحيد اللهجتين بعد استقلال البرتغال.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى استعمار إسبانيا والبرتغال لأميركا الوسطى والجنوبية وانتقال لغتيهما إلى هذه البلاد التي أصبحت تسمى أميركا اللاتينية، وكلها تستعمل الإسبانية ما عدا البرازيل التي تستعمل البرتغالية، كما نجد البرتغالية مستعملة في جزائر ماديرا وجزائر آسورا، بينما الإسبانية مستعملة في جزر الكناري، واللهجة التي أشرنا إلى وجودها في فرنسا وسميها البروفنسية هي أيضاً قريبة الشبه جداً بالإسبانية القطلانية.

لغة رومانيا: وهي شعبة متطرفة من لغات الكتلة اللاتينية في أقصى الشرق من أوروبا. ويقال إن الشعوب القديمة التي استوطنت البلقان على الضفاف الجنوبية لنهر الدانوب، وكانت تتكلم بلهجات لاتينية، قد أقرت ذلك في رومانيا، الأمر الذي يفسر لنا الاختلاف الشديد بين لهجات اللغة الرومانية، الذي يتلخص في أربع لهجات كبرى: الداكورومانية، والمقدونية، والأفلاقية (الفلاكية)، والأسترية. وكان الأميون من سكان رومانيا قديماً لا يكاد بعضهم يفهم بعضاً إذا لم يكونوا من أبناء لهجة واحدة، ولكن انتشار التعليم ثم قيام جمهورية ديمقراطية شعبية في هذه البلاد قد أدى إلى تقارب هذه اللهجات وسيادة

الرومانية الرسمية، وهي وإن كانت لاتينية الأصل إلى أن موقعها في قلب العالم السلافي، ومتاخمتها لليونان، ووقوعها تحت الحكم التركي مدة طويلة من الزمان، كل هذه الاعتبارات تركت آثارها فيها من الدخيل السلافي واليوناني والتركي، ثم من تأثرها نحويًا ببعض صور التعبير السلافي.

* كتلة اللغات الدرافيدية (الأدرويدية): كلمة «درافيدا» اسم اصطلاحي أطلقه علماء النحو السنسكريتي على مجموعتين كبيرتين من سكان جنوبي الهند هما التامول والتيلوجو، ثم استعمل نفس الاصطلاح ليطلق على مجموعة من اللغات المستعملة في الهند والتي تنتمي إلى السنسكريتية ويدين كثير من المتكلمين بها بشريعة «براهما». أطلقت مثلًا على الجوجاراثي، والماراثي، والأوريسه، وما تزال في هذه الكتلة لغات لأقوام أميين لم يسجلها بالكتابة إلا الباحثون الأوروبيون، وقد ذكر الباحث البريطاني كالدويل (Caldwell) من هذا النوع لغات التودا (Toudas) والكوتا (Kotas) والجند (Gonds) والكو (Kous) والأراءون (Araons) والراج محل (Ragmahals). أما أهم اللغات المستعملة في الهند من تلك الكتلة فهي التامول، وتسمى الدامير، وهي لغة السهول ابتداءً من خليج البنغال، وتعتبر مدينة مدراس أهم مركز للناطقين بهذه اللغة. وهناك لغة المالايالام (Malayalam) وهم أهل جبل. أما التيلوجو، أو التينوجو، فهي لغة منتشرة على الساحل الشرقي. وسكان هضبة ميسور يتكلمون لهجة تسمى كانارا أو كانادا أو كرناتاكا، وكانت لهم مملكة قديمًا، ولغتهم، التي أصبحت الآن عامية، أدب قديم كذلك. أما أقرب اللغات المنتمية إلى السنسكريتية في هذه الكتلة فهي لغة التولو الذين يعيشون في ناحية من إقليم كنارا. وتنتشر غرباً لغة الكُورج، وهي غير معروفة من الباحثين اللغويين فيما عدا بعض تسجيلات للمبشرين الغربيين. وعلى سفوح جبال نيلغيري تستعمل لغة النودا أو التوداوار. والكوتا، وأكثرهم من الحرفيين، يستعملون لغةً لعلها صورة قديمة من الكانارا. «والكو» لهم لغتهم كما قلنا وقد يسمون الجند، وليس بعيداً أن تكون هناك صلة ما بين الجند والجند وأن تكون اللهجتان على ارتباط وثيق.

* * *

عائلة اللغات السامية

وهي الأرومة اللغوية التي تنتمي إليها لغتنا العربية. ولما كان البحث المقارن يعتمد على تلمس وجوه الشبه ووجوه الافتراق بين أفراد العائلة اللغوية الواحدة في سبيل تحقيق فهم أعمق وأفضل لكل لغة من اللغات على حدة ولغات المجموعة كلها، من حيث ارتباطها بعضها ببعض، ولما كان البحث اللغوي في اللغات السامية، كما هو في غيرها من اللغات، يتطور مع ازدياد الثروة من النصوص التي يكشف عنها، أو من النصوص التي كانت مستعصية ثم حل بعض العلماء رموزها، فإنه ينبغي أن تفرد للغات السامية، خدمة للغة العربية، دراسة خاصة بها، تكفل إعطاء وصف لغوي أكثر تفصيلاً لأفراد العائلة السامية، كما تكفل إعطاء فكرة تاريخية وجغرافية عن التوزيع والتصنيف اللغوي في داخل هذه العائلة، مع الإشارة إلى أهم الخطوات العلمية التي أفادت منها الدراسات السامية، ثم ما يمكن أن يعمل استمراراً في هذا الطريق من أجل الوصول إلى حلول أكثر واقعية فيما يتصل بمشاكل اللغة العربية الحالية والمستقبلية؛ ويكفي هنا أن نقول إكمالاً للإحصاء التقريبي الذي عرفنا فيه بأهم العائلات والمجاميع والكتل اللغوية في العالم، أن اللغة السامية الأم التي انحدرت منها لغات هذه العائلة، لغة مندثرة لا نملك منها نصوصاً مكتوبة ولا مروية في كتابات آخرين، ولكنها تشغل بفروعها المنطقة المحصورة بين هضبة إيران وجبال أرمينيا وهضبة الأناضول شرقاً وشمالاً، ثم البحر الأبيض المتوسط وقناة السويس والبحر الأحمر والمحيط الهندي غرباً وجنوباً.

في داخل هذه الرقعة التي تشمل العراق والشام وشبه الجزيرة العربية، تحدّث الساميون بلغاتهم، فعرفنا منها في العراق الأكادية، وهي لغة قريبة الشبه بالعربية حتى من حيث الأعراب، ومنها ولدت البابلية الآشورية والكلدانية. أما إلى الغرب فإن الشام ينقسم إلى البادية والسهول الداخلية ثم السواحل الواقعة على البحر الأبيض، ففي المناطق الأولى سادت الأرامية التي ولدت منها السريانية والنبطية، وفي الثانية سادت الكنعانية التي ولدت منها الفينيقية والمؤابية والعبرية. أما في الجنوب في الجزيرة العربية، فقد سادت العربية الفصحى وعديد من لهجاتها القديمة، كما قامت في جنوب شبه الجزيرة الكتلة اليمنية بلغاتها الحميرية والسبئية والمعينية وما تفرع من اللهجات المنتمية لها، حتى إذا عبرنا مضيق باب المندب إلى القارة الإفريقية وجدنا اللغات الحبشية ترتبط ارتباطاً عضوياً بهذه العائلة السامية كما ترتبط بها لغة جزيرة سقطرى في المحيط الهندي.



الفهارس

- (١) فهرس المصادر والمراجع .
- (٢) فهرس الأعلام .
- (٣) فهرس الطوائف والشعوب والقبائل .
- (٤) فهرس اللغات واللهجات .
- (٥) فهرس الألفاظ والعبارات .
- (٦) فهرس الموضوعات .

(١)

فهرس المصادر والمراجع

(أ) المصادر والمراجع العربية :

- ١ - إبراهيم السامرائي (دكتور) : دراسات في اللغة . بغداد ، ١٩٦١ م .
- ٢ - ابن جني ، أبو الفتح عثمان : الخصائص . تحقيق محمد علي النجار ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٢٧١ هـ - ١٩٥٢ م ، الجزء الأول .
- ٣ - ابن سيده : المخصص . في ١٧ مجلداً ، طبع بولاق ، القاهرة ، سنة ١٣٢١ هـ .
- ٤ - ابن العبري ، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي : تاريخ مختصر الدول . بتحقيق الأب اليسوعي أنطون صالحاني ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ م .
- ٥ - ابن فارس ، أبو الحسين أحمد : الصحابي في فقه اللغة . حققه وقدم له الدكتور مصطفى الشويمي ، بيروت ، مؤسسة بدران ، ١٩٦٣ م .
- ٦ - ابن كثير ، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل : تفسير القرآن العظيم . القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، أربعة مجلدات .
- ٧ - ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب . بولاق ، المطبعة الكبرى الميرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٠٠ هـ ، عشرون جزءاً .

- ٨ - أبو زيد القرشي ، محمد بن أبي الخطاب : جمهرة أشعار العرب . بولاق ، المطبعة الأميرية ، ١٣٠٨ هـ .
- ٩ - أبو سليمان الفاسي ، داود بن إبراهيم : كتاب جامع الألفاظ . بتحقيق سالمون سكوس ، طبع فيلادلفيا ، الجزء الأول ، ١٩٢٦ م ، الجزء الثاني ، ١٩٤٥ م .
- ١٠ - إخوان الصفاء : رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا . بيروت ، ١٩٥٧ م ، أربعة أجزاء .
- ١١ - الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك : يتيمة الدهر في شعراء العصر . القاهرة ، مطبعة الصاوي ، ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م ، أربعة أجزاء .
- ١٢ - الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر : كتاب الحيوان . سبعة أجزاء ، نشر فوزي عطوي ، بيروت ، ١٩٦٨ م .
- ١٣ - الزمخشري ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر : الكشف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ومعه كتاب الانتصاف ، للإمام ناصر الدين أحمد بن المنير السكندري . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٣٥٤ هـ .
- ١٤ - السيوطي ، جلال الدين : المزهري في علوم اللغة وأنواعها . القاهرة ، المكتبة الأزهرية : محمد سعيد الرافعي ، ١٣٢٥ هـ .
- ١٥ - الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك . القاهرة ، المطبعة الحسينية ، ثلاثة عشر مجلداً ، ١٣٢٦ هـ .
- ١٦ - طه عبد الحميد طه (دكتور) : فقه اللغة . القاهرة ، ١٩٦٨ / ١٩٦٩ م .
- ١٧ - علي عبد الواحد وافي (دكتور) : علم اللغة . القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الرابعة ، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .
- ١٨ - علي عبد الواحد وافي (دكتور) : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل . القاهرة ، مكتبة دار العروبة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .

١٩ - علي العناني (دكتور) : كتاب الأساس في الأمم السامية ولغاتها وقواعد اللغة العبرية وآدابها . بولاق ، المطبعة الأميرية ، ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥ م .

٢٠ - القرآن الكريم .

٢١ - الكتاب المقدس .

٢٢ - كمال يوسف الحاج : في فلسفة اللغة . بيروت ، دار النهار ، ١٩٦٧ م .

٢٣ - مروان بن جناح ، أبو الوليد : كتاب اللمع . حققه ونشره يوسف دورنبورغ ، باريس ، ١٨٩٦ م .

٢٤ - المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي : مروج الذهب ومعادن الجوهر . بإشراف يوسف أسعد داغر ، أربعة مجلدات ، بيروت ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ م .

(ب) المصادر والمراجع الأجنبية :

- 1 — Bagrès et Goldberg : Epistola da Studii Targum utilitate et de linguae Chaldaicae Misnicae Talmudicae, Arabicae, vocabulorum item nonnullorum Rabbinicorum convenientia cum Hebraea, Paris, 1857.
- 2 — Bergman, Peter M. : The Concise Dictionary of 26 Languages, New York, 1968.
- 3 — Brockelmann, C. : Grundriss der vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, Berlin, 1908-1913, 2 vols.
- 4 — Brunot, Ferdinand : Histoire de la Langue Française, 5 vols.
- 5 — Bühler, K. : Sprachtheorie, Iéna, 1943.
- 6 — Darmesteter, Arsène : La vie de Mots, Paris, 1932.
- 7 — Frazer, Sir James George : Folk-Lore in the Old Testament, London, Macmillan and Co., 1919, 3 vols.
- 8 — Funke, O. : Studien zur Geschichte der Sprachphilosophie, 1927.

- 9 — Homburger, L. : Le Langage et les Langues, Paris, 1951.
- 10 — Littré, E. : Dictionnaire de la Langue Française, Paris, 1883.
- 11 — Lourié, Ossip : Le Langage et la Verbomaine, Paris, 1912 .
- 12 — Marouzeau, J. : La Linguistique, ou science du langage, Paris, 1921.
- 13 — Meillet, Antoine, et Mercel Cohen : Les Langues du Monde, Paris, 1925.
- 14 — Perrot, Jean : La Linguistique, Collection (que sais-je?), Paris, 1953.
- 15 — Potter, Siméon : Language in the Modern World, England, Pelican, 1964.
- 16 — Pittard, Eugène : Les Races et l'Histoire. coll. Evolution de l'Humanité, Paris, 1924.
- 17 — Renan, Ernest : Histoire Générale et Système Comparé des Langues Sémitiques, Paris, 1855.
- 18 — Révész, G. : Origine et Préhistoire du Langage, traduction de L. Homburger, Paris, 1950.
- 19 — Russell, Bertrand : An Inquiry into Meaning and Truth, England, Pelican, 1963.
- 20 — Sapir, Edward : Le Langage, traduction de Guillemin, Paris, 1953.
- 21 — Schmidt, R.R.J. : L'Aurore de L'Esprit Humain. Payot, Paris, 1936.
- 22 — Staline, Joseph : A propos du Marxisme en Linguistique, Paris, 1951.
- 23 — Vendryés J. : Le Langage, Introduction Linguistique à l'Histoire, Paris, 1921.
- 24 — Vendryés, Lev Semenovitch : Thought and Language, translated by Eugenia Hanfmann and Gertrude Vakar, U. S. A. The M. I.T. Press, Massachussetts Institute of Technology, 1966.
- 25 — Wholf, Benjamin Lee : Language, Thought and Reality; Selected writings, edited and introduction by B. Carroll, U. S. A., M. I. T. Press, 1966.
- 26 — Wright, William : Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Amsterdam, 1966.
- 27 — Zaza, Hassan : Le Semrent chez les Anciens sémites, Paris, 1957.

(٢)

فهرس الأعلام

ابن قزمان : ١٤٤	[أ]
ابن كثير : ٥٠	إبراهيم السامرائي : ١٠٥
ابن منظور : ١٢٠ ، ١٢٣	ابن برهان ، أبو الفتح : ٦٤
ابن نباته : ١١٦	ابن بابشاذ : ٣٣
أبوذر الغفاري : ١٢٣	ابن جني ، أبو الفتح : ٣٣ ، ٧
أبو سليمان الفاسي ، داود بن إبراهيم :	٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٥٢ ،
١٤٧	٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩
أبو عبيدة : ٤٣ ، ١٠٥	٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٨١
أبو علي الفارسي : ٥١	ابن الحاجب : ٦٥
أبونواس : ١١٦	ابن حجة الحموي : ١١٦
آتش : ٧١	ابن حزم : ١٤٥
الأتليدي : ١١١	ابن دريد : ٩٨
إتئين : ١٤٣	ابن الرومي : ٤٢
أحمد شوقي : ٣٤	ابن سيده : ١٤٥
الأخفش ، أبو الحسن : ٥١	ابن سينا : ٣٥
إخوان الصفا : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٩	ابن عباس : ٤٩
آدم : ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،	ابن العبري : ٥٢
٥٣ ، ٥٤ ، ٦٥	ابن فارس : ٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ،
أرسطو : ٨٩	٦٥ ، ٦٦
الأرموي ، تاج الدين : ٦١	ابن فورك : ٦٢

الأرموي ، سراج الدين : ٦١

إرميا : ٩٥

الإسفرائيني : ٦٢ ، ٦٤

الإسكندري ، أحمد بن المنير : ٥١

أسماء الفزاري : ١٢٤

الأشعري ، أبو الحسن : ٦٢

إشعيا : ٩٥

الأصمعي : ٤٣

أعشى باهلة : ١٢١

آل اليازجي : ١٣١

اليسيف ، سيرج : ١٥٢

أغسطس : ١١٦

بوتر ، سيمون : ٧٠

بوكاشيو : ١٤٤ ، ١٨٧

بولر : ١٥

بوليب : ١٨١

بيتار ، يوجين : ١٥٦

بيرو ، جان : ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٤٩

[ت]

تروميتي : ١٦٥

توفيق البكري : ١١٦

توماس الإكرويني : ٣٣

تنير ، أ. : ١٣٤

[ث]

الثعالبي ، أبو منصور : ١٠٥

ثيودوسيوس : ١١٦

[ج]

الجاحظ : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ١٠٤ ،

١٠٥ ، ١١٦ ، ١٤٤

جمبولاري : ١٤٣

جنزبرج ، لويس : ٤٨

جرجس ، همام الشويري : ١١٣

جرمانوس ، فرحات : ١١٣

جرير : ١١٦

جونز : ١٤٥

جيروم : ١٠٠

[ب]

بارت ، يعقوب : ١١٠

باسيه ، رينيه : ١٦٨

بتراركا : ١٤٤ ، ١٨٧

البحثري : ١١٦

براي ، لويس : ٢٦

برجسون : ٨٢

برزيلوسكي : ١٦١ ، ١٦٢

بروكا : ٦٢ ، ٦٣

برينو ، فردينان : ٦٩

بريون ، ج. : ١٤٣

بشار : ٤٣

بطرس الأكبر : ١٧٨

بطرس البستاني : ١١٣

جيشار : ١٤٥

[ح]

حميد الله : ٩٦

حيوج ، أبوزكريا يحيى بن داود : ١٤٧

[خ]

الخزرجي ، أبودلف : ١٠٥

الخفاجي ، شهاب الدين : ٩٩

[د]

دار مستير : ٩٣

داود الأنطاكي : ١٠١

دائتي : ١٠٣ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٨٧

دني ، ج . : ١٥٢

الدولي ، أبو الأسود : ١١٥

دوزا ، ألبير : ١١٥ ، ١١٦

دونش بن لبرط : ١٤٧

دي بونالد : ٧٥ ، ٧٩

الدرتي : ١٤٤

ديلافوس ، موريس : ١٧١

[ذ]

ذو الرمة : ٤١

[ر]

رابليه : ١٠٤ ، ١٤٤

الرازي ، فخر الدين : ٦١

راسل ، برتراند : ٧٠ ، ٧٢

الراغب الأصفهاني : ١٤٦

راينيش ، ليو : ١٦٨

رفائيل نخلة اليسوعي : ٩٩

رودكي : ١١٩

الرومي ، جلال الدين : ١٠٤ ، ١١٩

رونسار : ١٤٤

ريفيز ، ج . : ٥٩

ريفيه ، بول : ١٦٣

ريمات : ٧١

رينان ، إرنست : ٥٩ ، ١١٠

[ز]

الزبيدي : ٦٨

الزركشي : ٦٥

الزمرخشي : ٥٠

زهير بن أبي سلمى : ٨٥

[س]

ساير ، إدوارد : ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٤٦ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٨٩ ،

١٣٩ ، ١٤٠

ساسيتي : ١٤٥

السراج الوراق : ١١٦

سربويانو ، بوب : ١٦٦

سرفانتس : ١٠٣ ، ١٤٤

[ف]

الفردوسي : ١٠٤ ، ١١٩
فريزر ، سير جيمس جورج : ٤٧ ، ٤٨
فلهاوزن : ١١٠
فندريس : ١٩ ، ٦٣ ، ٩١ ، ١٥٩
فونكه : ١٥
فيجوتسكي : ٦٩ ، ٧٠
الفيروزآبادي : ٦٨

[ق]

القرشي ، أبوزيد : ٨٥ ، ٩٧

[ك]

كالدويل : ١٩٠
كثير : ٢٩
كراوس ، بول : ٩٦
كمال يوسف الحاج : ٢١ ، ٧٥ ،
٨٦ ، ٨٢ ، ٧٩
كوهين ، مارسيل : ١٥١
كيردو : ١٤٥

[ل]

لاكومب ، جورج : ١٥٢
لسلاو : ٩٢
لوثر ، مارتن : ١٧٦
لورييه ، أوسيب : ٩٠
لوك : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

سعدى : ١١٩

سعديا الفيومي : ١٤٦

سوفاجو : ١٥١

سيبويه : ٤٠ ، ٤٢

سيريل : ١٧٧

السيوطي ، جلال الدين : ٧ ، ٦١ ،

٦٢ ، ٦٤

[ش]

الشرتوني ، سعيد : ٩٨ ، ١١٣

الشمخ : ٤٣

شميدت : ١٦١

الشنفري : ٤١

[ط]

الطبري : ٤٩
طه عبد الحميد طه : ١٩

[ع]

عبد الغني النابلسي : ١١٦

عبد الله البستاني : ١١٣

عبيد بن أيوب : ١٢٤

علي عبد الواحد وافي : ١٩

علي العناني : ١٥٤ ، ١٦٠

عمر الخيام : ١١٩

[غ]

الغزالي : ٦٥

لويس شيخو : ١١٣

لويس المعلوف : ١١٣

لبننيز : ١٤٥

[م]

ماركس ، كارل : ٨٩

ماروزو ، ج . : ١١

مالك بن أسماء : ٤٢

ماينهوف : ١٦٩

المتنبي : ٣٤ ، ١١٦

محمد علي النجار : ٤٠ ، ٤٢

مروان بن جناح : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩

مسروب : ١٧٥

المسعودي : ٥٣

مناج : ١٤٤

مناحم بن سروق : ١٤٧

مولر ، فردريك : ١٥١

مونتين : ١٤٤

ميخائيل نعيمة : ٨٣

ميكيافيلي : ١٤٤ ، ١٨٧

ميلر : ١٦٨

ميه ، أنطوان : ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٥١ ،

١٦٣ ، ١٧٧

[هـ]

همبورجر : ١٥١ ، ١٦٣ ، ١٧٠ ،

١٧١

هوميروس : ١١٧ ، ١٨٥

هيرودوت : ٩١

[و]

وورف ، بنيامين لي : ٦٩

وسترمان : ١٧١

[ي]

يزيد بن النعمان : ١٢٣

يعقوب الهاوي : ٥٢

يهودا بن قريش : ١٤٨

يوليوس قيصر : ١٨١

* * *

(٣)

فهرس الطوائف والشعوب والقبائل

الأمم البدائية : ٧٣	[أ]
الأمم القديمة : ٧٣	أبناء الأشراف : ١٦
الأمّة الإسلامية : ٧	أبناء العامة : ١٦
الأمّة العربية : ٣٨ ، ٩	الأتراك : ١١٧ ، ١٣٥ ، ١٥٢
الأنبياء : ٦١ ، ١٣٧	الأتروسك : ٩٢
الإنجليز : ٣٥	الأتباسكا : ٣٥
أهل دمشق : ٥٢	أرباب الطرق الصوفية : ١٧
أهل الرها : ٥٢	الآراميون : ٤٨ ، ١٢٩
أهل السنة : ٥١	الأرواديون : ١٥٣
أهل المدن : ١٦	الأسبان : ١٥٨
الأوروبيون : ٤٥ ، ١٢٩	الآستروجوت : ١٨٠
الإيطاليون : ١٥٨	الإسكيمو : ١٣٩
الإينو : ١٥٢	الآشوريون : ١١١ ، ١٣٦
	الآطباء : ١١٠
[ب]	الإغريق : ١١٧
البابليون : ١١١	الإفريقيون : ١٣٩
البافاريون : ١٨٢	الأكاديون : ١١١ ، ١٣٦ ، ١٦٠
الباسك : ١٥١ ، ١٥٢	الآلجونكين : ١٣٩
البجاوية : ١٧٠	الآلمان : ٣٣ ، ١٠٢ ، ١١٢
البدائيون : ٢١	الأموريون : ١٥٣

[ث]

ثمود : ٥٣

[ج]

جديس : ٥٣

الجاهلية : ٣٨

الجأونيم : ١٤٧

الجرجاشيون : ١٥٣

جرهم : ٥٣

الجنود : ١٦

الجوانش : ١٦٨

[ح]

الحمويون : ١٥٣

حمير : ١٤٦

الحريون : ١٥٣

الحيثيون : ١٢٧ ، ١٣٥

[خ]

الخمير : ١٦٢

الخوز : ٤٥ ، ٤٦

[د]

ددان : ١٥٣

الدودانيم : ١٥٣

[ر]

الراقصات : ١٦

البرابرة : ١١٦ ، ١١٨

البراهمة : ١٧٥

البربر : ١٠٢ ، ١٤٩

البرميكا : ١٥٧

البلقانيون : ١٥٨

بنو آرام : ١٥٤

بنو جومر : ١٥٣

بنو حام : ١٥٣

بنو راعمة : ١٥٣

بنو سام : ١٥٤

بنو عابر : ١٥٣

بنو كوش : ١٥٣

بنو نوح : ١٥٣ ، ١٥٤

بنو يافث : ١٥٣

بنو يawan : ١٥٣

بنو يقطان : ١٥٤

البوشيمان : ١٥١ ، ١٦٦

[ت]

التجار : ١١٩

تجار الرقيق : ٤٦

الترك : ٧

التزيجان : ١٦٦

التشام : ١٦٢

التنجوز : ١٥٢

توجرمه : ١٥٣

التورانجيون : ١٨٢

الشوميريون : ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ،
١٣٨ ، ١٥٢

[ص]

الصقالبة : ١٥٨
الصناع : ١١٩
الصهيونية : ٩٥ ، ١٣٥
الصينيون : ١٥٨

[ط]

طسم : ٥٣
طبقة العوام : ١٦
طبقة المجرمين : ١٦
الطبقة النبيلة : ١٦
الطبقة الوسطى : ١٦

[ع]

عاد : ٥٣
العبريون : ٤٨ ، ٨٨ ، ١٢٩ ، ١٤٧
عبيل : ٥٣
العرافون : ١١٠
العرب : ٧ ، ٤٠ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٨ ،
٩٢ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
١٥٨

العرب الأقدمون : ٣٨
العراقيون : ١٥٣
العسكريون : ٢٤

رجال الدين : ١٦

الرعاة : ١١٩

الروس : ١٥٧

الروم : ٣٨ ، ١٣٥

الرومان : ٦٦

[ز]

الزنج : ٤٥ ، ١٥١ ، ١٥٩
الزنوج : ٤٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩

[س]

الساميون : ٣٨ ، ١٣٨ ، ١٥٢
الساميون القدماء : ٧٣ ، ١١٧ ، ١٣٦
سبأ : ١٥٣
سبتكأ : ١٥٣
سبته : ١٥٣
السريان : ٦٦ ، ١٢٩ ، ١٤٦
سكان بابل : ٤٨
سكان الريف : ١٦
سكان العراق القديم : ٤٨
السكسون : ١٨٢
السماريون : ١٥٣
السينيون : ١٥٣

[ش]

شبا : ١٥٣
الشعراء : ٨٣ ، ١١٠

الكسلوحيم : ١٥٣
الكفتوريم : ١٨٨
الكنعانيون : ١٢٨ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ،
١٦٠
الكهنة : ١١٠ ، ١٣٦
الكوشيون : ١٧٠

[ل]

اللاتين : ١٥٨
اللصوص : ١٠٥
الهاهيم : ١٥٣
اللوديم : ١٥٣
الليديون القدماء : ١٦٤
الليقيون : ١٦٤

[م]

الماليزيون : ١٥٨
المتسولون : ١٠٤
المجريون : ١٠٢
المسلمون : ٦٨ ، ١١٣
المسيحيون : ٦٨
المصريون : ٩١
المصريون الفراعنة : ١٢٧ ، ١٢٨
المعتزلة : ٥١ ، ٦٥
المغنيات : ١٦
المغنون : ١٧
المغول : ١٥٢

علماء الأزهر : ١٦
علماء المسلمين : ٤٨ ، ١٤٦
علماء النحو : ٢٧
العميان : ٣٣
العناهيم : ١٥٣

[ف]

الفتروسيم : ١٥٣
الفرس : ٣٨ ، ٦٦ ، ١١٨ ، ١١٩
الفرنجة : ١٨٢
الفرنسيون : ١٥١ ، ١٦٦
الفلاحون : ١١٩
الفلاسفة : ٢٧ ، ٦٤
فلاسفة الإسلام : ٣٠
الفلاسفة الرواقيون : ٩٠
الفلسطينيون : ١٥٣
الفلكيون : ١٣٦
الفونيالك : ١٥٧
الفينيقيون : ١٢٨

[ق]

القوط : ١٨٠
القوط الشرقيون : ١٨٠
القوط الغربيون : ١٨٠

[ك]

الكاريون : ١٦٥

[هـ]

- الهاندوده : ١٧٠
هنم : ٨٨
الهنود : ٣٨
الهنود الحمر : ٣٥ ، ١٣٩ ، ١٥٨
الهوتنتوت : ١٥١

[و]

وبار : ٥٣

[ي]

- اليوسيون : ١٥٣
اليهود : ٤٨ ، ٦٦ ، ٩٥ ، ١٣٧ ،
١٥٨ ، ١٤٤
اليونان : ٩٠ ، ٩١ ، ١٢٩ ، ١٣٥
اليبير : ١٦٦

المفكرون الإسلاميون : ٤٩

ملاحو السفن : ٢٤

المنجمون : ١٣٦

المنشدون : ١٦

المؤابيون : ١٢٩

المؤرخون المسلمون : ١٥٤

الموونج : ١٦٢

المون : ١٦٢

الميدجان : ١٦٦

[ن]

النبط : ١٢٩ ، ١٤٦

النحاة : ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩

نحاة العرب : ٩٦

النسك : ٨٣

النفثوحيم : ١٥٣

النور : ١٦٦

(٤)

فهرس اللغات واللهجات

الاستورالية : ١٦٠	[أ]
الإسكومبيرية : ١٧٣	الأرامية : ٥٢ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
الأشورية : ٩٦	١١٠ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٤٨ ،
الأفريكانز : ١٨٤	١٩٢ ، ١٨٦
الأفستانية : ١٧٤ ، ١٧٥	الآرية : ١٦٠
الأكادية : ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٣٦ ، ١٩٢	الآسيانية : ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥
الألبانية : ٩٢ ، ١٧٣	الأتروورية : ٩٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ،
ألتاي : ١٦١	١٨٧ ، ١٦٥
الإلحاقية (الإلصاقية) : ١٣٩	الأجاو : ١٧٠
الألمانية : ١٥ ، ٣٥ ، ١٠١ ، ١٠٨ ،	الإخميمي : ١٧٠
١٨٣ ، ١٠٩	الأدرويدية : ١٦٠ ، ١٩٠
الأمريكية : ١٦٠	الأردو : ٩٥ ، ١٧٤
الأمريكية الأصلية : ١٦٣	الأركادية القبرصية : ١٨٤
الأمهرية : ١١٠	الأرمنية : ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦
الأنامية : ١٦٢	الأزتيك : ١٦٣
الأندلسية : ١٨٩	الإسبانية : ١٦ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ،
الأندونيسية : ١٠١	١١٨ ، ١٢٦ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ،
الإنجليزية : ١٤ ، ١٦ ، ٣٥ ، ٦٩ ،	١٨٩ ، ١٨٦
٨٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ،	الأسترالية الآسيوية : ١٦١
١٥٨ ، ١٥٧ ، ١١٨	الأسترالية الأصلية : ١٦٣

الباشتو : ١٧٥
 البالي : ١٧٥
 البانتو : ١٧١ ، ١٧٢
 البانتوية : ١٦٠
 البانو : ١٣٩ ، ١٤٠
 البجابي : ١٧٤
 البجة : ١٧٠
 البراكريت : ١٧٥
 البربرية : ١٦٨
 البرتغالية : ١٠٩ ، ١١٨ ، ١٢٦ ،
 ١٨٩
 برمانيا : ١٦١
 البروسي القديم : ١٧٦
 البروفنسالية : ١٨٩
 البشارية : ١٧٠
 البشموري : ١٧٠
 البلطية : ١٧٣ ، ١٨٠
 البلغارية : ١٧٦ ، ١٧٩
 البنغالي : ١٧٤
 البهاري : ١٧٤
 بورجونيا : ١٨٨
 البوسنية : ١٧٦
 البولاب : ١٧٦
 البولونية : ١٧٦
 بوهيميا : ١٧٧
 البريجوردينية : ١٨٨
 البيكاردية : ١٨٨

الأوجيلة : ١٦٨
 الأورارتو : ١٤٦
 الأورالتائية : ١٦٠ ، ١٦١
 الأورالو- الطائية : ١٥٢
 أورالية : ١٦٤
 الأوردو : ٩٥
 الأوريا : ١٧٤
 الأوفرناتية : ١٨٨
 الأوكرانية : ١٧٨
 الأيبيرية : ١٦٦
 الإيسلندية الحديثة : ١٨١
 الإيسلندية القديمة : ١٨١
 الإيسلندية المتوسطة : ١٨١
 الإيطالية : ١٠١ ، ١٠٩ ، ١٢٦ ،
 ١٨٧ ، ١٧٣
 الأينو : ١٦١
 الأينوك : ١٧٢
 الأيولية : ١٨٤
 الأيونية الأتيكية : ١٨٤

[ب]

البابلية : ٤٨ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١١٤ ،
 ١٢٦ ، ١٣٦ ، ١٩٢
 البابلية الآشورية : ١١٠ ، ١١٤ ، ١٢٦ ،
 ١٩٢
 الباسك : ٩٢ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ١٦٦

[ت]

التنجوزية : ١٦١

التراقية الفريجية : ١٣٥

التراقية القديمة : ١٣٥

التركية : ٩٥ ، ١٠١ ، ١٦١ ، ١٦٤

التشوانا : ١٧٢

التشيكية : ١٣٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧

التلنكيت : ١٣٩

التوبيجواراني : ١٦٣

التودا : ١٩٠

التيلوجو : ١٩٠

[ث]

الثنجا : ١٧٢

[ج]

الجاندا : ١٧٢

الجرمانية : ١٠٩ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ،

١٨٢

الجعزية الحبشية : ١١٠ ، ١١٧

الجالا : ١٧١

الجُند : ١٩٠

الجوجراتي : ١٧٤

[ح]

الحامية : ١٦٠

الحبشية : ١٤ ، ١١٠ ، ١٣٧ ، ١٩٢

الحميرية : ١٩٢

الحيثية : ١٣٧ ، ١٦٤ ، ١٧٣

[د]

الداجومبا : ١٧٢

الداهومي : ١٧٢

الداورو : ١٧١

الدينكا : ١٧٢

الدلينج : ١٧٢

الدلماسية : ١٧٦

دنقلة : ١٧٢

الدنكلي : ١٧٢

الدنماركية القديمة : ١٨١

الدوالا : ١٧٢

[ر]

الروسية : ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨

الرومانشية : ١٨٧

الرومية : ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٤٣

[ز]

الزواوة : ١٦٨

الزولو : ١٧٢

الزناقة : ١٦٨

الزنحية الإفريقية : ١٦١

الزنذية : ١٧٤ ، ١٧٥

الزيبا : ١٧٢

زيلاند : ١٨٢

[س]

الساكاي : ١٦٢

السامية : ٩٥ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٢٦ ،

١٦٠ ، ١٦٧

السامية الحامية : ١٦٧

الساو : ١٧٠

السبية : ١٩٢

السبية القديمة : ٩٢

السريانية : ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ٨٤ ،

٩٢ ، ١١٠ ، ١١٨ ، ١٢٦ ،

١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ،

١٧٦ ، ١٨٦ ، ١٩٢

السفانية : ١٦٤

السقطرية : ٩٢

السلافية : ١٧٦ ، ١٨٠

السلافكية : ١٧٦

السلافينية : ١٧٩

السنسكريتية : ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٧٤

السنسكريتية القديمة : ١٠١

السنسكريتية الهندية : ١٠٨

السنطونجية : ١٨٨

السنغاي : ١٧٢

السواحلية : ١٣٥

السودانية : ١٧١

السوراب : ١٧٦ ، ١٧٧

السويدية القديمة : ١٨١

السيامية : ١٦١

السيدامو : ١٧١

سيليزيا : ١٧٧

السيمانج : ١٦٢

[ش]

الشاوية : ١٦٨

الشَّلْحَة : ١٦٨

الشلوك : ١٧٢

الشومرية : ١٣٦ ، ١٦٥ ، ١٧٦

[ص]

الصرية : ١٧٦

الصرية الكرواتية : ١٧٨

الصقلبية : ١٧٣

الصومالي : ١٧١

الصينية : ١٤ ، ١٠١ ، ١٣٨ ،

١٤١ ، ١٦١ ، ١٦٢

الصينية التبتية : ١٦١

الصينية القديمة : ١٣٧

[ط]

الطائية : ١٦٤

الطخارية : ١٧٣

الطوارقية : ١٦٨

الطورانية : ١٥٢

الفرنسية : ١٦ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ،

١١٨ ، ١٢٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،

١٥٧ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ،

الفريجية : ٩١ ، ١٧٦ ،

الفريولية : ١٨٧ ،

الفلسطينية : ٥٢ ،

الفلمنكية : ١٨٤ ،

الفنلدية : ١٥١ ،

الفنلدية المجرية : ١٥١ ، ١٦١ ،

الفينيقية : ١١٠ ، ١٩٢ ،

[ع]

العازلة : ١٣٨ ،

العبرية : ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ٨٨ ،

٩٥ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ،

١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ،

١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٦٠ ، ١٨٦ ، ١٩٢ ،

العبرية القديمة : ١٣٧ ،

العدنانية : ١١٠ ،

العربية : ١٦ ، ١٧ ، ٢٩ ، ٣٣ ،

٣٧ ، ٣٩ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ،

٥٨ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٨٤ ، ٩٢ ،

٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٧ ،

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ،

١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٦ ،

١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،

١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٦٧ ،

١٨٦ ، ١٩١ ،

[ق]

القبائلية : ١٦٨ ،

القبرصية : ١٣٥ ،

القبطية : ١٣٦ ، ١٧٠ ،

القبطي البحري : ١٧٠ ،

القبطي الصعيدي : ١٧٠ ،

القبطي الفيومي : ١٧٠ ،

القحطانية اليمنية : ١١٠ ،

القوقازية : ١٦٤ ،

[ف]

الفارسية : ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٩٥ ،

١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١١٩ ،

١٤٦ ، ١٤٩ ،

الفارسية الحديثة : ١٧٤ ،

الفارسية القديمة : ١١٧ ، ١٧٤ ،

كانمبو : ١٧٢ ،

الكانوري : ١٧٢ ،

الكايدي : ١٧٢ ،

كردفان : ١٧٢ ،

الكرواتية : ١٧٦ ،

اللو : ١٧٢	الكستلانية : ١٨٩
الليموزين : ١٨٨	الكفا : ١٧١
	الكلتية : ١٨٣ ، ١٧٣
[م]	الكلدانية : ١٣٦ ، ١٤٣ ، ١٩٢
المؤابية : ١١٠ ، ١٩٢	الكلدانية النبطية : ٥٢
الماساي : ١٧٢	الكنعانية : ٨٨ ، ١١٠ ، ١٤٦ ، ١٩٢
الماهاسي : ١٧٢	الكنوز : ١٧٢
المتصرفة : ١٣٩	الكو : ١٩٠
المجرية : ١٣٥ ، ١٥١	الكوئا : ١٩٠
المراتهي : ١٧٤	الكور : ١٧٦
المصرية : ٩١	الكورج : ١٩٠
المصرية الفرعونية : ٥٤ ، ١٢٦ ،	الكورية : ١٥٢ ، ١٦١
١٦٧ ، ١٦٣ ، ١٣٦	الكوشية : ١٧٠
المصرية القديمة : ١٤٥	الكول : ١٦٢
المعينية : ١٩٢	الكولولو : ١٧٢
الملايولونيزية : ١٦٠ ، ١٦٢	
المنعزلة : ١٦٠	[ل]
المنغولية : ١٦١	اللازية : ١٦٤
مورافيا : ١٧٧	اللت : ١٧٦
الموزوك : ١٧٢	اللتوانية : ١٧٦
المونخمير : ١٦٢	اللاتينية : ٦٦ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٨ ،
الموندا : ١٦٢	١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ،
الموي : ١٦٢	١١٨ ، ١٢٦ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ،
المينجريلية : ١٦٤	١٦٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ،
	١٨٥ ، ١٨٧
[ن]	اللوئي القديمة : ١٧٣
الناماشك : ١٦٨	اللوذي : ١٧٢

الهندية الإيرانية : ١٧٣ ، ١٧٤

الهندية الصينية : ١٦٠

الهيروغليفيه : ١٢٧ ، ١٦٩

[و]

الولامو : ١٧١

الوندية : ١٧٦

[ي]

اليابانية : ١٠١ ، ١٦١

اليمنية القديمة : ١٤٦

اليونانية : ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،

١١٧ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ،

١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ،

١٨٥

اليونانية الفريجية : ٥٤

اليونانية القديمة : ١١٢

اليونية : ١٨٨

النبطية : ١١٠ ، ١٩٢

النجرو-إفريقية : ١٧١

النرويجي القديم : ١٨١

النوبية : ٩٢ ، ١٧٢

النورماندية : ١٨٨

النورماندية القديمة : ١٨١

النوروائية : ١٨١

النوير : ١٧٢

النيكوباري : ١٦٢

النيلية الحامية : ١٧١

النيلية السودانية : ١٧١

النيورو : ١٧٢

[هـ]

الهاوسا : ١٦٩

الهوتنتوت : ١٥١ ، ١٦٩

الهولندية : ١٨٤

الهندية : ١٦ ، ١٤٦

هندية أوروبية : ١٣٥

الهندية الأوروبية الأم : ١٧٣ ، ١٨٠

(٥)

فهرس الألفاظ والعبارات

[ر]

الرب : ٧٧
رداء : ٦٨
الروح : ٨٥
الريال : ١٠٢

[س]

السكر : ١٠١
السيارة : ١٠٠

[ش]

الشاي : ١٠١
الشرف : ٨٧

[ص]

الصراط : ١٠١

[ط]

الطيارة : ١٠٠

[أ]

الأدب : ١٩١
الإذاعة : ١٠٠
الإسفنط : ١٠١

[ب]

بابل : ٥٤ ، ٥٣ ، ٤٨
البرتقال : ١٠٢
البيعة : ٦٨

[ج]

الجنة : ٨٧
جهنم : ٨٨

[خ]

الخلق : ١٠١

[د]

الدراجة : ٩٩
الدين : ٨٥

الليمون : ١٠٢

[م]

المثذنة : ٩٧

المدخنة : ٩٨

المدفع : ٩٩

المروءة : ٨٤

المعبد : ٦٨

المعروف والمنكر : ٨٨

المقذاف : ٩٧

[ن]

النفس : ٨٥

[هـ]

الهاتف : ١٠٠

[ع]

عقل : ٧٧ ، ٨٦

العقيدة : ٨٦

[ق]

القرش : ١٠٢

القطار : ٩٩

[ك]

الكعبة : ٦٨

[ل]

اللحن أو اللغية : ١٢٣

اللغة : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١

اللهجة : ١٢٢ ، ١٢٣

(٦)

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥ - ٩

البَابُ الْإِقْلَاقُ

الظاهرة اللغوية	١١ - ١٢٩
الفصل الأول - علم اللغة وعلوم اللغة	١٣ - ١٨
الفصل الثاني - الكلام ونشأته وأصله	١٩ - ٢٦
١ - التعبير بالإشارة	١٩
٢ - التعبير بلامح الوجه	٢٠
٣ - التعبير بالصيحات والصرخات	٢٠
٤ - التعبير بالأدوات الصناعية	٢١
متى عرفت الإنسانية التعبير بالكلام ؟	٢١
الفصل الثالث - الكلام وتعريفه	٢٧ - ٦٦
عند النحاة - عند الفلاسفة - عند إخوان الصفا	٢٧ - ٣١
رأي إدوارد سابير - التعبير الصوتي	٣١ - ٣٣
ألفاظ الانفعال - الألفاظ ذات الجرس المعبر	٣٣
تعليق على رأي سابير	٣٤ - ٣٩
العلماء العرب القدماء وتعريف الكلام	٣٩ - ٦٦

٤٦ - ٣٩	رأي ابن جني - رأي الجاحظ
٦٦ - ٤٦	كيف نطق الإنسان الأول ؟ هل اللغة توقيف أم اصطلاح ؟
٤٨ - ٤٧	التوراة وأسطورة برج بابل
٦٦ - ٤٨	القرآن الكريم والعلماء المسلمون
٥١ - ٤٩	الطبري - ابن كثير - الزمخشري
٦١ - ٥١	رأي ابن جني - رأي ابن فارس
٦٥ - ٦١	الآراء التي نقلها السيوطي
٦٦ - ٦٥	اللغة اصطلاحية اخترعها المجتمع
٩٠ - ٦٧	الفصل الرابع - الكلام والفكر
٦٩ - ٦٨	الألفاظ رموز صوتية اصطلاحية
٧٢ - ٦٩	آراء الأوروبيين - رأي العالم الروسي فيجوتسكي
٧٢	ما هي الكلمة ؟ رأي برتراند راسل
٧٣	الكلمة والسحر
٩٠ - ٧٣	العلاقة بين اللغة والفكر
٧٨ - ٧٤	رأي إدوارد سابير - رأي كمال يوسف الحاج
٨٣ - ٧٨	مناقشة هذه الآراء
٨٩ - ٨٣	الفكر يتأثر باللغة ويؤثر فيها
٩٠ - ٨٩	اللغة هي المادة الطبيعية للفكر
١٠٦ - ٩١	الفصل الخامس - اللغة والمجتمع
٩٧ - ٩٣	اللغة وقانون التطور
٩٥ - ٩٣	عامل المحافظة
٩٧ - ٩٥	عامل التطور
٩٨ - ٩٧	أمثلة من الألفاظ المبتدعة
١٠١ - ٩٩	أمثلة من الألفاظ المنقولة إلى معنى جديد
١٠٢ - ١٠١	أمثلة من الألفاظ المأخوذة من لغة أخرى

١٠٦ - ١٠٢ الصلة بين اللغة والمجتمع
١٢٩ - ١٠٧ الفصل السادس - مظاهر التطور اللغوي
١٠٩ - ١٠٧	تغير أواخر الكلمات - في اللغة العربية - في اللغات السامية
١١٣ - ١٠٩ التخفف من قيود الإعراب
١١٥ - ١١٣ كثرة أوزان الصرف وتعقده
١١٧ - ١١٥ التطور في متن اللغة
١١٩ - ١١٧ كيف تموت اللغة ؟
١١٧	١ - أن تموت اللغة موتاً طبيعياً
١١٧	٢ - أن تموت اللغة قتيلة
١١٧	(أ) الغزو
١١٨ - ١١٧	(ب) التقدم الحضاري
١١٩ - ١١٨	٣ - أن تموت اللغة بالتسمم
١٢٩ - ١١٩ نظرة على بعض المصطلحات
١٢٢ - ١١٩	١ - اللغة
١٢٣ - ١٢٢	٢ - اللهجة
١٢٦ - ١٢٣	٣ - اللحن أو اللغية
١٢٦	٤ - اللغات الميتة
١٢٦	٥ - اللغة الأم
١٢٩ - ١٢٧	٦ - الكتابة
١٢٧	(أ) الكتابة التصويرية
١٢٧	(ب) الكتابة المقطعية
١٢٩ - ١٢٨	(ج) الكتابة الأبجدية

الباب الثاني

تصنيف اللغات

١٣١ - ١٩٢

- من العسير إحصاء اللغات - رأي جان بيروه ١٣٤
- إحصاء تقريبي للباحث الفرنسي تينير ١٣٤ - ١٣٦
- اللغات القديمة المعروفة لنا ١٣٦ - ١٣٧
- لغة شومر - لغة أكاد - اللغة المصرية الفرعونية ١٣٦
- اللغة الحيثية - اللغة الصينية القديمة - اللغة السنسكريتية ١٣٧
- اللغة اليونانية - اللغة العبرية القديمة - اللغة اللاتينية ١٣٧
- ١ - تقسيم اللغات إلى فصائل بحسب طبائعها أو أنماطها ١٣٨ - ١٤٢
- ١ - اللغات العازلة ١٣٨
- ٢ - اللغات الإلصاقية ١٣٩
- ٣ - اللغات المتصرفة ١٣٩
- رأي إدوارد سابير في هذا التقسيم ١٣٩ - ١٤٢
- ٢ - تقسيم اللغات إلى عائلات لغوية ١٤٣ - ١٩٢
- علم اللغة التاريخي في أوروبا ١٤٣ - ١٤٥
- تاريخ اللغات في الشرق العربي ١٤٥ - ١٤٩
- ابن حزم الأندلسي - ابن سيده - الراغب الأصفهاني ١٤٥ - ١٤٦
- سعديا الفيومي - مروان بن جناح ١٤٦ - ١٤٩
- التشابه بين العربية والعبرية ١٥٠
- ١ - التشابه في النطق ١٥٠
- ٢ - التشابه في الألفاظ ١٥٠
- ٣ - التشابه في الصرف ١٥٠
- ٤ - التشابه في تركيب الجملة ١٥٠

١٥٠ - ١٥٢	تقسيم العلماء المحدثين اللغات إلى عائلات لغوية
١٥١	عمل فردريك مولار - أنطون ميه - مرسيل كوهين
١٥١	رأي همبورجر
١٥٢ - ١٦٠	تقسيم ج. دني ، سيرج السيثيف
١٥٣ - ١٥٤	ارتباط نظرية تقسيم اللغات بالتقسيم الأنثروبولوجي
١٥٤ - ١٥٦	التقسيم العنصري للغات : تقسيم د. علي العناني
١٥٦	الرأي في ذلك - فساد فكرة وجود الجنس النقي
١٥٦ - ١٥٩	أمثلة على فساد التقسيم العنصري للغات ورأي يوجين بيتار
١٥٩ - ١٦٦	التصنيف اللغوي العنصري خرافة يهودية
١٦٠ - ١٦٦	تقسيم الأستاذة همبورجر
١٦١	١ - مجموعة اللغات الطورانية
١٦١	٢ - مجموعة اللغات اليابانية والكورية
١٦١	٣ - مجموعة اللغات الصينية
١٦١ - ١٦٢	٤ - مجموعة اللغات الأسترالية الآسيوية
١٦٢ - ١٦٣	٥ - مجموعة اللغات الملايوبولونيزية
١٦٣	٦ - مجموعة اللغات الأسترالية الأصلية
١٦٣ - ١٦٤	٧ - مجموعة اللغات الأمريكية
١٦٤	٨ - مجموعة اللغات القوقازية
١٦٤ - ١٦٦	٩ - مجموعة اللغات الآسيانية
١٦٧ - ١٧٢	عائلة اللغات الحامية
١٧٣ - ١٨٢	مجموعة اللغات الهندية الأوروبية
١٧٣	اللغة الهندية الأوروبية الأم
١٧٣	اللغة الحيثية - اللغة الطخارية
١٧٤	كتلة اللغات الهندية الإيرانية

الشعبة الغربية - الشعبة الشرقية - السنسكريتية	١٧٤ - ١٧٥
اللغة الهندية المتوسطة - اللغة الأرمنية	١٧٥ - ١٧٦
الكتلة اللغوية البلطية - الكتلة اللغوية الصقلية	١٧٦ - ١٧٧
اللغة البولونية - التشيكية - لغة السوراب - اللغة الروسية	١٧٧ - ١٧٨
اللغة الأوكرانية - اللغة الصربية الكرواتية	١٧٨ - ١٧٩
اللغة السلوفينية - اللغة البلغارية	١٧٩ - ١٨٠
الكتلة الجرمانية	١٨٠
(أ) الفرع القوطي	١٨٠
(ب) الفرع الإسكندنافي	١٨٠ - ١٨٢
١ - النورماندية القديمة	١٨١
٢ - النرويجي القديم	١٨١
٣ - السويدي القديم	١٨١ - ١٨٢
٤ - الدنمركي القديم	١٨٢
(ج) الفرع الجرمانى الغربى	١٨٢ - ١٨٤
اللغة اليونانية	١٨٤ - ١٨٥
اللغة اللاتينية	١٨٥ - ١٨٧
اللغة الإيطالية	١٨٧ - ١٨٨
اللغة الفرنسية	١٨٨
اللغة الأسبانية	١٨٨ - ١٨٩
اللغة البرتغالية	١٨٩
لغة رومانيا	١٨٩ - ١٩٠
كتلة اللغات الدرافيدية	١٩٠
عائلة اللغات السامية	١٩١ - ١٩٢

٢٢٤ - ١٩٣	الفهارس
١٩٥	(١) فهرس المصادر والمراجع
١٩٩	(٢) فهرس الأعلام
٢٠٤	(٣) فهرس الطوائف والقبائل والشعوب
٢٠٩	(٤) فهرس اللغات واللهجات
٢١٦	(٥) فهرس الألفاظ والعبارات
٢١٨	(٦) فهرس الموضوعات

* * *